رسالة مار مينا الخامسة

صفحة من تاريخ القبط

مطبوعات جمعية مار مينا العجايبي
بالأسكندرية
١٩٥٤م - ١٦٧٠ش

رسالة مار مينا الخامسة

صفحة من تاريخ القبط

مطبوعات جمعية مار مينا العجايبي
بالأسكندرية
١٩٥٤ م — ١٦٧٠ ش

فهرس

كلمة الجمعيـة

هذه طائفة أخرى من البحوث والدراسات ، تتألف من عـدة فصول فى تاريخ القبط وما كان لهم من أثار جليلة الشأن على تاريخ الحضارة العالمية ، وهى ولاشك صفحة من أمجد صفحات التاريخ المصرى . هذا إلى ترجمة لأهم مؤلف ظهر حديثاً فى هـذا الموضوع ، وأعنى كتاب « موجز تاريخ القبط » للعـالم الأمريكى ولـيم ورل الأستاذ السابق بجامعة متشيجان .

وإنه ليسعدنا اليوم حقـاً أن نتقدم برسالتنـا الخامسة هـذه « صفحة من تاريخ القبط » لنضعها إلى جانب زميلاتهـا السابقة بين يدى القارىء الـكريم ، لعله يكون فيها ما قد يشفى غليـل المشوقين لمعرفة تاريخ بلادهم وأجدادهم ، أو ما قد ينير السبيل أمام الراغبين فى التعمق فى هذه الدراسات .

وما نحسب أننا استطعنا فى هذه الرسالة أن نحيط بكافة أطراف الموضوع أو أن نجمع مختلف أشتاته ، ذلك أن تاريخ الحضارة القبطية لم ينل ، لسبب أو آخر من المؤرخين الأقدمين منهم والمحدثين ، ماهو جدير به من العناية والإهتمام ، وعلى ذلك ظلت صفحات عديدة منه لم تـكتب بعـد ، بل وإن بعض ما كتب تعوزه الأمانة العلمية أو على الأقل حسن النية . ولسنا ننـكر أن إهتمام علماء التـاريخ المصرى الذى كاد أن يكون قاصراً على الحضـارة الفرعونية طوال سنين عديدة ، قـد امتد أخيراً فشمل لغة القبط وأدابهم وفلسفتهم وأفـكارهم وعلومهم وفنونهم ، إلا أن الجهود المبذولة فى هذا السبيل ظلت غير متـكافئة ، مع ما يحق لهذه الدراسات من التقدير والاعتبار ، لما لها من آثار بالغة الأهمية ليس على التاريخ المصرى فحسب ، وإنما على تاريخ العالم والحضـارة والإنسانية جميعاً . وهكذا ظل القبطى المثقف يعرف مع الأسف عن تاريخ غيره من الشعوب والأمم ، أكثر مما يعرف عن تاريخ أبائه وأجداده ، أولئك الامجاد الذين عاشوا منذ فجر التاريخ معدناً أصيلا قد تخبو إصالته ولـكنها لا تموت أبداً .

وليس التاريخ فيما يزعم البعض أقاصيص تحـكى وأخبار تروى على سـبيل

الفكاهة أو التسلية ، وإنما التاريخ أعظم مهذب للأفراد والشعوب على السواء ، إنه يغذى الروح ويقوم النفس ويوحى بالفضائل والمثل العليا والمبادىء السامية الكريمة ، وهو فوق هذا كله يربط بين ماضى الشعوب وحاضرها وعلى ضوء ذلك تستطيع أن تتلمس طريقها نحو المستقبل مهتدية بما يحفل به من العبر الحافزة والذكريات النافعة .

كل هذه العوامل الوطنية والعلمية ، تدفعنا اليوم للتطلع إلى مؤرخينا وعلمائنا الأجلاء . الذين نعقد عليهم الآمال ، أن يقبلوا على تراثنا الأدبى القديم ، الذى لايزال مغموراً فى بطون المخطوطات ، فيتولونه بالنشر والتحقيق ثم بالبحث والدرس ، فهم بلاشك أقدر على الاضطلاع بهذا العبء بما اجتمع لهم من الكفاية العلمية والغيرة الوطنية ، حقق الله الآمال . . . !

يتبقى بعد ذلك كلمة شكر يحق علينا توجيهها لجميع من يرجع إليهم الفضل فى نشر هذه الرسالة وهم :

الأستاذ وليم ورل مؤلف كتاب « موجز تاريخ القبط » والدكتور فرنك روبنز مدير مطبعة جامعة متشيجان وناشر الكتاب المذكور لتفضلهما بالموافقة على ترجمته ، والأستاذ الدكتور عزيز سوريال عطيه لتكرمه بالحصول لنا على هذه الموافقة .

الدكتور تادرس منقريوس والأستاذ ملاك ميخائيل والدكتور منير شكرى والأستاذ موريس يوسف حنا وهم أعضاء الجمعية الذين تولوا ترجمة الكتاب المشار إليه ، والأستاذ الدكتور مراد كامل الذى تفضل بمراجعة الترجمة كما أشرف على إعداد الرسالة كلها .

الكتاب والعلماء الذين تفضلوا بتحرير بقية الفصول وفقاً لما هو مبين بالفهرس .

فبإسم جمعية مار مينا العجايبى بالاسكندرية ، يسعدنى ويشرفنى أن أتقدم لهؤلاء السادة الافاضل جميعاً بأخلص عبارات الشكر والتقدير وعرفان الجميل؟

بانوب حبشى

القبط في ركب الحضارة العالمية

للأستاذ الدكتور مراد كامل

أستاذ اللغات السامية بجامعة القاهرة

اسم القبط

كانت مصر تعرف قديماً ، عند شعوب البلاد السامية المجاورة لها ، باسم مصر فى الأشورية ، ومصرين فى الآرامية ، ومصرايم فى العبرية. كما عرفها العرب باسم مصر. والمصر فى اللغات السامية بمعنى الحد. وقد أطلقت الشعوب السامية ، من أشوريين وأراميين وعبريين وعرب ، على البلاد المتاخمة لهم « مصر » كما أسموا سكانها بالمصريين . ثم أطلقت كلمة مصر على القطر عامة. ومما يستحق الملاحظة ان كلمة (finis فينيس) فى اللاتينية بمعنى حد وقد أطلق الرومان هذه الكلمة بصيغة الجمع على القطر أيضاً .

وسمى القبط مصر باسم كيمى ، أى السواد ، بمعنى الارض السوداء . وقد عرفها الأشوريين أيضاً - كما نستدل على ذلك من نقوش اسفينية - باسم هيكوبتاه وهو الاسم الذى كان يطلقه المصريون على عاصمة ملكهم منف ، ومعناها (بيت روح بتاح) . وكان اطلاق هذا الاسم على القطر كله من سبيل اطلاق اسم العاصمة على القطر كما تعودنا ذلك فى المديريات الآن .

وقد سمع اليونان منذ عصور قديمة هذا الاسم واخذوه عنهم فاسموها (ايجبتوس) . وقد ورد هذا الاسم مرات عدة فى شعر هومير . فاذا حذفنا علامة الرفع (وس) ثم الحركة الاُولى التى ظنها العرب حرف استهلال خلص لنا بعد ذلك اسم قبط .

الجنس

يكون القبط فى العصر الحاضر أقلية عددية بالنسبة إلى سكان مصر. وليس القبط أقلية بالمعنى المصطلح عليه ، فالأقلية جماعة من الناس لها عادات خاصة وملابس خاصة وشارات خاصة واماكن للسكن خاصة بهم وحياة اجتماعية خاصة ونوع من الحرف خاص بهم ، وذلك بين شعب يفوقهم عدداً ، وهذا

الوصف لا ينطبق على القبط . فليس القبط إذن أقلية بالمعنى المصطلح عليه بل هم أقلية عددية فقط .

والقبط عنصر أساسى فى الأمة المصرية لا تقوم دراسة صحيحة عن مصر دون دراسة القبط تاريخاً ولغة وجنساً وادباً وفنا . وقد بدأ العلماء فى منتصف القرن الماضى بدراسة القبط ، ونشر مورتون فى فيلادلفيا عام ١٨٤٤ كتابه المسمى *Observations on Egyptian Ethnography* قال فيه : « ان القبط خليط من الجنس القوقازى و جنس زنجى و ذلك بنسب مختلفة ، وهم سلالة مباشرة لقدماء المصريين » ثم اخذ عنه العلماء هذا الرأى حتى ظهرت البحوث الحديثة وأجمع العلماء ـ وأهمهم *Oetteking* على ان الاقباط شعب ابيض من شعوب البحر الابيض المتوسط . وهم لم يحافظوا على بعض مميزات الجنس المصرى القديم فحسب بل احتفظوا إلى الآن بالسحن المصرية القديمة . وكان اختلاطهم بالاجناس المختلفة التى نزحت إلى مصر قليلا إلى درجة لم تؤثر عليهم ، مما أدهش علماء الاجناس الذى اثبتوا من مقاييس الرأس والقامه ان التشابه يكاد يكون تاماً بين المومياء المصرية وهياكل العظام فى العصور المختلفة وبين اقباط اليوم .

ولما كانت ثروة البلاد تتوقف على فلاحة الارض فقد ظل المصريون شعباً زراعيا واتسمت ثقافته واخلاقه بذلك الطابع الاساسى طوال عصور تاريخهم ، فهم قوم واقعيون وهذا واضح فى طريقة كتابتهم الهيروغليفية وفى تعبيراتهم الكلامية .

وبذلك يمكن القول ان اقباط اليوم هم — من ناحية الجنس — سلالة مباشرة لقدماء المصريين وليس لهم علاقة بالجنس الزنجى .

اللغة القبطية

هى الصورة الاخيرة من تطور اللغة المصرية القديمة . فقد ظلت اللغة المصرية القديمة لغة الكتابة والتخاطب فى مصر إلى ان استولى الاسكندر على مصر

وأخذ المصريون على اختلاف طبقاتهم يكتبون وثائقهم وخطاباتهم باللغة اليونانية. وقد بلغت الوثائق البردية اليونانية التى عثر عليها فى مصر من الكثرة والأهمية بحيث اقتضى ان تخصص لها دراسة جديدة قائمة بذاتها. ولا نزاع فى ان المعلومات التى زودتنا بها هذه الوثائق فاقت كل ما عرفناه من المصادر الأخرى عن تاريخ أى قطر من الاقطار أو أى عصر من العصور، ومع ذلك فانه مما يؤسف له ان هذه الوثائق البردية اليونانية تعطى صورة زائفة عن الحالة اللغوية فى مصر. إذ لما كانت اليونانية لغه الدولة فقد استلزم الأمر ان تدون بها كافة الوثائق سواء كان كاتبها يعرف اليونانية فيكتبها بفسه أو يجهلها فيستخدم كاتباً لهذا الغرض، يضاف إلى ذلك ان وفرة وجود الكتبة اليونان قد يسر كتابة الخطابات أيضاً باليونانية حتى لوكان المرسل والمرسل اليه يجهلانها. وكانت اللغة المصرية لا تزال تستخدم فى الكتابة الدينية والتخاطب ولكنه يبدو ان أى مصرى كانت لديه المقدرة والوسائل لتعلم الكتابة كان يفضل ان يتعلم الكتابة اليونانية، ومع ذلك فان غالبية أهل مصر كانت لا تعرف الكتابة بأى خط كان. فمن الخطأ إذن ان نزعم ان كافة المصريين كانوا يستخدمون اللغة اليونانية دون سواها، أو كانوا يستعملونها عامة أو حتى فى بعض المناسبات.

والواقع انه منذ عهد الاسكندر ازداد استعمال اللغة اليونانية وقل استعمال الديموطيقية فى الكتابة، ولكن يظهر ان بعض المصريين تبينوا اقبال الناس على تعلم الكتابة اليونانية وتفضيلهم لها على الديموطيقية لما فيها من سهولة، فنبتت فيهم فكرة تدوين لغتهم المصرية بحروف يونانية. وبعد محاولات مختلفة وصلوا إلى كتابة اللغة المصرية الدارجة بحروف يونانية واستعانوا ببعض حروف ديموطيقية لسد النقص الصوتى فى الابجدية اليونانية، وهذا ما نسميه باللغة القبطية.

وتبع وضع الابجدية القبطية تنظيم هذه اللغة المصرية الدارجة لرفعها إلى مصاف اللغات الأدبية، وظهرت اللغة القبطية بآدابها منذ أواسط القرن

الثالث الميلادى مدونة .

اللهجات

نعرف انه وجدت اختلافات بين شتى لهجات اللغة المصرية القديمة . وهذا ما نراه واضحاً الآن بين سكان القطر المصرى . ولا ريب ان بعض هذه الاختلافات على الأقل كان اساساً لما وجد منها فى اللهجات القبطية المتعددة . وعلى ذلك يمكن القول بانها جميعاً قديمة وقد وضعت لكل لهجة قواعد لكتابتها وتدوينها لتستخدم فى الاغراض الأدبية ، ولا تزال الكشوف الحديثة عن الآثار الأدبية المختلفة للهجات المتعددة تمهد لنا السبيل لتحديد تاريخ كل منها .

كان هناك أربع لهجات أدبية أساسية فى اللغة القبطية اشتقت كل منها من لغة التخاطب فى منطقة ما ، وهى البحيرية والصعيدية والفيومية والاخميمية . وهناك لهجات فرعية اخرى اشتقت من هذه . واترك هنا المجال للأستاذ يسى عبد المسيح ليحدثكم فى مقاله عن اللهجات القبطية وآثارها الادبية .

ازدهرت اللغة القبطية ازدهارها الاول فى القرنين الرابع والخامس بعد الميلاد ، ثم ازدهارها الثانى فى القرن الثامن . وقد أخذت العربية فى القضاء على القبطية سريعاً وأخذت الكتابة القبطية منذ القرن الثانى عشر تظهر فى نهرين بالقبطية والعربية حتى ، أتى القرن الثالث عشر فكان نقطة التحول فى مصير اللغة القبطية . فبينما كانت أسرة اولاد العسال تكتب بالعربية وتؤلف فى النواحى المختلفة ليفهم الشعب باللغة التى يتكلمها ، ظهرت نزعة وطنية من بعض علماء الاقباط الذين يدافعون عن اللغة القبطية ويؤلفون الاشعار بها على أوزان شعبية يحثون الاقباط على الاحتفاظ بلغتهم ، نذكر منها على سبيل المثال :

هلموا يا إخوتى لتسمعوا هذه الكلمات السلسة ولتفهموا هذه المعانى السهلة حيث انى مؤهل لان أبصركم بفائدة اللغة القبطية .

صرخة فى واد تبعها اختفاء اللغة القبطية سريعاً حتى زالت فى القرن

السادس عشر كلغة للتخاطب . ثم عاد اقلاديوس لبيب يحيي اللغة القبطية فى أوائل هذا القرن ولكن لا حياة لمن تنادى .

وبالرغم من ان اللغة القبطية انهزمت أمام العربية الا ان ذلك لم يحل دون فرض شخصيتها المصرية على اللغة العربية ، فصبغتها بصبغة جعلت اللغة العربية فى مصر تظهر بمظهر خاص يختلف عنه فى الاقطار العربية الاخرى ، كما ظلت العادات المصرية القديمة حية حتى الآن فى مصر .

فمن الكلمات القبطية التى دخلت العربية المصرية أسماء لمسميات مثل : برسيم. أردب . يم . أم قويق . حلق . تليس . بقوطى . قش . كعك . قلة . كحة . لقمة لبشة . ماجور . تمساح . نبوت . ننوس . نونو . ناف . بصارة رقاق . سلة . سمان . طورية . ذهبية . تنده . سنط . شونة . شوب . شوطة . شوربة . حلوم . رمان . شوشه . شبورة . بلح . ومن انواع السمك : البورى . والبنى . واللبيس . والراى . والشال . والشلبه .

ومنها أفعال مثل : شأشأ . وفرفر . وهلوس . وهوش . ولكلك . ونكت . وفط . وفتفت . ودمس (دفن) . وشلشل . وشن . وبشبش . وكذلك تعبيرات مثل : الورور ، للفجل الصغير . ولقلاق . ووجبة (الساعة أو الوقت) . والكاس ، بمعنى الألم . وتوت للحاوى بمعنى اجتمع . وليلى ، بمعنى افرح ، ونحن مازلنا نرددها فى « ليلى يا عينى » . وبح ، بمعنى انتهى . وكانى مانى .

ومنها استعمال أداة الاستفهام فى آخر الجملة ، ولعل من أهم مظاهر القومية المصرية ما نلحظه فى اسماء المدن المصرية ، فبالرغم من اختفاء الاسماء المصرية القديمة منذ تسعة قرون ، وهى مدة سيادة اللغة اليونانية وفرض أسماء يونانية على المدن المصرية ، مثل : أبولوتوبوليس ، لقوص . وأكسير نخوس ، للبهنسه . وليتوبوليس ، لأوشيم وبانوبوليس ، لأخميم . وهرموبوليس ، للأشمونين . وهيراكليوبوليس ، لأهناس ، فان الاسماء المصرية لم تلبث ان ظهرت ثانية لهذه

المدن بعد دخول العرب .
وبالرغم من أن اللغة القبطية لغة قومية فاننا نرى لها آثاراً عالمية . فهذه بعض الفاظ قبطية انتشرت فى اللغات الاوروبية مثل الواحة (وازيس) . كونى ، أى الصمغ ، وهى بالقبطية كومى التى أصبحت فى الابطالية جوما وفى الفرنسية جوم وفى الانجليزية جم . والسوسن والأبيس وشيهات ، وهى برية الاسقيط ومنها اسم الناسك فى اللغات الاوروبية . والابنوس . ولعل كلمة طوبة مثل من الالفاظ التى نعرف تاريخ انتشارها فى الخارج ، فقد اخذها العرب عند فتحهم لمصر عن القبطية وحملوها معهم إلى الاندلس فدخلت الاسبانية . ثم فتح الاسبان جنوب امريكا فانتشرت هناك (أدوبى) ثم اتصل الامريكيون الشماليون بامريكا الجنوبية فدخلت الكلمة فى اللغة الانجليزية بشكلها الاسبانى .

ومن أثر القبطية أيضاً ان القديسين كيرلس المسمى بالفيلسوف وأخاه ميتودوس ، عندما وضعا الابجدية الروسية فى القرن التاسع الميلادى أدخلا بعض الحروف القبطية المأخوذة عن الديموطيقية فى الابجدية الروسية .

الرهبنة

من أهم المظاهر ، التى قدمتها مصر للعالم المسيحى ، الرهبنة . وقد ذاع صيت نساك مصر فتوافد عليها الناس من جميع أركان العالم المسيحى الشرقى والغربى ، يدونون أعمال هؤلاء النساك ويكتبون أقوالهم . وظهر آباء الشركة فى مصر : باخوميوس ، ومكاريوس ، وانطونيوس ثم شنوده ، فنظموا حياة النساك وانشأوا الأديرة . ووضعوا لها النظم الدقيقة المحكمة . وأخذ عنهم العالم المسيحى نظام الرهبنة ، وهو آخر تراث مصرى أخذه العالم من مصر فى عصرها المسيحى.

ونسمع عن القديس هيلاريون الفلسطينى الذى تتلمذ على القديس أنطونيوس ثم عاد إلى بلاده ومعه رهبان من الاقباط وأنشأوا الاديرة فى فلسطين . وذهب القديس أوجين مع عدد كبير من الرهبان القبط ونزلوا

بالقرب من نصيبين وبنوا الاديرة فى الموصل وطورعابدين وسنجار وغيرها .

وقد كان لحياة الرهبان المصريين وبعدهم كل البعد عن النزاعات الدينية الأثر الأكبر عند علماء الكنائس الشرقية ، فتركوا الكتابة فى الجدل الدينى واقتصروا على كتابة المقالات النسكية والميامر الروحية ، كما يبدو ذلك جليا عند القديس يوحنا سابا المعروف بالشيخ الروحانى . وكذلك كان الفضل للرهبان الاقباط فى نشر المسيحية بين أهل النوبة والحبشة والهند وجنوب الجزيرة العربية .

أما فى الغرب ، فقد سارع الغربيون بنقل قوانين باخوميوس إلى اليونانية واللاتينية ، فوضع القديس أوغسطينوس نظام الرهبنة الغربية مسترشداً بقوانين باخوميوس ، وسافر رهبان من الاقباط إلى روما فكانوا نواة الأديرة التى قامت فى ايطاليا على نظام الأديرة المصرية . وكذلك أنشأ الرهبان الاقباط عدة أديرة فى جزر البحر الابيض المتوسط ، ومنهم من وصل إلى جنوب فرنسا ، وأسسوا حوالى سنة ٤٠٠ م ديراً فى لوران على نظام باخوميوس ، وفى هذا الدير تتلمذ القديس باتريك حامى إيرلندا ومؤسس كنيستها ، ثم استعان برهبان من الاقباط فى انشاء الأديرة فى ايرلندا . كما استعان بالطقوس القبطية وأخذ فى بناء الكنائس على النمط القبطى هناك ، كما صنعوا أوانى الكنيسة على هذا النمط أيضاً وبالرغم من عدم وجود صحارى فى ايرلندا سميت الأديرة هناك بالصحارى (دسرت) اشتهر منها دسرت مارتن ، ودسرت أوليد ، حيث دفن سبعة من الرهبان الاقباط

وانى أفسح مكاناً هنا للدكتور منير شكرى ليحدثكم عن المسيحية وما تدين به للقبط .

وفى الحبشة رسم البطريرك القبطى اثناسيوس «القديس فرومنتيوس» أول أسقف على الحبشة ، ثم أرسلت مصر بعد ذلك رهباناً فى أواخر القرن الخامس لنشر المسيحية ، عرف منهم تسعة اشتهروا بالقديسين التسعة .

وقد حافظت الكنيسة الاتيوبية على تعاليم وطقوس الكنيسة القبطية ونظمها

على مر السنين محافظة تقليدية دقيقة تدعو إلى الاعجاب

وفى النوبة استمرت كنيستها تابعة للكنيسة القبطية منذ نشأتها حتى قضى على المملكة النوبية أيام المماليك فى القرن الرابع عشر . وقد حافظ أساقفة هذه الكنيسة على الطقوس والتعاليم القبطية محافظة تامة وكانوا يكتبون إلى جانب اللغة القبطية لغتهم النوبية بحروف قبطية .

أما فى الهند فنقرأ فى سيرة القديس بنتانوس ، وهو الذى كان أول رئيس لمدرسة اللاهوت فى الاسكندرية ، كيف ذهب إلى الهند وبشر هناك .

وسمع عن عدد من الرهبان الاقباط ذهبوا إلى بلاد العرب للتبشير فيها . ونعرف ايضاً أن أوريجانوس ذهب إلى بلاد العرب ودافع عن سر الثالوث المقدس أمام أسقف أسمه هيرا كليدوس وأساقفة آخرين، وقد نشر هذا الدفاع سنة ١٩٤٩ ضمن منشورات جمعية فؤاد الأول للابحاث البردية .

كما أنشأ القديس كاسيان ديراً باسم القديس بطرس الشهيد فى مدينة مارسيليا بفرنسا ، وذلك بعد عودته من مصر ، على نظـــام الأديرة المصرية ، وقضى هناك العشرين سنة الأخيرة من حياته .

كما عرف فى منتصف القرن الرابع قديس اسمه أوسيبيوس دى فرسيل وكان أول اسقف لكرسى فرسيل بإيطاليا ، ودافع عن ألوهية المسيح أيام ظهور بدعة أريوس. وقد نفى إلى فلسطين ثم إلى قبادوقيا واستقر فى اسوان حيث قضى بضع سنين فى منطقة المحاجر هناك . وهو الذى احتج على الحكم الذى صدر على الانبا اثناسيوس من المجمع بميلانو سنة ٣٥٥ م. ولما درس نظام الرهبنة فى مصر عاد إلى بلاده بعد النفى وأنشأ الأديرة على نظامها وتوفى سنة ٣٧١ م .

وكذلك نعرف عن لوسيفير دى كاليارى ، وهو من جزيرة سردينية ، انه كان شديد المقاومة لبدعة اريوس، وكان معاصراً لأوسيبيوس هذا ، ونفى أيضاً إلى فلسطين والشام ثم إلى صعيد مصر ثم عاد إلى وطنه وأدخل النظم التى رآها فى مصر.

ونعرف من سيرة الانبا ديمتريوس بطريرك الاسكندرية أنه وضع حساب الابقطى، وحدد موعد الصوم الكبير وعيد الفصح والقيامة، وقد أعلن بطاركة الاسكندرية فى رسائل، أرسلت إلى جميع الكنائس شرقا وغربا، بدء موسم الصوم الكبير وعيد الفصح، وذلك فى القرنين الرابع والخامس الميلاديين. كما نعرف مدى تأثير سيرة القديس أنطونيوس فى الغرب، وهى السيرة التى وضعها القديس أثناسيوس.

الادب

أخذ العالم عنا نواحى مختلفة من الأدب أهمها أقوال الآباء، ثم خطب القديسين فى الكفاح ضد الوثنية لتثبيت المسيحية، ثم السحر، ثم الأدب الدنيوى.

فأما أقوال الآباء، فهى الأقوال النسكية التى دعمت الرهبنة وبينت ناحيتيها النفسية والعملية. وقد وفد على مصر رجال من الشرق والغرب دونوا هذه الأقوال وأثبتوها بلغاتهم من يونانية ولاتينية وسريانية، وفتحت لهم هذه التعاليم القبطية المحضة الطريق إلى الرهبنة فساروا على هديها أو نسجوا على منوالها.

ولم يحفظ لنا الأقباط باللغة القبطية إلا القليل منها، فالرهبان القبط فى عصورهم الأولى عرفوا بالتقوى والتواضع، فكانوا يعملون ويعلمون وقلما يدونون، فجاءتنا أقوالهم بلغات مختلفة فى « بستان الرهبان » و « الآباء الحاذقون فى العبادة »، وكذلك فى سيرهم.

وظهر فى مصر من القديسين الأقباط من لم يعرف العالم أقوى منهم شكيمة فى تثبيت المسيحية والكفاح ضد الوثنية، وكانت أقوالهم مثالا احتذاه المسيحيون فى العالم عند كفاحهم ضد الوثنية. وإنى أذكركم بواحد من هؤلاء القديسين وهو الانبا شنوده.

تولى شنوده رياسة الدير الأبيض سنة ٣٨٣ م خلفا لخاله الانبا بجول الذى أنشأ الدير، ودامت رياسة شنوده ٦٦عاما ومات سنة٤٥١م. ويعد شنوده أعجب شخصية أنجبها القبط، فهو فى الواقع المؤسس الحقيقى للكنيسة القبطية. عاش فى أحرج الاوقات وأعنفها، ويعرف فى تاريخ الادب القبطى بأنه أعظم كتابه. ولم يكن شنوده ذا ثقافة واسعة ولكنه كان رجل عمل ونشاط، كان محبا لشعبه يفهمه ويقاسمه أحزانه كفلاحين مواطنين يرزحون تحت نير مضطهديهم من الرومان الظالمين. وكان لا يستسيغ العلوم المسيحية التى تقوم على الفلسفة، وكان كأسلافه المصريين يؤكد الدينونة والعقاب على الخطيئة مهما كانت ضئيلة دون أن يهتم بموضوع التكفير والفداء. وكان كل مجهوده ونشاطه الإدارى منصبا على محاربة الوثنية واقتلاع جذور خرافاتها من الكنيسة، مثل السحر والتعاويذ والدجل الطبى والبدع الاجتماعية المختلفة فى الاعياد الدينية، إذ أن الفلاحين فى مصر العليا لم يكونوا قد غيروا من طبيعتهم الوثنية التى تعزى إلى طبيعة أرضهم. وكانت كتابات شنوده كتابات عملية صالحة لاستخدامها مباشرة كالرسائل والمواعظ، ولم يكن أسلوبه مصقولا ولكنه كان يصوغه فى قالب خطابى بليغ، وهو بالرغم من معرفته باليونانية لم يأخذ عنها البيان أو البديع ولكنه كان مالكا لناصية اللغة القبطية يكيفها كيف شاء.

كان من فضل شنودة على المسيحية منع إنشاء الهياكل على جثث القديسين. وقد رأيت عند زيارة دير سمعان فى أسوان، وهو من أقدمها، أن سمعان قد دفن خارج الكنيسة. يقول شنوده: «زعموا أن بعض الشهداء ظهروا لبعض الناس وكشفوا لهم عن الاماكن التى دفنت بها عظامهم وعند البحث وجدوا انها بقايا كلاب. وزعموا أيضاً ان بعض المبانى والتوابيت التى كان يكشف عنها خلال أعمال البناء أو الهدم كان بها ما يدل على أنها تضم أجساد الشهداء. انما هى الشياطين التى كانت تظهر لهؤلاء الناس فى أحلامهم فى ثياب الشهداء. وبذلك كانت تبنى لهم هياكل فى الكنائس، وليس لمثل هذه الهياكل من أثر الا أنها تفقد الهياكل

الحقيقية قيمتها ، وإنها لمجازفة عظيمة أن تبنى الهياكل على عظام لا يعرف كنهها أو مصدرها . وعلى كل حال ليس هناك فى الأناجيل أية اشارة تدعونا إلى بناء الهياكل حتى فوق الرفات الحقيقية للشهداء أو الرسل » . ثم قال : « إن آباءنا الذين رقدوا فى أيامنا ، كما أعلم وأشهد ، يوصوننا بألا ندع انساناً يبحث عن أجسادهم ، ويجب أن يصبح المرء قطعة من الطين ممزوجة بالتبن تدوسها الأرجل » .

واليكم ترجمة نبذة من عظة للأنبا شنوده عن موالد الشهداء يقول : « جميل جداً أن يذهب الانسان إلى مقر الشهيد ليصلى ويقرأ وينشد المزامير ويطهر نفسه ويتناول من الاسرار المقدسة فى مخافة المسيح ، أما من يذهب ليتكلم ويأكل ويشرب ويلهو ، أو بالحرى يزنى ويرتكب الجرائم نتيجة للافراط فى الشراب والبغى و الفساد والاثم ، فهذا هو الكافر بعينه . وبينما البعض فى الداخل يرتلون المزامير ويقرأون ويتناولون الاسرار المقدسة إذ بآخرين فى الخارج يملأون المكان بآلات الطبل والزمر . بيتى بيت صلاة يدعى وأنتم جعلتموه مغارة لصوص . لقد جعلتموه سوقا لبيع العسل والحلى وما أشبه . لقد جعلتم الموالد فرصة لتدريب بهائمكم ولسباق حميركم وخيلكم . جعلتموها أماكن لسرقة ما يعرض فيها للبيع . فبائع العسل بالكاد يحصل على قليل من الزبائن المتشاحنين ، أو يستخلص لنفسه شيئاً من الفائدة نظير أتعابه . حتى الاشياء التى لا يمكن أن تحدث للباعة فى الاسواق العامة تحدث لهم فى موالد الشهداء . يااللغباء ! أو كنتم تذهبون لمواطن الشهداء لتأكلوا وتشربوا وتبيعوا وتشتروا وتفعلوا كل ما يروق لكم . فأية فائدة لبيوتكم التى فى مدنكم أو قراكم ؟ يالعقولكم المغلقة ! وإذا كانت بناتكم وأمهاتكم يعطرن رؤوسهن ويكحلن عيونهم ويتجملن لخداع الناس الذين ينظرون اليهن، وإذا كان أبناؤكم وإخوتكم وأصدقاؤكم وجيرانكم يفعلون هكذا عند ذهابهم إلى مواطن الشهداء .

فلماذا جعلتم لكم بيوتاً ؟ هناك كثيرون يذهبون إلى الموالد لإفساد هيكل الرب وليجعلوا من أعضاء المسيح أعضاء للإثم والفجور بدلا من أن تحفظوا لها قداستها وطهارتها من كل رجس سواء كانوا رجالا أم نساء . دعونى أقل لكم بصراحة تامة إن كثيرين منكم يلتمسون لأنفسهم عذراً قائلين : ليست لنا زوجة أو ليس لنا زوج ، فلا تجعلوا زيارتكم لموالد الشهداء فرصة لتدمير أجسادكم فى المقابر التى حولها أو المبانى القريبة منها أو فى أركانها » .

فهذا مثل من أمثلة كثيرة أعطاها أقباط مصر لرجال المسيحية فى العالم لتدعيم أسسها .

وإلى جانب هذا الأدب الدينى ، أعطى الاقباط للعالم علوم السحر .

السحر

برع المصريون قديماً فى السحر والتعاويذ السحرية ، وحمل الاقباط عنهم هذا التراث ، ثم عملت حياة القبط التى صادفها الاضطهاد إلى الاستعانة بهذا النوع من العلوم ، التى من شأنها ان تعطى للإنسان الذى يعرف ضعفه شعوراً يريد به أن يثب إلى أبعد من الحواجز التى تحصر معرفته ، ويتطلع إلى استخدام القوى العليا التى يؤمن بها والتى يرجو فيها أن تساعده على الاطمئنان نفسيا إلى حياة هادئة . والدنيا مليئة بالاحزان والامراض والاخطار التى يعتقد الانسان انها من فعل الارواح الشريرة . إما مباشرة إذا انتصر عليهما بالسحر وإما بواسطةالارواح الطيبة. ودراسة السحر لها أهميتها من ناحية تفهم نفسية الشعب والتطور الانسانى ، ثم المقارنة بين التصورات الدينية بين الشعوب المختلفة. والسحر القبطى فيه طابع القومية وطابع التجربة الطويلة.وقد امتد السحر القبطى إلى الامم الشرقية والغربية وأخذت الامم الكثير من صيغ التعويذات القبطية. وأنى أذكركم بصيغ التعاويذ فى اليونانية والفكرة السحرية فى الرواية *Novel* اليونانية التى انتشر منها إلى العالم الغربى ، وأذكركم بالصيغ

السريانية والصيغ العربية والعبرية .

وهذا مثـل مترجم لتعويذة نشرها Crum بالقبطيـة فى مجلة Journal of Egyptian Archeology XX.

« كوك . تباركوك ، يا من رأسه فى الهاوية وقدماه فى الجحيم . أتينا اليك اليوم ووضعنا ثقتنا فيك لفلانة ، حتى تعطيها الطعام فاصير انا عسلا فى بطنهـا ومنا على لسانها، وتملؤنى كأنها الشمس، وتغمرنى كأنها القمر وتعلق بى كقطرة ماء متعلقة فى قادوس، وتكون مثل نحلة تطلب الشهد ومثل كلبة تهيم على وجهها ومثل قطة تنتقل من بيت إلى بيت ومثل فرس تشتاق إلى الخيل ، الآن الآن الآن بسرعة ، بحق كل قوات جهنم .

كوك . كنشاروتوش . بارسوبل انائيل . انا طلبت منه فارسل لى شيطانا اسمه تاومانا رأسه فى الهاوية وقدماه فى الجحيم وهى جهنم النار. خذ سيخاً ملتهبا واضرب به رأس فلانة حتى تأتى الى فى كل مكان أريده وتعمل ما أريد وتناديني قائلة بحق ادائل تعالى الى الآن الآن بسرعة بسرعة » .

هكذا نرى أن العقائد السحرية انتشرت من القبطية إلى العـالم أجمع وقد نشر الاستاذ Flinders Petrie فى كتابه عن (Ammulets 1914) أثبت فيه أن المصريين عرفوا ٢٧٠ صيغة للتعـاويذ وقال : « ان السحر المصرى أساس كل أنواع السحر فى العالم » .

ليس الادب القبطى أدب دينى فحسب بل إن الآثار الأدبية الدنيوية فى الأدب القبطى لا تقل روعة عن الآثار الدينية .

وقد وصلتنا بعض آداب دنيوية بالرغم من انصراف القـبط فى العصور الأولى عن تدوينهـا ، لغلاء ورق البردى أو الرق وقصر هم التدوين على أدب الدين تقريباً .

فقد عثرنا على الـكثير من الرسائل والوثائق بالقبطية استقينا منهـا أكثر

معلوماتنا عن الحياة فى الاديرة ومدى نشاطها .

وازدهر الأدب القبطى فى القرنين الرابع والخامس ، ثم كبا به أثر الاضطهادات. وكان فتح العرب لمصر صدمة عنيفة للأدب القبطى، إلا انه صحا صحوة كتلك التى تعقب تجرع السم ، فنى النصف الأخير من القرن السابع وفى القرن الثامن قامت بين القبط نهضة أدبية ثانية كان لها طابع الشعبية والدنيوية أكثر من النهضة الأولى ، وربما يرجع ذلك إلى ان نظام الاديرة وقتئذ كان أقل صرامة بحيث أتيح للرهبان الاشتغال بشتى الحرف ، وإذا كانوا قد اصبحوا يقرأون الكتب الدنيوية فى الأديرة فما الذى يمنعهم من كتابتها ، وبخاصة ان الورق قد حل محل البردى وأصبح فى متناول الجميع . وقد كتب ذلك الادب الجديد باللهجة الصعيدية وكانت به أشعار وروايات . وبالرغم من ذلك فقد وصلنا منه النذر اليسير ، ونشير هنا إلى بعض هذا الادب الدنيوى .

فقصة تيودوسيوس وديونسيوس ، التى ترجع إلى أوائل القرن الثامن ، بطلها صانع مصرى وفق إلى بلوغ منصب امبراطور اليونان ، وقد نسى زميلا له كان صانعاً مصرياً ، ثم يلقاه ثانية ويعينه رئيساً لاساقفة العاصمة اليونانية .

وكذلك وجدنا بعض أجزاء لقصة الاسكندر مترجمة إلى الصعيدية ، وربما أوحت هذه القصة إلى كاتب قبطى بكتابة رواية قمبيز. ورواية قمبيز قصة أصيلة بالقبطية تتضمن تاريخاً خياليا بحتاً عن غزو مصر على يد قمبيز الذى كان ملكا على الفرس .

وتبدأ القصة برسالة يكتبها قمبيز إلى الشعب الذى يسكن مصر طالباً اليهم الطاعة فيقول « أنا قمبيز لم اكتب اليكم لارغامكم ولكنى أود زيارتكم . لا حرج عليكم إذا أردتم الحضور ، بل تعالوا إلى انا الذى سيمنحكم أمجاداً اكثر مما تتمتعون به الآن ، وربما حدثتكم أنفسكم بعدم الخضوع لى ، فحينئذ تكونون قد وضعتم ثقتكم فى هؤلاء الناس السائرين إلى الدمار ، وهم ملوك مصر وعشائرهم المتنقلة ، انهم سوف لا يقدرون على تخليصكم من قوانى وآلاتى الحربية ، وطالما

كانت لى القوة فلن يستطيع أحد أن ينقذكم من غضبى ».

ثم يستطرد على اعتبار انهم سيرفضون الخضوع ويردف : « انظروا أنا قمبيز اكتب اليكم هكذا الآن . كونوا مستعدين لملاقاة جام الغضب الذى سينصب على رؤوسكم جزاء عصيانكم لى . انى سيد الارض كلها وما اكتبه سيعود عليكم بالويلات حين أقتص من مصر » فلما سمعوا ذلك وعلموا أن قمبيز قادم اليهم اشتد حنقهم وثبتت عزيمتهم وتشاوروا فيما يفعلون ، ثم استقر رأيهم على رفض طلب قمبيز بالخضوع للفرس .

ولما سمع الجند بهذا الحديث أرادوا أن يذبحوا الرسل ، وكان بينهم شخص يدعى يوشهور ، وكان رجلا ذكيا فى نصحه حكيما فى حديثه ، كما كان قوى الشكيمة مغواراً فى الطعن والنزال ، مما أهله لاسداء النصح اليهم بان يصرفوا الرسل ويبعثوا برسالة تهديد إلى قمبيز هذا نصها : « يكتب هذا جميع المصريين إلى أولئك الذين يقطنون اقاليم الغرب والذين يعيشون فى الهند ،نكتب اليك أيها الجبان الرعديد قمبيز الذى اسمه فى لغتنا « سانوت » وتفسيره الجبان . ألا فانظر ، لقد تركنا رسلك تذهب بسلام لاخوفا منك بل افتخارا وتعظيما لسيدنا فرعون الذى يحكمنا بمجد عظيم . لقد تركناهم وشأنهم ولم نذبحهم . ولكن إذا أثرتم سخطنا فسوف تعلمون ما نحن فاعلون . فبحق قوة فرعون ومجد مصر والإله هابى وشرف التاج وبطش صناديدنا واحتشاد جيشنا فى القتال ، فما دام الإله هابى فى منف وآمون فى نفتاس ، وما دام ملوكنا يعيشون كل فى مملكته ، وما دامت الانهار تفيض بمياهها ، وما دامت مدننا موطدة الدعائم ، وما دام كل ذلك قائما ، فسوف تعلم أيها العبد ماسيحل بك . ماذا انت فاعل حيال ذلك . سنوردك موارد التهلكة ، وسنلقى باتباعك الظالمين خارجا ، وسنحرق آلهتك المرافقين لك . وأما أنت فلن نضيع الوقت فى طهى قطع من لحمك بل سنمزقه بأسناننا كما تفعل الدببة والسباع الضارية . والآن أيها التعس ،تدبر أمرك وارعو ، وفكر مليا فيما أنت مقدم عليه قبل أن ينصب عليك غضب مصر ، فمن من

الملوك ـ ليس بين الاشوريين فقط بل بين ملوك العالم أجمع ـ استكبر على مصر بعد التغلب عليها ؟ فهل تطمع أنت فى التغلب عليها أيها المخلوق الدنس ؟ الا امتثلت بالملوك الجاليين والحيثيين، أولئك الذين يقطنون الاقاليم الغربية والاقاليم الباردة ؟ أليسوا جميعا على جانب عظيم من القوة والجاه ؟ فلماذا لم ينجوا بيلادهم من قبضة مصر عندما تعاظموا لكى لا يصيروا عبيداً لنا ؟ يا لسخرية القدر أن تهاجم أنت مصر ! فسيلحق بك العار على أيدى جحافل مصر. من هو إلهك الذى يرافقك والذى سينجيك بقوته وعليه تعتمد ليحرسك حتى تجترىء على الحضور هنا ؟ أو لعلك تعتمد على الامونيين والمؤابيين والادوميين أولئك الذين ترتعد فرائصهم قبل ان يروا حربا ؟ أولئك الذين لم ينعموا بالسعادة قط بل كتب عليهم ان يظلوا دائما أرقاء .

ولما عاد الرسل وسلموا رسالة المصريين ، طلب قمبيز مشيريه. فأشار عليه أحدهم : « أيها الملك ، فلتعش إلى الأبد. استمع إلى نصيحة عبدك . لاتهاجمهم ولا تلتق بهم وجهاً لوجه ، انما يجدر بك أن ترسل رسلا إلى جميع أنحاء مصر باسم فرعون وهابى إلههم بكلمات معسولة يناشدون بها الشعب ان يجتمعوا فى عيد ووليمة ملكية دون سلاح حتى تلتقى من نفوسهم فكرة الحرب ، فإذا ما اجتمع شملهم فسيرى سيدهم ان سيدا آخر قد صار بيده الأمر فيستولى عليه الجزع وتخضع لك البلاد » ثم يتابع نصائحه مبينا صفات المصريين الحربية وكيف أن نساءهم ماهرات فى الرماية وأطفالهم يشبون من الصغر على تعلم فنون الحرب وإذا ما وجد هذا الكلام قبولا لدى قمبيز فانه يوفد رسلا إلى جميع أنحاء مصر ينادون باسم فرعون مصر :

« سلام كثير لكم ، ولتكونوا فى راحة وطمأنينة . انى اكتب اليكم لا عن الضرائب التى أنتم مدينون بها ، ولا عن أى شىء آخر من هذا القبيل . أيها المصريون الأحباء الأشداء فى قوتكم والحكماء فى كلامكم . لتتجمعوا فى كل مدينة ولتأتوا الى بدون سيوف أو حراب فأنتم مدعوون الى وليمة حيث

السرور والابتهـــاج ، لأن الإله هابى هو الذى يطلب تجمعكم حتى تطيب نفوسكم بهذا الاحتفال ، فقد أفضى الينا بأمور خاصة ستحدث هذا العام . ولم أشأ أن أكتب اليكم بشأنها هى حتى لا تقللوا من أهميتها ، بل فضلت ان تحضروا بأنفسكم إلى هابى كيما يظهر لكم هذه الأمور عيانا . فلن يتيسر لكم معرفتها إلا إذا ساهمتم فى هذا العيد ، ومن امتنع عن الحضور ستصيبه اللعنة والغضب من هابى ، وأما من يلبى ويحضر فستحل نعم الإله عليه وعلى أهل بيته ، وتمضى القصة فتظهر كيف أن المصريين لم ينخدعوا بتلك الحيـلة وعرفوا انها من أعدائهم ، فيحشدون الجيوش وتأتى الاخبـار أن قمبيز بدأ هجومه على مصر . ويبدو أن المصريين كانت تـكتنفهم صعاب فى ذلك الوقت .

وهنا ينقطع سياق القصة التى وصلتنا منها نسخة واحدة ناقصة وبها عيوب كثيرة .

ومهما يكن من شىء فالقصة تدل على وطنية رائعة ، وكبت من الحكام الرومان أو العرب ، يتنفس منه الكاتب فى أسلوب روائى أدبى مستور .

وهناك آثار أدبية كثيرة ، منها مثلا القصيدة التى كتبت عن أرخليدس وأمه سنكليتكس . ويدل كل هذا على ما للقبط من أثر عميق فى الأدب فى العالم كانت صفحاته مطوية ، وكلما أظهرت لنا الكشوف الحديثة من نصوص تكشف لنا هذا الأثر وعرفنا مقدار تغلغله فى الآداب العالمية .

العلوم

ورث الشعب القبطى عن أجداده الفراعنة حضارة كما ورث عنهم المنهج العلمى والمثـابرة على الدرس والتعمق فى البحث ، فقد تركزت دراسة العلوم فى جامعة الاسكندرية وظهر فيها أساتذة من المصريين تخرج على أيديهم كثير من العلماء الذين عرفهم العـالم القديم ، ووضع القبط فى الاسكندرية أكثر المصطلحات العلمية التى كانت معروفة فى ذلك الوقت وعنهم أخذها العالم ، وظهر

فيها هيروفيلاس مؤسس علم التشريح وايريستستراتوس مؤسس علم وظائف الأعضاء، وديموكريتوس صاحب نظرية الذرة، وكلسوس الذى وضع تذكرته المشهورة لمنع تلف الاسنان، وسيرابيون السكندرى الذى اتجه إلى دراسة العقاقير المصرية القديمة. وممن تتلمذ فى الاسكندرية جالينوس الذى ذاع صيته فى العالم.

ومنذ القرن الخامس حمل الرهبان الأقباط لواء العلوم فى أديرتهم، وظلت هناك إلى ما بعد دخول العرب مصر بقرنين، وظهر فيهم كيرلس وكولوتوس ويؤانس، وعرف منهم فى القرن السادس يوحنا فيليبونوس النحوى الذى ألف فى الأدب والطب والرياضة، ونعرف أنه منذ القرن السادس كان يتولى رجال الدين من الأقباط تدريس العلوم فى جامعة الاسكندرية، نذكر منهم سرجيوس وهارون القس.

وكان ظهور النساطره وازدهار مذهبهم فى الشرق باعثا على إحياء العلوم فى أديرة العراق، وساعد وجود مركز الخلافة فى بغداد على انتقال مركز العلوم إلى هناك، ويقول المسعودى فى «مروج الذهب»: «ان مجلس التعليم «الجامعة» نقل من الاسكندرية فى أيام عمر بن عبد العزيز إلى انطاكية ثم نقله المتوكل إلى حران».

ومن أهم ما وصلنا عن العلوم القبطية بردية نشرها شاسيناه، تميزت هذه البردية الطبية بعلاج أمراض العيون ومنع النزيف ومداواة الخراجات. وعلى العموم فقد ظل أثر الكثير من العلوم المصرية فى أوروبا فى العصر الوسيط وكان أساساً لدراسة العلوم فى عصر النهضة. وقد ظهر أخيراً بحث للأستاذ «تل» (TILL) فى العقاقير القبطية يتبين منه مدى تقدم هذا العلم عندهم وأثره فى العالم.

وهنا أترك الدكتور صابر جبره يحدثكم فى مقاله عن نصيب القبط فى تقدم العلوم.

وكان للقبط أثر واضح فى بعض العلوم الأخرى، ففى التاريخ الكنسى

كان لهم طابع خاص لم يكتبوه تاريخاً جافاً ، بل أضفوا عليه مسحة أدبية . ولعل أحسن مثل لذلك مانشره (Von Lemm) من بعض مقطوعات قبطية فى تاريخ بطاركة الأسكندرية ، وكان للسنكسار القبطى الذى لم يصلنا مع الأسف كاملا باللغة القبطية أثر كبير نسجت جميع الكنائس الأخرى على منواله .

وكذلك كتب الأقباط بطريقتهم الخاصة تواريخ الجامع مثل : مجمع الاسكندرية (٣٦٢) ، ومجمع أفسس (٤٣١) .

قوانين الكنيسة

وقد برع القبط فى وضع قوانين الكنيسة ، ولعل أشهرها وأعمقها أثرا المجموعة المعروفة بالقوانين الكنسية ، أو قوانين الرسل ، وقد نشرها Horner

الأدب الكنسى

وكذلك يعزى إلى القبط كتابه الأدب المعروف بالمريمى ، وهو الأدب الذى اختصت به العذراء ، فى أسلوب فريد يظهر فيه تأثير الأدب المصرى القديم فكتبوا فيها المدائح وغيرها .

التاريخ العام

وكان للقبط شخصية ملحوظة فيما كتبوه من تاريخ ، فهذا كتاب يوحنا النقيوسى ، الذى شهد فتح العرب لمصر ، وكتب تاريخا عاما باللغة القبطية ، ولكنه ضاع ولم يصلنا إلا فى ترجمة كاملة باللغة الحبشية نشرها Zotenberg

العلوم اللاهوتية

أجمع مؤرخو الكنيسة الذين أدركوا العصور الرسولية ، كاوسابيوس وسقراط وسوزومين ، على أن الفضل فى انتشار المسيحية ، إنما يرجع إلى

مدرسة الاسكندرية اللاهوتية ، والتى اسندت إدارتها إلى علماء من الأقباط ، مثل بانتينوس واكليمنضوس الاسكندرى ، واريجانوس ، وديديموس الضرير.

وقد نصت تواريخ الكنيسة ، على أن كبار آباء الكنيسة المسيحية فى الشرق والغرب كباسيليوس الكبير ، وغريغوريوس أخيه ، وغريغوريوس الناطق باللاهوتيات ، مدينون لمدرسه الاسكندرية اللاهوتية . وقال المستر تتام فى مؤلفه المسمى (مصر) بأن دستور مدرسة الاسكندرية اللاهوتية وضع باللغة القبطيـة . وقال القديس أوريليموس فى مقدمة ترجمته اللاتينية لكتاب ديديموس الضرير عن (انبثاق الروح القدس) « ان ما جاء فى مؤلفـــات أوغسطينوس وأمبروسيوس وغيرهما من الموضوعات الفلسفية ، منقول عن الفلسفة المسيحية المصرية » .

وبالجملة فقد كان للأقباط اليد الطولى فى وضع أسس علم اللاهوت .

فهذا بانتينوس أول من أسندت اليه إدارة هذه المدرسة استهل حياته العلمية بنقل الكتاب المقدس من اليونانية إلى القبطية

وهذا اوريجانوس (١٨٥ - ٢٥٤) أول من أقام علم اللاهوت على أسس منظمة ، واليه يرجع الفضل فى تبويب عقائد الكنيسة . وكانت دراسة اللاهوت قبله لا تعتمد على العلوم . فقال اوريجانوس : « يجب ان نستخدم العلوم حتى نتمكن من فهم الكتاب المقدس لأنه ما دام الفلاسفة قد درجوا على القول بأن الهندسة والموسيقى والشعر والخطابة والفلك علوم تؤدى بنا إلى دراسة الفلسفة ، فيجب أن نقول بأن الفلسفة إذا درست دراسة حقيقية تؤدى بنـا إلى دراسة المسيحية » . وقد أدخل فى برنامج الدراسة اللاهوتية : الرياضـــة والطبيعة والفلك والموسيقى .

وهذا اثناسيوس (٣٢٦ - ٣٧٣) مصرى صميم تثقف بثقـافة اليونان ، وأحب البشرية ، وكافح من أجل إسعـادها ، ووقف من أجل ذلك فى وجـه الأباطرة والهراطقـــة ، وصار لا يفكر ولا يكتب ولا يعمـل ولا يتألم

ولا يناضل إلا لأجل خلاص البشر من مخالب البدع وفتح باب الإيمان المسيحى القويم لهم .

وكان لما كتبه اثناسيوس فى الجدل لمحاربة الأريوسية وغيرها من البدع ، وما كتبه فى العقيدة عن تجسد الكلمة أكبر الأثر فى المحافظة على كيان المسيحية فى العالم .

وهذا كيرلس الكبير (٤١٢ - ٤٣٥) الذى كان بطريركا للكرسى السكندرى واكتسب لمصر شبه استقلال . وكانت تخضع له مائة اسقفية حتى أطلق عليه لقب « فرعون مصر » . كان جهاده الموفق ضد النسطورية ، وتعاليمه اللاهوتية فى سر الثالوث وسر التجسد وطبيعة المسيح ، عاملا فى ارساء الكنيسة على قواعد ثابتة .

وهذا ديديموس الضرير الذى عين مديراً لمدرسة الاسكندرية اللاهوتيه فى القرن الرابع ، وكان من أثر مؤلفاته اللاهوتيه ان وفد عليه من الغرب ايرونيموس وروفينوس وبلاديوس لتلقى العلم عليه . ومما يذكر انه ابتكر لتعليم القراءة للعميان طريقة الحروف المحفورة على ألواح خشبية قبل أن يبتكر برايل طريقة الكتابة بالحروف البارزة بخمسة عشر قرنا .

لم أقصد بهذا حصر العلماء من المصريين الخلص الذين كان لهم كبير الأثر فى دراسة اللاهوت المسيحى وتدعيم المسيحية ، وانما قصدت أن أدلل بذكر بعض منهم فقط .

الفن القبطى

هناك من يعتقد أن الفن القبطى فن دينى فحسب ، والواقع أن الفن القبطى هو فن مصرى تناول جميع مرافق الأقباط ونواحى حياتهم فهو فن دنيوى وفن دينى ، نشأ ، أو بتعبير أصح ، تطور من الفن المصرى وتأثر بمؤثرات خارجية . وهو بذلك تعبير فى صادق عن البيئة المصرية ، مع الاحتفاظ

بشخصية فنية قوية ، وطـابع خاص واضح . ولا أدل على مرونة هـذا الفن من تأثره بالحضارات المختلفـة واستيعابها دون أن يفقد شخصيتـه ، وقد كانت فترة تمصير الـكنيسة المصرية القديمة ، وظهور الوعى القومى داعياً إلى التخلص من المؤثرات الأجنبية على الفن ، ولـكنها لم تـكف للتحرر منها كلية لقصرها . وكانت فرصة الفتح العربى للبلاد ملائمة لذلك ، ولـكن سرعان ما أثر الفن القبطى على الفن الإسلامى ، واتجه الصناع الأقباط إلى تطعيم الفن الإسلامى بالفن القبطى ، إذ ان الذوق الإسلامى يستسيغ الرسوم الهندسية وفن التطعيم أكثر من صور الانسـان والحيوان . وبذلك تطور الفن القبطى القـديم أو بتعبـير أصح أصبح هذا الفن فى العصر الإسـلامى فى مصر يعرف بالفن الإسلامى .

ويتضمن الفن القبطى التصوير الذى ظهر فى الأيقونات ، وصور رؤساء الملائـكة والرسـل والقديسين ، واستعملت صور الوجوه الآدميـة ، وصور الحيوان لتزيين الأكفان ، ونسجت على الـكتـان والصوف بألوان ثابتة متنوعة .

وقد اشتهرت مصر بفن النسيج منذ القدم . وفى هذا مقال للدكتور محمـد عبد العزيز مرزوق فى مجلة جمعية الآثار القبطية سنة ١٩٥١ عن « الاسكندرية كمركز لصناعة النسيج من ٣٣١ ق. م إلى ١٥١٧ م » .

ولا نريد ان ندلل على ما بلغه هذا الفن من الرقى وتأثيره على فن النسيج فى العالم الإسلامى . فقد كتب الأستاذ كونل فى مجلة جمعية الآثار القبطيـة سنة ١٩٣٨ مقـالا بعنوان (التقاليد القبطية فى فن النسيج الاسلامى) وفيـه كل الـكفاية .

وفى فن الزخرفة المعمارية برع الصناع القبط فى إظهار مواهبهم على الحجر الجيرى والخشب ، وكان تصميم رسومهم على الحجر جميلا ، وصناعتهم متقنة ، ويدلنا عمق الحفر على انهم لم يدخروا جهدا فى ذلك . وكانت تيجان الأعمدة

الحجرية تزين بزخرفة على نسق شغل السلال والكروم وأوراقها ، وسعف النخيل وأوراق الغار ، كما كانت الافاريز تزين برسوم تمثل الكروم أو مناظر الصيد أو قطعان الحيوان البرية تحوطهـــا النباتات . أما الأجزاء العلوية للطاقات فكانت تزخرف على هيئة الاصداف والدرافين أو الطيور والاسماك أو الكروم والعنب . وكذلك حفرت ألواح الأبواب الخشبية والأفاريز بزخارف ورسوم هندسية .

كما ظهرت براعتهـــم فى فن تطعيم الخشب بالعـــاج فى أحجبة الهيا كل وما أشبههـا .

وبرعوا كذلك فى صناعة أدوات الزينة والحلى من مواد مختلفة ولأغراض مختلفة . فصنعوا المكاحل والأمشاط والخلاخيل والأساور والحلقان وغيرها .

وكان للفن القبطى بأنواعه تأثير فى العالم الخارجى . وإليك بعض ما جاء فى الكتب دليلا على ذلك :

ذكر الازرقى فى كتاب أخبار مكة أن الكعبة طغى عليهـــا قبيل ظهور الإسلام سيل عظيم صدع جدرانها ، فأعادت قريش بناءهـا مستعينة فى ذلك بنجار قبطى كان يسكن مكة .

وقد أثبتت الأوراق البردية التى عثر عليها فى مصر ان الوليد استعان بالقبط فى بناء مسجد دمشق والمسجد الاقصى فى بيت المقدس وقصر أمير المؤمنين هناك .

ويذكر البلاذرى فى فتوح البلدان ان الوليد استعان بالقبط فى إعادة بناء مسجد المدينة .

وقد أثبت العلماء ان قصر المشتى فى شرق الاردن الذى يرجع إلى منتصف القرن الثامن الميلادى قد تأثر فى زخارفه بالزخارف القبطية وفى تخطيطه بتخطيط الديرين : الابيض والاحمر بسوهاج .

وذكر المؤرخون ان عمر بن عبد العزيز لما أعاد بناء الجامع النبوى فى

المدينة عهد بذلك إلى معماريين من القبــــط بنوا فيـه أول محراب مجوف فى الاسلام ، وهذا مأخوذ من حنية الـكنيسة .

كما ذكر المقريزى كـيف أمـكن لقبطى أن يشيد جامع ابن طولون فى القاهرة بطريقة هندسية فريدة .

وقد بين الاستاذ كرزويل الاثر القبطى على فن العمارة الإسلامى المتقـدم فى مقال له نشره فى مجلة جمعية الآثار القبطية سنة ١٩٢٩ .

وفى رسالة الاستاذ وليم ورل عن القبسط المنشورة فى آخر هذا الـكتاب تقصير ظاهر عن الفن القبطى فهو يقول فى مقدمته : « ولم يـكن من العسير إطالة هذا الموجز بالتوسع فى موضوع المجادلات المتصلة بالعقائد المسيحية أو بزيادة النصوص المقتبسة من ادب والوثائق أو بنشر مآسى الاضطهادات المضنية الطويلة ، على أن هناك نقصا ملموسا حقا ، وهو موضوع الفن القبطى مع ما له من فائق الشهرة وكبير الاهمية . فقد اضطررت إلى ذلك لعدم اتقانى لهذه الناحية الخاصة . ولهذا أرجو معذرة القارىء » .

لذلك تـكفل الدكتور باهور لبيب مدير المتحف القبطى بسد هذا النقص فى مقاله (الآثار القبطية) .

دافع أقباط مصر عن حضارتهم وثقافتهم أمام التيارات الجارفة التى هددتها بالاكـتساح ، وأمام الحوادث الجسـام التى انتابتها ، وهزت أركانهـا وكانت تحدوهم فى ذلك روح وطنية خالصة . ولاغرو ان حضارتهم وثقافتهم مصرية صميمة ، نتجت عن بيئة مصرية خالصة ، وشعب مصرى خالص له كيانه الخاص وله شخصيته الخاصة التى أثرت فى حضارة العالم ،وشاركت فيها فى نواحى مختلفة.

وإلى هذه المشاركة نعزو ثباته ، ومن هذه المشاركة وضحت شخصيته ، وعلى هدى هذه المشاركة العالميـة يخطو إلى مشاركة اسمى منها . ولنا أن نذكر دائمـا ما أدته مصر للعالم فى هذه الفترة من تاريخها ، وما لا يزال العالم يرجوه منهـا كعضو عامل فيه ؟

مراد كامل

اللهجات القبطية
و
آثارها الأدبية

الأستاذ يسى عبد المسيح

أمين مكتبة المتحف القبطى

تمهيد

قدمنا لقراء رسالة مار مينا الثانية الصادرة فى سنة ١٩٤٧م أول سنة ١٦٦٤ قبطية، مقالا عن المقدمات والسلالم، واثبتنا أن نجاح انتشار العربية كان مطرداً حتى انه فى القرن الثالث عشر أخذ بعض علماء الأقباط يضعون مؤلفاتهم بالعربية، وخوفاً على اللغة القبطية من الاندثار عمد العلماء إلى وضع قواعد مختصرة للغة ثم إلى تدوين مفرداتها حفظاً لها من الضياع (١) .

ومع ان هذه القواعد (المقدمات) والمفردات (السلالم) مختصرة إلا انها مهدت السبيل لعلماء الأجانب إلى دراسة وتفهم معانى اللغة القبطية .

وقد بدأ هؤلاء الأجانب يتعلمونها منذ القرن السابع عشر، ودأبوا على تعلمها حتى ألفوا فيها الكتب . ووضعت لهذه اللغة ولهجاتها بفضل بحث وتنقيب واعتناء هؤلاء العلماء ودراستهم اجروميات مستوفاة ومعاجم وافية تماثل اجروميات ومعاجم اللغات الحية الآن .

وأول من عنى بدراسة القبطية وألف اجرومية قبطية فيها كما طبع السلم الكبير لابن كبر هو الاب اليسوعى اثناسيوس كيرشر (٢) .

ولا يفوتنا فى هذا المجال أن نذكر مع الاعجاب الشديد دكتور كرام الذى جمع كل الكلمات الواردة فى كل المخطوطات والكتب المطبوعة باللغة القبطية المعروفة حتى طبع قاموسه المعروف باسمه(٣) مبينا اللهجات المختلفة. وقدأصبح هذا الكتاب دائرة معارف للغة القبطية (٤) لم يهمل شاردة أو واردة إلا

---

(١) رسالة مار مينا [ص ٦٠]

(٢) [١٦٠٢ — ١٦٨٠ م]

(٣) *Crum , Coptic Dictionary , Oxford , 1929*

(٤) حدثنى المرحوم الدكتور ورل لما زار مصر سنة ١٩٣٦ انه إذا استمر اهتمام العالم المتمدين بدراسة اللغة القبطية بمثل اهتمامهم الآن فانه لا يمكن ان يضاف كلمة قبطية جديدة غير معروفة على قاموس كرام إلا بعد ٣٠٠ سنة على الاقل وذلك لاستيفاء القاموس .

واحصاها ، ولا يستغنى عنه كل عالم أو طالب فى بحثه فى اللغة القبطية (١)

وأول من اهتم بتعليم اللغة القبطية بالبلاد المصرية هو المتنيح المطوب الذكر الأنبا كيرلس الرابع البطريرك المائة والعاشر الملقب « بأبى الاصلاح » وتعلم اللغة القبطية عدد كبير من الطلاب فى مدرسة الاقباط الكبرى التى أنشأها ،كان آخرهم المرحوم اقلاديوس بك لبيب الذى ألف قاموساً فى اللغة القبطية لم يكمل بعد ، كما وضع أيضاً اجروميات وكتباً للترجمة فيها كانت من أوائل المحاولات الناجحة فى التأليف فى هذه اللغة .

وكنا نأمل أن يهتم أبناء الاقباط بتعلم القبطية أسوة بالاجانب ، إذ مما يثير العجب حقاً أن يكون المصريون الذين يدرسونها فى مجموعهم أقل من المستشرقين .

١ — اللغة القبطية

اللغة القبطية هى اللغة التى كان يتكلم بها العامة فى عهد الفراعنة فى وادى النيل منذ ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، وهى بمثابة اللغة الدارجة للغة المصرية القديمة المعروفة باسم القلم الهيروغليفى الذى استعمل فى النقش على المسلات والمعابد . وأصبحت فيما بعد هذه اللغة الدارجة اللغة السائدة فى البلاد شأنها فى ذلك شأن اللغات الاخرى فى سائر انحاء العالم ، ولنضرب مثلا ، كان اليونانيون يستعملون اللغة اليونانية الفصحى *The Classical Language* فى الكتابة والشعر وتدوين الحوادث التاريخية بينما كانت العامة تستعمل لغة دارجة كَ وْ ىْ نْ ى = *Common* والتى أصبحت من سنة ٣٠٠ ق. م إلى سنة ٥٠٠ ب. م هى اللغة الرسمية للأمبراطورية الرومانية ولغة الكتاب المقدس ولغة آباء الكنيسة فى القرون الاولى .

---

(١) يقع قاموس كرام فى ٩٥٣ صفحة وبآخره ثلاثة تذييلات الأول للكلمات الانجليزية والثانى للكلمات اليونانية والثالث للكلمات العربية وجميعها وردت فى المؤلف .

وبمرور الزمن وتغيير نظام الحكم مرة بعد مرة ، وبتوالى احتلال البلاد المصرية من عناصر أجنبية أدخل على اللغة القبطية تراكيب وكلمات وتعبيرات أغلبها يونانية مع اعلال وابدال كما هي العادة عند دخول عناصر غريبة فى أى لغة ، وكانت اللغة تزدهر وتنمو طوراً وتضعف تارة تبعاً لحالة الشعب سياسياً وأدبياً . إلى ان كانت القرون الثانى والثالث والرابع للميلاد شهدنا اللغة القبطية وقد أصبحت اللغة المتداولة فى الكتابة والكلام ووصلت إلى ذروة مجدها . وكتبت بحروف يونانية ، واطلق اسم لغة قبطية على اللغة المصرية القديمة المكتوبة بحروف يونانية .

وكانت الحروف اليونانية قد أدخلت على القبطية قبل الميلاد بدليل العثور على نصوص قبطية وثنية ، أى لغتها مصرية وحروفها يونانية وبها حروف ديموتيقية وهذه النصوص محفوظة فى كل من متحفى باريس ولندن (١)

كما انه استمر استعمال الكتابة الديموتيقية حتى القرن الرابع للميلاد خصوصاً فى أنس الوجود بأسوان حيث تأخرت عبادة الاوثان إلى ذلك العهد . أما أحدث كتابة هيروغليفية وجدت فى مصر فيرجع تاريخها إلى عهد الامبراطور داكيوس أى إلى منتصف القرن الثالث الميلادى (٢)

وقد حدد الدكتور ورل التاريخ والزمن الذى أبطل فيه استعمال المصرية والديموتيقية بقوله : « استمر استعمال النصوص الهيروغليفية الى سنة ٣٩٤م ، والنصوص الديموتيقية الى سنة ٤٥٢ م » (٣)

وتنحصر التغييرات والتطورات التى أدخلت على اللغة القبطية فيما يلى :—

(١) كتابة القبطية بحروف يونانية بدلا من الديموتيقية ، وادخال

---

(١) راجع كتاب قواعد اللغة المصرية القبطية تأليف الدكتور جورجى صبحى طبع بمطبعة المعهد العلمى الفرنسى سنة ١٩٢٥ م ، ص ٦

(٢) الكتاب ذاته ص ٦

(٣) *Worrell, A Short Account of the Copts, Michigan, 1945, pp 8-9*

تعبيرات وكلمات يونانية وأجنبية عليها وخصوصاً فى العصر المسيحى .

(٢) تغيير حرف وابداله بآخر أو تقديم وتأخير حرف مثال ذلك ن ت رْ فى المصرية القديمة بمعنى « إله » أصبحت فى القبطية نُ و ت ى بعد حذف « الراء » ثم ب تْ فى المصرية القديمة بمعنى « سماء » أصبحت فى القبطية إ تْ ب ى ، ن سْ بمعنى « لسان » أصبحت ل س .

(٣) الحروف المتحركة معدومة فى المصرية ولكنها موجودة فى القبطية مثل خ ت بْ فى المصرية القديمة بمعنى « قتل » أصبحت فى القبطية خ وُ ت ى ب

(٤) وجود كلمات فى القبطية لم يعثر عليها فى المصرية ، ولعلها كانت موجودة واندثرت .

(٥) كلمات مصرية أهملتها القبطية .

٢ — اللهجات

لكل لغات العالم عدة لهجات تتبع التقسيم الجغرافى لأى قطر . فسكان القطر الشمالى تختلف لهجتهم عن سكانه فى الجنوب ، ونلاحظ ذلك فى اللهجات العربية المختلفة تبعاً لأقسام القطر المصرى . فسكان الدلتا تختلف لهجتهم عن القاهرة ، وتختلف عن جنوب القاهرة . والفيوم تختلف لهجتها عن مصر الوسطى وكذا مصر الوسطى عن مصر العليا .

والمعروف ان اللهجات المختلفة الموجودة فى المصرية القديمة هى أساس لإختلاف اللهجات فى القبطية . ولهذا يحسن بنا أن نبين أطوار تغيرات المصرية أولا ، فننقل ما قاله جاردنر فى كتابه عن تطورات المصرية (١)

١ ـ اللغة المصرية القديمة : هى لغة الاسر من الأولى إلى الثامنة منذ

---

(١) Gardiner , Egyptian Grammar , Oxford 1927, pp 5 - 6.

حوالى سنة ٣٤٠٠ إلى سنة ٢٤٠٠ قبل الميلاد ، ولا شك ان هذه اللغة تحوى لغة نصوص الاهرام ، ولها مميزات خاصة وتكتب بتهجئة خاصة - والمعروف ان المستندات التى لا تزال باقية من هذه المرحلة هى عبارة عن وثائق رسمية وجنائزية ونصوص مقابر كما انها تحوى نصوصاً لسير بعض الاشخاص .

٢ - اللغة المصرية المتوسطة : هى لغة الآداب من الاسر التاسعة إلى الثامنة عشرة منذ حوالى ٢٤٠٠ إلى ١٣٥٠ قبل الميلاد واستمرت لغة الاهلين نحو ثلثى هذه الحقبة .

٣ - اللغة المصرية الحديثة : هى لغة الاهلين من الاسرة الثامنة عشرة إلى الرابعة والعشرين أى منذ حوالى سنة ١٥٨٠ إلى سنة ٧١٠ قبل الميلاد وجد مدونا بها مستندات خاصة بالمعاملات والخطابات ، وبعض القصص والروايات الأدبية كما انه دون بها نصوص تاريخية للأسرة التاسعة عشرة وما بعدها على انه لا يوجد منها الآن غير القليل . ونعتقد انها بعيدة عن الاصطلاحات الفصحى للغة المصرية المتوسطة كما انه بدأ ظهور الكلمات الاجنبية بها .

٤ - الديموتيقية : هى اللفظ الذى اطلق بشكل عام على اللغة المستعملة فى الكتب والوثائق التى كتبت منذ الاسر الخامسة والعشرين إلى آخر عصر الرومان (٧٠٠ قبل الميلاد إلى ٤٧ بعد الميلاد) .

٥ - القبطية : هى اللغة المصرية القديمة فى تطورها الأخير ، كما ظهرت فى الكتابات القبطية منذ القرن الثالث الميلادى وما بعده ، وسميت قبطية لإنها لغة الاقباط وهم المسيحيون أحفاد المصريين القدماء ، وتقرأ هذه اللغة فى كنائسهم مع أنها غير مفهومة حتى يومنا هذا (الا للنذر اليسير) .

وبعد الفتح العربى لمصر سنة ٦٤٠م حلت العربية تدريجياً محل القبطية التى انطفأ نور استعمالها كلغة التكلم فى القرن السادس عشر .

والقبطية تكتب بالحروف اليونانية مضافاً إليها سبعة حروف خاصة مشتقة

من الديموتيقى وهى ش ا ى ، ف ا ى ، خ ا ى ، هُو ر ى ، جَ نْ جَ ا ، ش ى م ا ، ت ى . أخذت من الديموتيقية ونمقت حتى تماثل مع بقية الحروف اليونانية .

وأهمية اللغة القبطية من الوجهة اللغوية أنها الشكل المصرى الوحيد الذى يكتب بحروف متحركة (١)

وقد اختلف علماء القبطية فى تحديد عدد لهجاتها فاحصاها بعضهم أنها ثلاث والبعض أنها خمس والبعض أنها ست .

والواقع أن اللهجات القبطية أكثر من ست لهجات ، فلا يعقل أن تكون البحيرية التى أجمع العلماء أنها كانت لهجة الأسكندرية وضواحيها والدلتا ونتريا (وادى النطرون) ، لهجة واحدة مستعملة فى هذه الأقاليم الواسعة ولكن المعقول أنه كانت لهذه البلاد عدة لهجات اندمجت مع الزمن بالبحيرية يؤيد ذلك أن الكلمة الواحدة التى تعنى معنى واحد لها عدة صور فى الكتابة فكلمة « الشرق » مثلا تكتب ى ا ب تْ أو اَ ىَ ا ب ت وكلمة « اختار » تكتب س و ت ب أو س و ب تَ وكلمة « ظفر » تكتب ى ا ب أو ى ى ب مما يدل دلالة واضحة أن اللهجة البحيرية لم تكن واحدة بل عدة لهجات اندمجت مع بعضها البعض .

ويقول الدكتور ورل « ويظهر لنا من الخطابات والمستندات الكثيرة التى لدينا الخاصة بأحوال العامة تأثير لهجات الأقاليم المحلية والأفراد التى لم يستطع المعلم محوها لان الأقباط يختلفون مع سائر الشرق فى ميلهم الشديد إلى

---

(١) اللغة المصرية كانت تكتب بثلاثة أقلام الأول القلم الهيروغليفى من الكلمة اليونانية ى ا ر و س « مقدس » ج ل ى ف و « ينقش » ومعناه النقش المقدس وكانت تكتب به على الأحجار والمسلات ، والثانى الهيراتيقى من الكلمة اليونانية ى ا ر ى ت ى ك و س أى الخاص بالكهنة والثالث الديموتيقى من الكلمة اليونانية د ى م و ت ى ك ى « عامى » وكان يستعمله العامة فى العصر اليونانى الرومانى وكانوا يستخدمونه فى كتابات العقود والخطابات.

التهجئة الصوتية .

ومع أن هنـاك أسباباً تحملنا على الاعتقاد أن اللهجات المختلفـة قامت فى عصور مختلفة إلا أنها تشترك جميعاً فى تقاليد واحدة وترجع الى أصل مركزى واحد » .

ويمكن تقسيم اللهجات إلى قسمين رئيسيين :

ا ـ لهجـات مصر السفلى :

ويعرف منها الآن البحيرية من الكلمة العربية بحيرى أى الاراضى المجاورة للبحر وربمـا من اسم مديرية البحـيرة ، وكانت اللهجـة البحيرية تسمى سابقـاً منفية تسمية خاطئة « ويظن أنها كانت أول لهجة وضعت فى الصيغـة الـكتابية المصطلح عليها وتم ذلك فى مدينة الأسكندرية ، وبالإجمال فالبحيرية هى اللغـة الوحيدة التى استطاعت أن تستكمل كتابتها اللغـوية بالاستعارة من الديموتيق ويغلب على الظن أن تهجئـة الحروف فى اللهجات المختلفـة الأخرى وضعها أشخاص لا يمتون بصلة الى الديموتيقيـة أو وضعها أشخاص اقتنعـوا باستعمال الهجاء البحيرى كنقطة بدائية .

ولسوء الحظ أن الطابع الأول للهجـاء البحرى لم يعرف تماماً لأن كل البرديات ذات القيمة الأثرية قد اختفت من عالم الوجود » (١)

واصبحت البحيرية فى القرن الحادى عشر بعد نقل الـكرسى البطريركى الى القاهرة لغـة الآداب لكل البـلاد ولا تزال الى الآن تستعمل قليـلا فى خدمة القداس . وعلامتها المختصرة فى كتب الاجانب [B] وسابقا [M]

وكانت تستعمل فى الاسكندرية وما جاورها والدلتا وتريا (وادى النطرون) ولا يوجد فى الـكتب الـكنسية المستعملة الآن إلا اللهجة البحيرية ما عدا لحن

(١) ورل الـكتاب ذاته ص ٨ .

واحد للثلاثة الفتية وهو دا ن ا ن ، الربعان الأول والثانى باليونانية ويلحنان بالقاهرة ، والثالث والرابع بالصعيدية ويلحنان فى بعض كنائس الوجه القبلى فقط (١)

وموجود فى الدار البطريركية نسخة خطية رقم ١٠٦ طقس(٢) ، تاريخ عمل الميرون وترتيب عمله وبه قطع وصلوات بالصعيدية .

ب ـ لهجات مصر العليا :

(١) الصعيدية : وهى من الكلمة العربية « صعيد » ومعناها أعالى الأرض أى الوجه القبلى . وهى لهجة طيبة وفيما بعد أصبحت لهجة آداب الوجه القبلى وكانت تسمى سابقاً الطيبية وعلامتها المختصرة [S] أو [Sa] سابقاً [T]

ويقول ورل : « من المحتمل انها انشئت بعد البحيرية ويظهر انها اخذت من صيغة خاصة للغة التخاطب المتداولة فى الجزء الشمالى من وادى النيل من بابلون (منف) لغاية اسيوط» (٣)

(٢) الفيومية واستعملت فى الفيوم ، ويقول اشتيندرف فى كتابه الاجرومية القبطية (٤) أنها كانت تسمى باللهجة البشمورية تسمية خاطئة ، وعلامتها المختصرة هى (F) وسابقاً (B) .

(٣) الاخميمية تكلم بها فى مدينة اخميم ، وقد أفسحت الطريق بعد ذلك للصعيدية التى هى لهجة الوجه القبلى وعلامتها المختصرة (A) .

هذه الأربع اللهجات الرئيسية التى اتفق عليها أخيراً العلماء . ثم اللهجات

---

(١) الابصلودية السنوية طبعة اقلاديوس لبيب (١٩٠٨) ، ص ٦٥ ـ ٦٧

(٢) لوصف هذه المخطوطة يراجع كتالوج الدار البطريركية تأليف مرقس سميكة ويسى عبد المسيح طبع بالمطبعة الاميرية سنة ١٩٤٢م رقم ٧٢٣ ص ٣٢١ وتاريخها سنة ١٠٩٣ ش (١٣٧٧ م) .

(٣) ورل الكتاب ذاته ص ٨ .

(٤) *Steindorff Koptische Grammatik Berlin 1930, p. 4*

الفرعية ومنها :

(١) المنفيـة : ذكر شتنيدورف فى كتابه المشار اليه انه كان يتكلم بهـا فى منطقة منـف ، وحلت أخيراً محل البحيرية وعلامتها المختصرة (B) وذكرها أيضاً مالون وجورجى صبحى .

(٢) الأخميمية الفرعية أو الأسيوطية وكانت تستعمل من البهنسـا إلى أسيوط وهى مشتقة من الأخميمية وعلامتها المختصرة (A_2) .

(٣) اللهجة البشمورية اشتقت من البحيرية ، ويقول ورل فى كتابه المشار اليه : ذكر هذه اللهجـة المؤلفون الوطنيون وربما تـكون لهجة مصرية وطنية تكلم بها اليونان فى شرق الدلتا وكتبت بحروف يونانية عادية (١) .

(٤) واشتق من الفيومية لهجة أخرى ، فمن مراجعة اللوحة ٣٨ من الـكتاب *The Necropolis of el Bagawat in Kharga Oasis* الذى ألفه الدكتور أحمد فخرى سنة ١٩٥١ م ، نرى أن النص القبطى الموجود بهذه اللوحة مزيج من الفيومية والصعيدية مما يحملنا على الاعتقاد انه لهجـة خاصة بالواحات .

وكانت اللهجة الصعيدية لهجات عديدة اندمجت فى بعضها بعضاً كالبحيرية بدليل وجود كلمات كثيرة تـكتب بصيغ مختلفة مثلا . ا ى ب ت ، ب ف ت أو ى ب ت صور لـكلمة : « مسمار » ، وكذا « ا ى م ى » أو « ا ى م م ى » صورة لـكلمة « يعرف » .

ويمـكننا أن نقول أن الـكتاب المقدس قد ترجم من اليونانية إلى اللهجات

---

(١) ورل الـكتاب ذاته ص ٨ . ويقصد بالوطنيين المرحوم اقلاديوس لبيب الذى ذكرها فى كتابه الاجرومية القبطية الجزء الثـانى طبـع سنة ١٦١٠ ش ص ١٥ وجرجس فيلوثاوس فى كتابه اللغـة القبطيه طبع بالقاهرة سنة ١٩١٦ م « وهى لهجة بقـايا الماليك فى الشرقيـة والدقهلية والسواحل البحيرية » .

الرئيسية مباشرة ، ويحتمل أن يكون ترجم إلى البحيرية من اليونانية وإلى الصعيدية من اليونانية ، ونقلت اللهجات الأخرى من هاتين اللهجتين .

ولا يتناول هذا المقال الترجمة إلى القبطية بالتفصيل ، وان وجود كلمات كثيرة يونانية فى اللهجات لم تترجم إلى القبطية دلالة واضحة على أن اللغة الثانية الشائعة فى البلاد المصرية كانت اليونانية ، وكان الطالب يتعلم الاثنتين معاً فى عواصم البلاد ، يثبت ذلك الخطابات المكتوبة على الشقافة وعلى البردى الخاصة بالمعاملات التى كان يتعامل بها العوام ، ولا تخلو واحدة منها من الكلمات اليونانية .

٣ — الآثار الأدبية فى اللغة القبطية

أولا — ترجمة الكتاب المقدس من اليونانية إلى القبطية ، ومع صعوبة هذا العمل فان الترجمة القبطية من أدق الترجمات ، وذلك لأن المترجمين كانوا ملمين باللغتين ، وترجمة الكتاب المقدس تحتل المكان الأول فى أدبيات اللغة القبطية ، ويظهر أن الكتاب ترجم كاملا إلى اللهجتين البحيرية والصعيدية .

ولكن الذى عثر عليه حتى الآن . فى البحيرية : خمسة أسفار موسى ، أيوب ، أمثال ناقص ، المزامير ، النبوات الصغار والكبار طبعت كلها ، وفقرات بسيطة من الأسفار الأخرى ، وفى الصعيدية ، فقرات غير كاملة من كل أجزاء الكتاب المقدس نشرها العلماء ، والكامل هى سفر المزامير والأمثال وقد طبعا ، وسفر صموئيل « الملوك » وأشعياء فى مجموعة مورجان لم يطبعا بعد ، وفى الأخميمية النبوات الكبار طبعها تل سنة ١٩٢٧ والفيومية فقرات قليلة .

أما العهد الجديد ، فانه كامل فى اللهجتين البحيرية والصعيدية ، وطبع بهما عدة مرات ، وأنجيل يوحنا بالاخميمية الفرعية طبعه طومسون سنة ١٩٢٤ م .

وفقرات قليلة من الفيومية طبعت بالمعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة .

ثانياً — من أهم أدبيات اللغة كتب الأبوكريفا (١) وهي الأسفار الغير مقبولة فى الكنائس المسيحية كلها وأغلبها بالصعيدية وجزء منها بالأخميمية .

ثالثاً — كتب الاغنسطية وتشتمل على آراء وتعاليم الاغنسطيين وهم شيعة ظهرت فى بدء المسيحية ، وكان اعتقادهم لا يتفق مع اعتقاد المسيحية ، فكانوا يعتقدون أن المعرفة هى الوسيلة الوحيدة للخلاص دون الإيمان ، وأن ما ينسب للمسيح من المعجزات والأعمال أمثلة رمزية وهى من الكلمة اليونانية ج ن و س ى س « معرفة » .

وقد نشر من هذه التعاليم *Pistis Sophia* طبعه اميلينوسنة ١٨٩٥ م ، واشمت بالقبطية سنة ١٩٢٠ . وضبط الترجمة هورنر وطبعها سنة ١٩٢٤ م ، وأغلب هذه الكتب بالصعيدية وبها أجزاء بالأخميمية .

وقد حصل المتحف على مجموعة قيمة من البردى من كتب الاغنسطية وتعتبر هذه المجموعة من أثمن المجموعات فى نوعها .

رابعاً — والآداب الكنسية تشمل تراجم الآباء التى ترجمت إلى القبطية ، ثم أعمال الشهداء وسير الآباء الرهبان المشهورين ، وقوانين الرهبنة ، وكتب كثيرة عن الطقوس الكنسية وضعت أصلا بالقبطية ، من بينها : بستان الرهبان ، الذى ترجم فيما بعد إلى اليونانية فالسريانية فاللاتينية فالعربية ، ثم إلى اللغات الأروبية .

ويقول مالون : « من بين المنظومات القبطية الثاوطوكيات *Theotokia* ولها مكانة عظمى فى الآداب القبطية . »

---

(١) يجب أن يميز بين هذه الكتب الأبوكريفا وبين الكتب التى تعتبرها بعض الكنائس ابوكريفا وهى الاسفار : يهوديت ، طوبيا ، الحكمة ، ابن سير اخ . تكملة دانيال واستير ، المكابيين . وتعتبرها الكنيسة القبطية واليونانية واللاتينية كتباً قانونية ثانوية *Deutrocanonical* وتقرأ أجزاء منها فى الصوم الكبير وأسبوع الآلام فى الكنيسة القبطية.

خامساً — من آثار الآداب القبطية نصوص تتعلق بالتاريخ والقوانين والعقود والبيع أو الميراث وبالرسائل والصكوك ، وما يختص منها بالضرائب أو التجارة ، كما أن هناك نصوصاً دينية تتصل بالفلك والسحر والطب (١) .

٤ — ترجمة الكتب القبطية

كان العهد القديم قد ترجم إلى اليونانية بمدينة الأسكندرية من العبرانية ، وقام بترجمته من العبرانية إلى اليونانية اثنان وسبعون حبراً من أحبار اليهود ، بناء على طلب بطليموس فيلادلفس وذلك فى سنة ٢٨٢ أوسنة ٢٨٣ قبل الميلاد.

ولما عمت المسيحية البلاد ، بادر صفوة المصريين ممن كانوا يجيدون اليونانية بجانب القبطية إلى ترجمة الكتب المقدسة ، ونقل المصنفات التاريخية واللاهوتية من اليونانية إلى القبطية بلهجاتها ، ليتسنى للأقاليم المختلفة الاستفادة منها . وكانت الأديرة والكنائس حافلة بهذه الكتب باللغتين اليونانية والقبطية ، ولم يمر القرن الثالث حتى كان الكتاب المقدس بأكمله مترجماً إلى اللهجات القبطية الرئيسية . كما أن كل المؤلفات تمت ترجمتها قبل المجمع الخليفدونى (٤٥١ م) إذ بعده لم يهتم الأقباط بالآداب الكنسية (٢) .

ونذكر هنا ما ورد فى مرشد الطالبين الى الكتاب المقدس الثمين طبع بيروت سنة ١٨٨٦ م ص ٢٣ عند ذكره تراجم الكتاب المقدس، قال : « أن الترجمة الأولى هى السبعينية والثانية السريانية » ، وعن القبطية فيقول : « الثالثة الترجمة المصرية ، وكان أهل مصر لقربهم من اليهودية قد سمعوا الأنجيل بعد المسيح بزمان يسير ، وكانت اللغة المستعملة حينئذ فى مصر هى اللغة القبطية وهى مركبة من اللغة المصرية القديمة واليونانية ، ويظن أن العهد القديم ترجم إليها

(١) لمحات من الدراسات المصرية القديمة بقلم الدكتور باهور لبيب طبع ١٩٤٧م ، ص ١٤٠

(٢) كتاب ورل ذاته ص ١٠ .

من الترجمة السبعينية فى القرن الثانى أو الثالث بعد المسيح ، وعلى كل حال لا بد أن ذلك كان قبل القرن الخامس والعهد الجديد بين الثالث والخامس .

والمأثور عن العلامة بنتينوس رئيس المدرسة اللاهوتية بالاسكندرية الذى عاش فى أواخر القرن الثانى بعد الميلاد ، أنه تمكن من ترجمة الكتاب المقدس من اليونانية إلى القبطية بمساعدة تلاميذه وعلى رأسهم اكليمنضس الاسكندرى» .

ومما يثبت صحة ذلك ما ورد فى سيرة القديس أنطونيوس الذى ولد فى سنة ٢٥٠ م ، أنه لما بلغ الثامنة عشرة دخل الكنيسة ولم يكن يعرف سوى اللغة القبطية . سمع القارىء يتلو الآية القائلة : « ان أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع أملاكك واعط للفقراء » (مت ١٩:٢٢) ، وفى اليوم التالى الآية : « لا تهتموا للغد » (مت ٦ : ٣٤) ، فذهب من فوره وعمل بما فيها وباع ممتلكاته ووزعها على الفقراء ، واعتزل فى الصحراء وأسس الرهبنة . وهذا يدل على أن الكتاب المقدس كان يتلى فى الكنيسة فى ذلك الحين - أى فى القرن الثالث بالقبطية التى كانت لغة الأهلين ، وجاءت المخطوطات القديمة التى اكتشفت حديثاً تؤيد ذلك .

وانطونيوس نفسه كتب رسائله وتعاليمه العشرين باللغة القبطية الصعيدية ، يؤيد ذلك العبارة الآتية الواردة بمخطوط رقم ٨٨ طقس بالمتحف القبطى بآخر هذه الرسائل : أن الرسائل والتعاليم التى للقديس انطونيوس ، ترجمت من اللسان الصعيدى إلى اللسان العربى فى آخر سنة ٩٨٦ للشهداء (١٢٧٠م) بديره المعروف ببرية العربة(١) .

(١) لوصف هذه المخطوطة يراجع Graf. Catalogue de Manuscrits arabes chrétiens conservés au Caire, Citta del Vaticano 1934, No. 93. p. 353. وفهرس المخطوطات القبطية والعربية جزء أول تأليف مرقس باشا سميكه ويسى عبدالمسيح طبع سنة ١٩٣٩م رقم ١٩٣ ص ٩٣ ، وهذه المخطوطة طبعت تحت اسم « كتاب روضة النفوس فى رسائل القديس انطونيوس طبع بالقاهرة سنة ١٨٩٩م .

وقد نشر الدكتور بورمستر فصولا من العهد القديم ، تتلى فى الكنيسة القبطية فى الصوم الكبير وأسبوع الآلام ، وذكر أنه لما راجعها على النسخة اليونانية وجد بها إختلافاً وزيادات تجعله يظن أن هذه الفصول ترجمت عن النسخة اليونانية الأصلية التى كانت مستعملة فى مصر قبل زمن أوريجانوس (١٨٥ — ٢٥٣) [١] .

والمعلوم أن أوريجانوس هو الذى راجع النسخة السبعينية وضبطها ، وقد يؤخذ هذا دليلا آخر على أن الترجمة القبطية ترجع الى آخر القرن الثانى أو أوائل الثالث على الأكثر [٢] .

ويقول مالون : أن الترجمة الصعيدية ترجمت فى القرون الثالث إلى الرابع ، والبحيرية فى القرون الخامس إلى السابع .

٥ — سبب استعمال اليونانية :

لما احتل اليونان البلاد سنة ٣٢٠ ق.م ، أصبحت اللغة الرسمية للحكومة هى اليونانية ، وبقيت القبطية لغة الأهالى ، وكان طبيعياً أن يقتبس الأقباط فى لغتهم كثيراً من لغة الحكام .

وبعد زمن قصير أصبحت اليونانية فى المدن الكبيرة لغة المتعلمين ، وكانوا يتعاملون بها ، وأما أهالى القرى فانهم لم يغيروا لغتهم ولكنهم اقتبسوا كلمات كثيرة يونانية أدخلت إلى لغتهم وكانوا يتعاملون بها .

ولما ظهرت المسيحية وانتشرت فى البلاد ، قوى استعمال اليونانية ، ومما زادها قوة استعمالها فى العبادة والطقوس الكنسية فى المدن الكبرى ، وكانت لغة المبشرين بالمسيحية فى البلاد ، كما كانت لغة الكنيسة الرسمية التى دونت بها محاضر جلسات المجامع المسكونية ، أضف إلى ذلك أن كثيراً من المؤلفات قد

---

(١) يراجع مجلة *Biblica* العدد ١٥ لسنة ١٩٣٥ ص ٤٥٣ .

(٢) مقدمة فهرس المخطوطات المشار اليه ص ٣١ .

ترجم إلى القبطية من اليونانية .

وثمة سبب آخر ذكره مالون ، هو أن المسيحيين استعملوا اليونانية لأنهم لم يجدوا فى القبطية اصطلاحات خاصة تعــبر عن أراء ومعتقدات جديدة أدخلت مع الديانة المسيحية ، ولأنهم كانوا يعتقدون أن تسمية الأشياء المقدسة تتدنس إذا ما اتخذت تسمية وثنية : مثلا كلمة ن ى ف ى القبطية التى بمعنى روح أو نفس قد استبدلت بـكلمة ب ن و م ا اليونانية دلالة على الروح القدس(١) .

ويقول ورل فى كتابه المشار إليه ص ٨ :

« ولا شك أن اللهجات القبطية كلها استعارت كلمات يونانية ، وبعضها كان قد استعير قبل القبطية ثم تأقلمت هذه الكلمات اليونانية ، كما أن بعضاً منها جاء مع الارساليات التعليمية ، ولايزال أثرها فى المؤلفات التى ترجمت من اليونانية » ويرجع الدكتور ورل فيما يظن استعمال الكلمات اليونانية فى القبطية إلى كسل المترجم ، أو إلى ما قد يكون قد شعر به من أفضلية الكلمات اليونانية أو لنفوره من الكلمات القبطية أو لكراهيته لترجمة الاصطلاحات اللاهوتية .

٦ — اضمحلال اللغة :

بدأ إضمحلال القبطية فى القرن التاسع ، وأخذت العربية تناهضها ، يؤيد ذلك وثيقة هـامة عن الرؤيا المنسوبة خطأ لأنبا صموئيل القلمونى من القرن العاشر ، وتحوى حثاً مؤثراً على الاهتمام باللغة القبطية ، ومنها نعرف أن اللغة العربية بدأت تحل محل اللغة القبطية فى هذا القرن حتى فى معظم جهات الوجه القبلى.

وفى القرن الثالث عشر كانت اللغة السائدة هى العربية ، وقد وضع علماء القبط كل مؤلفاتهم اللاهوتية بالعربية .

---

(١) كـتاب مالون ذاته ص ٤ .

ومع انتشار العربية فان القبطية كانت لا تزال فى الوجه القبلى لغاية القرن السابع عشر لغة التكلم .

وفى القرن الثامن عشر لما قاربت اللغة القبطية على الزوال ، كتبها الأقباط بحروف عربية وقد كثر استعمال هذه الطريقة بدليل وجود نسخ كثيرة من بينها اثنتان بالمتحف القبطى سنتكلم عنهما فيما بعد .

وقد قال المقريزى الذى عاش فى القرن الخامس عشر عند كلامه عن دير موشه فى كتابه المعروف : « والأغلب على نصارى هذه الأديرة (sic) معرفة القبطى الصعيدى وهو أصل اللغة القبطية وبعدها اللغة القبطية البحيرية ، ونساء نصارى الصعيد وأولادهم لا يكادون يتكلمون (sic) إلا بالقبطية الصعيدية ، ولهم معرفة تامة باللغة الرومية ، اهـ . بحروفه (١) .

وقد ذكر المسيو ماسبرو فى محاضرته — عن « صلة المصريين الأقدمين بالمصريين الحاليين » التى ألقاها فى نادى رمسيس فى ١٩ نوفمبر سنة ١٩٠٨م .

« ولكن من المؤكد أن سكان صعيد مصر ، كانوا يتكلمون ويكتبون باللغة القبطية حتى السنين الأولى من القرن السادس عشر فى أوائل حكم الأتراك ، ويؤخذ من بقايا كتابات ذلك العصر أن العنصر القبطى كان لم يزل قوياً محترم الجانب فى تلك الأنحاء ، ولم يمر قرن ونصف قرن فقط حتى قدم إلى سائح فرنساوى فى أيام لويس الرابع عشر آخر كاهن قبطى يجيد التكلم باللغة القبطية والمرأة العجوز التى تنازعه ذلك الامتياز المحزن (١).

وفى القرن الثامن عشر والتاسع عشر انتهى الكلام بالقبطية ، ولكنها بقيت لغة الكنيسة ، فكان رجال الأكليرس فى ذاك الوقت حريصين على المحافظة على

---

(١) المجلة القبطية لصاحبها ومنشئها جرجس فيلوثاوس عوض السنة الثانية ص١٢ وقد ذكر اشتيندورف فى كتابه المشار اليه ص ٤ « فى القرن السابع عشر أشار الرحالة فانسليب أنه قابل شيخاً كان يمكنه التكلم بالقبطية ولكن هذا عمل فردى . والآن توجد محاولات جديدة لاحياء اللغة القبطية » .

التراث الباقى من القبطية الذى يربطهم بأجدادهم ، بهذه الروح الواعيـة الطيبة عمدوا على أن يقدسوا القداس ولا يتكلمون فى الهيـــكل إلا بالقبطيـة ، أكليرس حقاً يستحق كل تقدير واحترام ، إذ أنه رغم ما انتابه فى هذين القرنين من الفقر والجهل بسبب مساوىء الحكام ، لم يهمـــلوا لغة أجدادهم وكانوا يعتقدون أن الصلاة داخل الهيكل بغير القبطية أمر لا تقره القوانين الكنسية ، وهكذا ظلت القبطية لغة الكنيسة حتى القرن العشرين .

وفى هـــذا القرن ـ قرن الحضارة والمدنية والعلوم ـ ماتت القبطية حتى كلغة كنسية ، فأهملها الأكليرس ، وأصبحت الصلاة بها أمراً نادراً ، ولكن الله لم يرد لها المـــوت فاحتضنها الغرب ودرسها فى جامعاته . وبدأت مصر نهضتها العلمية مطالبة بمجدها القديم وولجت باب المعرفة بمفتاح لغة أجدادها وهو اللغة القبطية .

أن المتعلمين للقبطية الآن يحاولون التكلم بها باجتهادهم الشخصى ملاحظين قواعد اللغة القبطية ، والقبطية ماتت فى القرن السابع عشر كما سبق القـــول ولا يعرف بالضبط كيف كانت طريقة المحادثة بالقبطية بين الأم وطفلها وبين الأفراد ، ومن ثم فكل كلام بها هو نتيجـة الدراسة الخاصـة والترجمة من العربيـة .

ولغة الأشخاص الموجودين بالزينة بالأقصر ، ويقول عنهم ورل وفشنمل (١) أنهم يتكلمون القبطية التى لا تعدو أن تكون ترجمة من العربيـة ، ودراستهم مستمدة من إطلاعهم على كتب المرحوم أقلاديوس بك الذى وضع بها جملا ومحادثات كان يتكلم بها مع أفراد أسرته .

ولما بدأ الاقباط يتعلمون العربية كتبوها بحروف قبطيـــة ، يؤيد ذلك المخطوط الذى عثر عليه إفلين هويت بدير أبومقار ونقل إلى المتحف القبطى

---

(١) *Worrell, Coptis Texts, Michigan, 1942, pp. 300 and sqq.*

وهو جزء من بستان الرهبان بالعربية مكتوب بحروف قبطية نشره الدكتور جورجى تذييلا لكتاب : Evelyn White The Monasteries of Wade N - Natrun Vol. I, New-York, 1926, pp. 231-274.

٧ — اللفظ القبطى

المعروف لنا الآن ان اللفظ القبطى ثلاثة أنواع :

الأول ـ لفظ الجامعات ويلفظ به اليونانى القديم على طريقة Erasimus وهو عالم فيلسوف هولاندى عاش فى القرن الخامس عشر وابتكر اللفظ اليونانى الذى تسير عليه الآن كل جامعات العالم .

الثانى ـ لفظ الكنيسة الحالى وقد أدخل إليها منذ عصر انبا كيرلس البطريرك ١١٠ الملقب « ابو الاصلاح » (١٨٥٤ - ١٨٦١) وجعله مثل اللفظ اليونانى المستعمل فى الكنيسة اليونانية الآن كما انه ادخل قطعاً يونانية إلى الكنيسة القبطية وكان يقصد بهذا التقرب بين الكنيستين القبطية واليونانية لتكونا وحدة واحدة مسيحية يرأسها بطريرك واحد .

الثالث ـ وهو اللفظ القديم الذى ورثناه عن اجدادنا وهو الصحيح إذ يقربنا إلى أصل اللغة القبطية وهو المصرى القديم .

وموجود بالمتحف القبطى مخطوطتان :

الأولى رقم ٤١٦ طقس وهى الابصلمودية الكيهكية مؤرخة فى ٢٤ أبيب سنة ١٤٧٤ ش (١٧٥٨م) بنهرين (عمودين) النهر الأول بالقبطية بحروف عربية ، والنهر الثانى ترجمة القبطية بالعربية .

الثانية رقم ٤١١ طقس وهى جزء من الابصلمودية الكيهكية بنهرين النهر الأول بالقبطية بحروف قبطية ، والثانى بالقبطية أيضاً انما مكتوب بحروف عربية (لفظ الأول بالعربية) مؤرخة فى ٢٤ بشنس سنة ١٤٥٨ش (١٧٤٢م)

وبهذه المناسبة نورد هنا قطعة مكتوبة بالعربية من المخطوطة الأولى ورقة ١٥٩ (ج) باللفظ القديم ومقارنته باللفظ الحديث ومنه يتبين للقارىء سهولة وسلاسة القديم .

القديم دى س م ا رو ت   خ ا ن   ن ى هـ ى و م ى   ا و
الحديث ت ى ز م ا رؤو ت خ ى ن   ن ى هـ ى و م ى   ا و
ق: م ا ر ى ا   ا ت م ا و   ا م ا ن ن و د ى   د ى س م ا روت
ح: م ا ر ى ا   ا ث م ا ف   ا م ا ف ن و ت ى   ت ى ز م ا رؤوت
ق: انجا بااكربوس اداباى با ىسوس بخرسطوس
ح: انجى بىكربوس اتىفاى بى ىسوس بخرسطوس

هذا اللفظ القديم يسمونه الآن اللفظ الصعيدى ، وهى تسمية خطأ نشأت بسبب تغيير كيرلس المذكور لهذا اللفظ القديم كما سبق القول ، ولكونه صادر من مصر اعتبر هذا اللفظ القديم لفظاً صعيدياً ، والواقع أنه لفظ الكنيسة المصرية من الأسكندرية إلى أسوان قبل البطريرك المذكور ، وقد سمعنا الطيب الذكر البطريرك أنبا كيرلس (١٨٧٥ – ١٩٢٧) فى آخر أيامه يصلى القداس باللفظ القديم بصوت رخيم ملائكى ويتلوه بعذوبة ألفاظه التى لا تعرف التكلف ، كما أننا سمعنا ونحن صغار القداس يتلى من أحبار قديسين ، قسوس وأساقفة باللفظ القديم ، وكنا نشعر أننا فى السماء لامتزاج عذوبة الألفاظ الحلوة وطلاوتها مع قداسة المصلى ، الأمر الذى حرمنا منه الآن .

ويقول ورل فى كتابه نصوص قبطية « أن اللهجة المعروفة هى البحيرية بين الأقباط الحاليين ، وكلمة صعيدى تطلق كليـة على النطق البحيرى القديم المحتقر ، كما سمع على وجه الخصوص بين فلاحى مصر العليا (١) » .

ويقول أيضاً جنابه : « ولا يعرف تماماً إلى أى مدى لا يزال الأقباط يستعملون اللفظ القديم ، ففى ضواحى الاقصر يوجد ثلثمائة شخص تقريباً يقرأون القبطية بدون فهمها ، ويوجد ستة منهم يفهمونها ، من بينهم اثنان فقط يتبعون النطق القديم الذى هو معروف فقط عند بعض الرهبان فى دير مارجرجس بفرشوط ، ولكن هذا اللفظ لا يدرس بعد (٢) » .

---

(١) *Worrell, Coptie Texts Michigan, 1942, pp. 298 - 299*

(٢) *sic* . لايعرف لنا وجود رهبان بدير مار جرجس بفرشوط .

واللفظ القديم يختلف عن الحديث فيما يلى :

(١) لايوجد حرف ثاء فى القـــديم بينما موجود فى الحديث وتوافق حرف ت فى القديم .

(٢) لا يوجد حرف ذال فى القديم بينما موجود فى الحديث وتوافق حرف د فى القديم .

(٣) لا يوجد حرف ف الفارسية فى القديم بينما موجود فى الحديث وتوافق حرف باء أو فاء فى القديم .

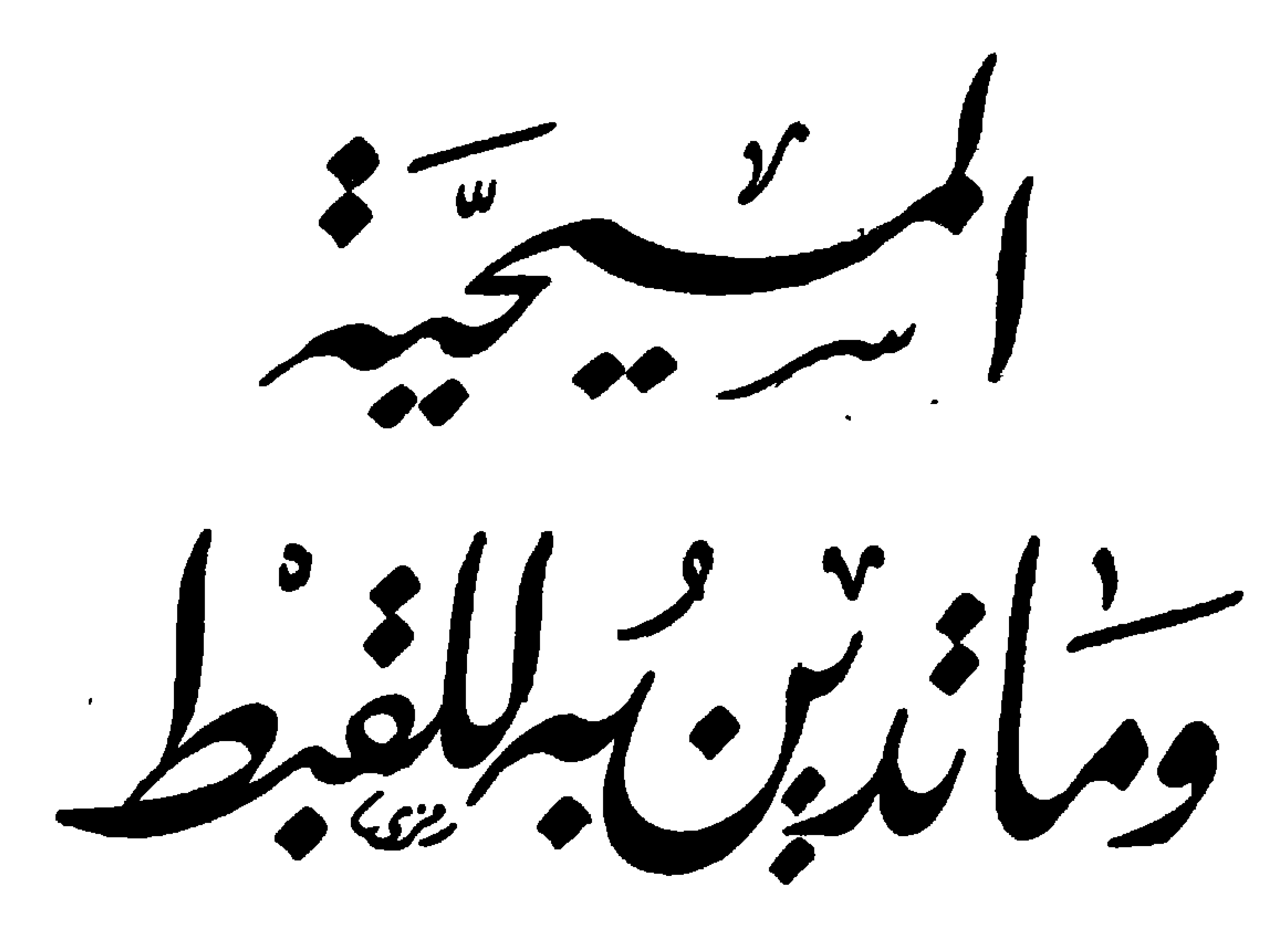
(٤) الحروف المتحركة بما انها لم توجد فى اللفظ القديم فكان اللفظ القديم القبطى لا يفرق بين الالفا واى وايتا وكلها تلفظ الف فى القديم . أما فى الحديث الفا تساوى الف ، اى تساوى ايه ، ايتا تساوى ياء .

(٥) حرف تاء فى الحديث يساوى دال فى القديم .

إلى هنا قد اعانـــا الرب وانى اهيب بالشعب القبطى الكريم قائلا له إلى متى تعرجون بين الفرقتين ، ان كانت القبطية حقاً لغتكم التى تربطكم بأجدادكم الفراعنة فاعملوا ما استطعتم على انتشارها واستعمالها فى الكنائس كما كان أجدادنا . أما ان كنتم ترون انه لا فائدة من الصلاة بها كما يزعم غالبية الشعب والاكليرس لأنها لغة غير مفهومة ، فما عليكم إلا ان تدعوا كنيستكم باسم « الكنيسة المسيحية العربية فى مصر » إذ ان تسمية كنيسة قبطية بدون استعمال اللغة القبطية فيها مغالطة لاشك فيها .

هدانا الله إلى سواء السبيل ؟

بسى عبد المسيح



للدكتور منير شكرى



دخلت المسيحية مصر ، فأيقظت شعباً أصيلا ، ساهم بقسط وافر فى الحضارة الإنسانية ، ورغماً عن أنه ظل يرزح قبل دخولها زهاء الخمسة قرون ، تحت وطأة استعمار الفرس ثم الإغريق ويليهم الرومان ، فقد استمد من اعتزازه بأصله وبماضيه وتاريخه منبعاً قوياً للوعى القومى ولتغذية الروح الوطنية ، وقد ملأت المسيحية فراغاً روحياً كان يشعر به ، منذ أن مسخ المستعمر معتقدات أجداده ، وطعمها بالهيلينية التى كانت بغيضة إليه .

ولذلك أقبل عليها فى رضى واطمئنان ، يتزود منها أيضاً لإيقاظ ذلك الوعى وللنفخ فى أواره . فلم تلبث أن بعثت فى البلاد حضارة مصرية جديدة ، امتد أثرها إلى العالم أجمع ، ومازال العالم ، دون أن يشعر ، يغترف من نتاجها ويمشى على هديها .

عندما فتح الاسكندر مصر ، كان يلبس ثوب المنقذ الذى أتى ليخلصها من براثن الاستعمار الفارسى ، ولكن ما أن توفى وبدأ البطالمة حكمها ، حتى ظهر أنهم فى واد والبلاد فى واد آخر . كان البطالمة يونانيين فى عواطفهم وفى تفكيرهم وفى كل مظاهر حياتهم ، بدأوا فاستقدموا الكثير من اليونانيين للقيام بمهام الدولة وللانتظام فى سلك الجيش ، وتبع ذلك أن أهملت لغة البلاد ، وصارت المكاتبات الرسمية والشخصية باليونانية ، وألبسوا التعليم أيضاً صبغة يونانية ، ولم تتعد الهيروغليفية نقشها على جدران المعابد ، وأما الديموتيقية فكانت فى طريقها إلى الزوال . وامتدت يدهم أيضاً إلى ذلك العامل الهام فى حياة المصريين ، والذى يعزى إليه الكثير من مظاهر نشاطهم وحضارتهم ، إلى الدين ، فمسخوه أيضاً وطعموه « بالهيلينية » . وكان نتيجة هذا التطعيم الإله سرابيس الذى فرضوه على المصريين . وهكذا كان اليونانى الذى يجوب بالبلاد المصرية ، يكاد لا يشعر مطلقاً بانتقاله إلى أرض غريبة . هذه السياسة كان يمكن أن يصادفها النجاح ، وتصل إلى بغيتها ، لو أن المصريين كانوا خليطا من شعوب مختلفة ، لا أصل له ولامقومات ، أما والمصريون شعب أصيل له كيان

خاص يعتز بتقاليده وبما ورثه عن أسلافه ، فقد زادت هذه التصرفات ، رغم ما اشتهروا به من كرم ، فى شعورهم بالجفوة التى تباعد بينهم وبين الإغريق ، والتى لاحظها المؤرخ هيرودوت قبل ذلك بقرون . ولذلك يذهب المؤرخ ليوبولد Leipoldt إلى أن سرعة انتشار المسيحية فى مصر إنما هو مظهر للكره المتأصل فى شعبها ضد الهيلينية ، إذ أن الديانة الوطنية كانت كما ذكرت فى حكم المنقرضة ، قبل نهاية القرن الثالث قبل الميلاد ، بعد تطعيمها بالديانة الإغريقية ، وفقدت تبعاً لذلك طابعها الأصيل ، فأقبل المصريون على اعتناق المسيحية كرهاً لتلك العبادة الإغريقية .

وتمادى البطالمة فأوجدوا من الأنظمة والقوانين ، ما جعل المصرى وخصوصا الفلاح رجلا مضطهدا مسلوب الحقوق ، مثقلا بالضرائب والالتزامات ، مأجوراً أو مستعبداً ، يعيش فى خوف مستمر من أن يقضى بقية أيامه فى السجون الخاصة أو فى سجون الدولة . ونتبين حقيقة تلك الحالة من أوراق البردى اليونانية التى وصلت إلينا ، والتى تحوى الكثير من شكواه المريرة . وإذا بهؤلاء المقدونيين واليونانيين ، الذين ادعوا فى زمن الاسكندر ، أنهم إنما أتوا لإنقاذ البلاد ، إذا بهم ينقلبون إلى غزاة فاتحين ، وإلى أسياد يملكون الأرض ويستغلون فى جشع خيراتها ، ولم يشرف القرن الثالث قبل الميلاد على نهايته حتى كان فى مصر شعبان يكره كل منهما الآخر .

كان لابد ، والحالة النفسية للمصريين كما بينتها ، أن تؤدى هذه الحالة إلى نهايتها المحتومة ، إذ ثار المصريون فى عهد بطليموس الرابع على هذه الأوضاع ، فاندلعت ألسنة النيران فى البلاد وسفكت الدماء ، وتتابعت الثورات والحروب الداخلية ، فى نهاية القرن الثالث ، وطوال القرن الثانى قبل الميلاد ، وقد تميزت بما سادها من مظاهر البطش والقوة الغشوم . وقد كان لهذه الثورات أثرها الفعال فى إضعاف أسرة البطالمة ، مما جعلها تضع نفسها تحت حماية روما قبل حكم كليوباطره بنحو قرن . حقيقة لم يستطع المصريون أن يصمدوا

طويلا أمام الجيش ، إلا أنهم أثبتوا أنهم شعب أبى لا يخنع للظلم والجور ، ولا يستسلم للقوة ، وما زالت تتأجج فى ثناياه روح الفراعنة ، وعلموا البطالمة أن من الصعوبة بمكان أن يحكموا شعبا ثائرا مدة طويلة .

وجاء الرومان فجعلوا من مصر إحدى مستعمراتهم ، واتخذوا منها ضيعة ، أنقذت كنوزها إيطاليا من الخراب ، واستغلوا أرضها الغنية لتموين روما ، وجعلوا من المصريين طبقة دنيا لا حقوق لها ، واعتبروهم شعبا مقهورا واقعا تحت رحمة الغزاة ، واحتفظوا بمناصب الدولة العليا ، واعطوا لليونانيين مايليها. وكان الظلم الأكبر فى هذا العهد أيضاً واقعاً على كاهل الفلاح ، وإذا بمصر تنقسم إلى شعبين يتسلط أحدهما على الآخر ويضطهده إضطهاداً لا عهد له به من قبل .

ولقد كان مقدرا لهؤلاء التعساء أن يظلوا كذلك ، مربوطين إلى الأرض ، مجردين من حقوقهم كآدميين ، غريبين عن كل حضارة أو تمدين ، لو لم تأت إليهم المسيحية ، فصادفت تعاليمها هوى من نفوسهم ، وأيقظت فيها معانى نبيلة وكل ماورثوه من قوى روحية وفكرية ، وإذا بحضارة مصرية جديدة تنبعث من بين تلك الطبقات المضطهدة ، وتصاحب نشأة الكنيسة المصرية .

* * *

عندما أتى القديس مرقس إلى الاسكندرية ، وجد فيها أرضا مهيأة لقبول دعوته ، بوجود جالية يهودية منظمة أحسن تنظيم ، تلى فى المكانة والذكر يهود أورشليم مباشرة ، وكان الاسكندر نفسه قد اقطعها حيا من أحياء المدينة الخمس ، ثم اقطعت فيما بعد حيين ، وما لبثت بعد ذلك أن تغلغلت فى جميع الأحياء . وكان الحى اليهودى الرئيسى ، كما يخبرنا المؤرخ يوسيفوس ، هو الحى الرابع ، وموقعه بين الشاطئ والسلسلة . جاء مار مرقس إلى ذلك الحى ، حيث قابل الإسكافى اليهودى حنانيا أو اينانوس ، وأبرأ أصبعه من جرح فيه

فآمن بالمسيح .

ولو أنه ليس لدينا بعد ذلك ، معلومات دقيقة مفصلة ، عن مدى استجابة يهود الأسكندرية ، لدعوة القديس مرقس ، ثم عن علاقتهم بالكنيسة فى القرنين الأولين للمسيحية ، إلا أنه كان هناك عاملان ساعدا ولا شك على اقبالهم عليها والدخول فيها . أما العامل الأول فهو ترجمة التوراة إلى اليونانية فى مدينتهم ، مما جعلهم يتعمقون فى دراسة الكتب المقدسة ، إلى درجة أن هناك من ينسب إلى يهود الاسكندرية الرسالة إلى العبرانيين التى تلحق برسائل القديس بولس ، كما أن هنـاك من يظن أن القديس اسطفانوس أول الشهداء هو أحد أفراد هذه الجالية . وكان العامل الثانى رسائل الفيلسوف اليهودى فيلون الذى كان معـاصرا للسيد المسيح وللقديس بولس (٢٠ ق. م - ٤٠ م) ، وكان متشبعا بالفلسفة الإفلاطونية وبحثهـا فى الثـالوث الإلهى ، كان يهوديا متعمقـا فى دراسة الكتاب ، مخلصا فى تدينه ، وإنما كان من أثر البيئة الاسكندرية التى ولد وترىى فيهـا ، ان كان متسامحا خاليـا من التعصب . كان معجبا بإفلاطون الذى كان ينعته « بالعظيم » و « بالكلى القداسة » ، كما كان ملما أيضا بفلسفة ارسطاليس ، وهيراقليطس ، والفيثاغوريين ، وأبيقور ، والرواقيين . ومن تقابل هذين التيـارين القويين ، كتاب العهد القديم والفلسفة الإفلاطونية ، نبع نهر فياض عظيم ، وضع به أسـاس ما يصح أن يطلق عليه « الإفلاطونية المسيحية الاسكندرية » إذ أن هذا النهج الجديد فى التفكير ، استعارة الفلسفة فى دراسة الكتب المقدسة ، تبعـه فيه الكثير من علمـاء مدرسة الاسكندرية اللاهوتية ، فى القرون الثلاثة الاولى بوجه خاص ، فهو يعتبر من هذه الوجهة بمثابة إمام لهم .

أما المصريون فقد اقبلوا على اعتناق المسيحية فى حماسة لهـا وإعجاب بها ، وقد يكون ممـا ساعد على ذلك ، غير ما ذكرته آنفا ، بعض التشابه فى بعض تعاليم ديانة آبائهم والدين الجـديد ، مثل الثواب والعقاب فى الحيـاة الآخرة

وخلود الروح . وقد تكفل بنشر تعاليم الدين الجديد (معلمو) الكنيسة ، الذين لم يكونوا بالضرورة ممن وضعت عليهم الأيدى ، أمثال بنتينوس واكليمنضس ، فكانوا يزودون كل من يقصدهم بالتعاليم المسيحية ، حتى إذا قبلوها ، وثبتت فى قلوبهم وأفهامهم ، أتوا بهم إلى رجال الكنيسة لعمادهم . وليس بمستبعد أن يكون أمثال بنتينوس ، الذى ذهب حتى الهند فى رحلاته التبشيرية ، قد تغلغلوا فى بعض بلاد مصر المهمة فى ذاك الوقت ، إذ نستدل من بعض أوراق البردى ، ان مدينة الأشمونين فى مصر الوسطى ، كانت تعرف يسوع المسيح فى أوائل القرن الثانى ، كما وجد جزء من الاصحاح الثامن عشر من انجيل يوحنا باللغة القبطية فى مقبرة بإقليم الفيوم ، عام ١٩٣٥ يرجع تاريخه إلى حوالى عام ١٣٠ م . وكانت البشارة أولا تعتمد على طريق النقل ، وأما البشارة المكتوبة والرسائل ، فقد تأخر انتشارها فى الأوساط المصرية ، إلى حين إدخال بعض الحروف اليونانية فى الكتابة المصرية ، عوضا عن الديموتيقية المعقدة . فإذا ما كبرت إحدى الجماعات فى مدينة ما ، اختارت كاهنا أو أحد أفاضل المؤمنين من بنيها ، وأرسلته إلى الاسكندرية ليرسم اسقفا بواسطة خليفة القديس مرقس .

ولم يقتصر الأمر فى المسيحية ، على مجرد حلولها محل الديانات الوثنية القديمة ، ولم يقتصر ما تناولته من تغيير على حياة المصريين الروحية فقط ، إذ كان لمبادئها الاجتماعية ، الماحية لنظام الطبقات ، والتى رسمت للاشتراكية الحقيقية خطوطها الرئيسية ، أثر واضح فى تغيير نظرهم إلى الحياة ، وإلى من أرادوا أن يتبوأوا منهم مقاعد السيادة والصدارة ، وارتفعت روحهم المعنوية إلى درجة عالية جدا ، واستعادوا ثقتهم بأنفسهم ، وكأنى بهم وقد ولدوا ولادة ثانية !

ولم يطل بنا الانتظار طويلا لمعرفة مدى تغلغل الإيمان المسيحى فى قلوب المصريين ، ولجنى ثمرة ذلك البعث الوطنى والفكرى الرائع الذى صاحب

دخول المسيحية مصر ، إذ لم يشرف القرن الثانى الميلادى على نهايته ، حتى كانوا قد استطاعوا أن يهدوا إلى المسيحية « علم اللاهوت » ، من وضع فلاسفة مدرسة الاسكندرية اللاهوتية ، فجابه بذلك فلاسفة المسيحية الفلسفة الوثنية للعصر اليونانى الرومانى وهى فى إبانها ، عندما كانت اسماء أمثال « سينيك » ، « ابيكتاتوس » ، « ومارك أوريليوس » وغيرهم من فلاسفة الوثنية فى أوج مجدها . وقد تلقف أوريجانوس علم اللاهوت فى النصف الأول من القرن الثالث الميلادى ، فأضاف إليه الكثير من عبقريته الموهوبة وكان له فيه أثر فريد .

ومدرسة الاسكندرية هذه ميدان تجلى فيه بشكل واضح حيوية الكنيسة من الناحية الفكرية ، إذ تكوّن فيها للمرة الأولى آداب مسيحية وافرة المحصول ، قوية المبنى . ونعثر فى تاريخها على صفحات رائعة لمعلمى الكنيسة ، تلك الشخصيات التى ذاع صيتها وتركت لنا آثارا ثابتة على الزمن . كانت الاسكندرية فى ذاك الوقت من أكبر مدن العالم ، تلتقى فيها الطرق الآتية من آسيا وافريقيا ، فحوت أناسا من أمم مختلفة ، نتج من احتكاك أفكارهم وأخلاقهم ودياناتهم وغليانها زبد عجيب . فكانت بذلك المخ المفكر لأنطاكيا واثينا وروما وكل الغرب ، كان فيها مدارس فلسفية وثنية ويهودية ، وانتجت فيها تعاليم مار مرقس مدرسة أخرى كبرت بمرور الزمن ، بمساعدة أساقفة اسكندرية بدأت بمثابة حلقات يجتمع فى كل منها عدد صغير من التلاميذ حول معلم واحد ، غزير العلم واسع المعرفة ، فيلقى عليهم دروسا عامة ، ثم تطورت إلى ما يشبه الجامعة عندما تعددت المواد التى تدرس فيها . ولقد تعاقب على رآستها فى القرون الثلاثة الأولى للمسيحية جماعة من فطاحل العلماء ، حتى بدت الاسكندرية فى القرن الثالث العاصمة الفكرية ليس فقط للعالم المسيحى بل وللعالم الرومانى أيضا .

وتلقف الشرق والغرب بدورهما تعاليم أوريجانوس المصرى وكتاباته ،

فراع علماءه ومفكريه ذلك الفيض الزاخر من العلم والفكر ، وتبينوا من خلاله عبقرية نفاذة قلما يجود بمثلها الدهر ، ففى الشرق اعتبره باسيليوس الكبير وغريغوريوس النازينسى معلماً لهما ، وجمعا فى مؤلف لهما أسمياه : (فيلوكاليا) ، بعض نبذ من مؤلفه (مبادىء الفلسفة المسيحية) . وأما فى الغرب فإن مؤلفات معلمى الكنيسة اللاتينية وأعظم لاهوتييها ، ماهى إلا مجرد نقل عن أوريجانوس . فأوسابيوس أسقف فرسيل بإيطاليا لم ير فلسفة حقيقية فى غير مؤلفات هذا العلامة القبطى ، وهيلاريوس أسقف بواتييه بفرنسا نقل إلى اللاتينية تفاسيره لأنجيل القديس متى وللمزامير ولسفر أيوب ، ولم يكن أمبروسيوس معلم أغسطينوس فى شرحه للتوراة ، إلا ناقلا عن أوريجانوس ، وكذلك القديس إيرونيموس .

تتلمذ أوريجانوس على فيلسوف عظيم آخر ، قضى شطراً من حياته وهو يطوف ببلاد اليونان وإيطاليا والشرق ، باحثاً عن المعرفة التى تشبع الفكر وتريح النفس ، ذلك الفيلسوف هو اكليمنضس الملقب بالأسكندرى الذى ولد حوالى عام ١٥٠م . وقد عثر على ضالته المنشودة فى مدينة الأسكندرية ، التى قصد مدرستها اللاهوتية الشهيرة ، فالتقى بعميدها الفيلسوف والمبشر الأسكندرى بنتينوس . حدثه بنتينوس بأسلوبه الفلسفى الصادر عن قلب عامر بالإيمان ، عن ذلك الدين العجيب ، الذى أنبت فى مصر حضارة مصرية جديدة وبعث فى المصريين روحاً تفقدوها منذ أكثر من خمسة قرون ، فارتاح إلى ماسمعه عن المسيحية ، فهفت إليها نفسه وتفتح لها قلبه وعقله ، واعتنقها على يديه ، ليصير بعد ذلك خليفته ومعلم أوريجانوس . ويبدو أن بنتينوس الذى استطاع أن يخضع له عقل وقلب (اكليمنضس) كان مبشراً من الطراز الأول ، والرائد الأول لأولئك المبشرين الذين يجوبون مجاهل العالم لنشر كلمة الخلاص ، إذ يذكر لنا التاريخ أنه قام برحلة تبشيرية إلى بلاد العرب والهند حيث عثر على جماعات مسيحية ، أوصل إليهم كلمة الخلاص القديس برتلماوس ، وأحضر

معه من هناك النسخة الآرامية من أنجيل متى ، وهى اللغة التى كتب بها أنجيله أصلا . كما كان أحد العمد الذين وضعوا الأحرف الجديدة للغة القبطية . تسلم اكليمنضس منه مقاليد العبادة حوالى عام ٢٠٠ بعد أن رسم كاهناً بدون أبرشية ، بعد أن اشتهر بكتاباته الغزيرة التى نستشف منها كيف كان مخلصاً فى مسيحيته ، عميقاً فى فهمه إياها وفى إيمانه بها ، وإنا لنتبين فيها أيضاً إلمامه التام بقوانين الكنيسة وعقائدها ، وكذلك إطلاعه الغزير على الكتب المقدسة ، التى كان يكثر الاستشهاد بها . وهى وإن كانت تتناول مواضيع عدة ، إلا أنها كانت تتناول بوجه عام السلوك المسيحى ، الذى كان هدفه فى تعاليمه .

كان اكليمنضس رجلا كبير القلب واسع الفكر عظيم النفس ، وكان له كتابات كثيرة ولكنا لا نعرف عددها .

بدأ بكتابه (نداء إلى الأغريق) وفيه يدعو الوثنيين إلى إعتناق المسيحية ، ويتدرج بالقارىء أو السامع المأخوذ بجزالة العبارة وقوة العارضة ، حتى يهيئه للنور الحقيقى المنبعث من الحياة المسيحية . ويقدم لنا بعد ذلك كتابه (المربى) الذى يصور فيه المسيح الكلمة كدليل ومرشد لنا فى حياتنا اليومية ، وهو يخاطب فيه بالأخص الطبقة الموسرة ، والذين نالوا قسطاً وافراً من العلم ، من أهالى البلاد ، وهو لا ينصحهم فيه بترك ثرواتهم والزهد فيها ، ولكنه ينبههم إلى أنه يوجد هناك أشياء أسمى وأنبل من مجرد الإستمتاع بها ، وهو أيضاً يبدو فى هذا الكتاب ، كما يبدو فى رسالته المعنونة (من هو الغنى الذى يخلص) متأثراً بتعاليم معلمه بنتينوس . وأخيراً ففى مواضيعه المختلفه التى طرقها فى كتابه (المتفرقات) ، يبين لنا مثله الأعلى ، فى ذلك الرجل الذى يصل إلى الحكمة فى أسمى مراتبها ، بواسطة الايمان والمحبة التى تطهر النفس .

هذه المؤلفات وأمثالها من فلاسفة ذاك الوقت ، إنما كانت نوعاً من (الجهاد) ضد المبادىء الوثنية التى كانت متغلغلة فى الحياة ، كما كانت تعبيراً عن الإيمان الذى قبلوه وفهموه .

وإن أهم ما يتميز به تاريخ اكليمنضس الاسكندرى ، هو مجهوده الذى فاق مجهود من سبقه من مفكرى المسيحية ، فى أن يبرهن أن المسيحية تثبت أمام التمحيص الفكرى ، وأنها لا تقل فى ذلك عن أى علم آخر ، وكان يرى أن استعمال الفلسفة وسيلة ضرورية لذلك ، وفى ذلك يقول : « ان ما أسميه فلسفة ليست هى الرواقية أو الإفلاطونية أو الإبيقورية أو الأرسططالية ، وانما هى مجموع ما تحويه هذه المذاهب من الحسن فى تعاليمها عن العدل والحق» وهو من هذه الناحية يقطع مرحلة ذات أثر طيب ، إلا أن نظريته لم تأخذ فى حسابها مايجب أن يلحظه المفكر المسيحى من بعض القصور فى العقل البشرى.

وعندما عصفت الإضطهادات فى وقت ما بمدرسته ، هاجر إلى كبادوكيا حيث كان يقيم أحد تلاميذه القدماء ، وتوفى عام ٢١٦ م .

ولقد كان اكليمنضس يهدف إلى أن يتوج كتاباته بمؤلف يستعرض فيه بطريقة مرتبة ومتناسقة ، المبادىء الأساسية للمعرفة الإلهية ، إلا أن قوة تفكيره قصرت عن بلوغ ذلك الهدف ، لضعف القوة البنائية فيه ، وهكذا قصر عقله عن أن يبلغ إلى مستوى قلبه . هذا الهدف الذى قصرت الطاقة الفكرية لاكليمنضس عن الوصول اليه ، بلغه تلميذه وخليفته اوريجانوس .

اوريجانوس

شخصية قوية جذابة ، وروح تتأجج حمية ، وتفكير لا يعرف له حدا يقف عنده ! شاب قبطى تعبر ملامحه ونظراته عن تفكير سليم وحماس وحيوية . قصد مدرسة الاسكندرية منذ سن مبكر ، حيث تتلمذ على اكليمنضس الاسكندرى . وعندما شتت سبتيموس ساويرس أساتذتها وطلبتها إبان الاضطهاد الأول عام ٢٠٢م كان يبلغ نحو السابعة عشرة . وتمتد يد الاضطهاد إلى أسرة اوريجانوس ، فيساق والده ليونيداس إلى ميدان الاستشهاد ، ويتحرق الابن شوقا ليشارك مصير من أرضعه فى مهده مبادىء المسيحية ،

ولكن يحول دون ذلك المجهود الجبار الذى بذلته والدته لتثنيه عن عزمه، فيكتب إلى والده رسائل تفيض إيمانا وحماسة، يثبت بها عزيمته، يقول فى أحدها «لا تتراجع ولا تضعف أبدا بسببنا!».

وفى الثامنة عشرة أصبح اوريجانوس رب عائلة، إذ ترك له أبوه ستة أخوة كان عليه أن يربيهم وأن يقوم بأودهم، فنزل إلى ميدان العمل. لقد وعى الكثير من المعرفة واختزن فى صدرة علما مستفيضا، فاجتمع التلاميذ حول هذا المعلم اليافع، وعهد اليه الانبا ديمتريوس الكرام بإدارة المدرسة اللاهوتية، فكان اعترافا رسميا بعلمه وعبقريته فى تلك السن المبكرة إذ لم يكن قد تجاوز الثامنة عشرة من عمره. وفى هذا المنصب الخطير عرفه العالم كأحد أبطال المسيحية المدافعين عنها، كما عرفه كمعلم لها يقصده المسيحيون وغير المسيحيين على حد سواء، وكان يجذب الأخيرين اليه تلك اللذة الفكرية التى يتمتعون بها عند سماعه، ولكن سرعان ما كانت تتفتح قلوبهم لنور الإيمان فيغمرها وينضموا إلى أحضان الكنيسة. وأما أصحاب البدع والهرطقات فقد وجدوا فيه معلما قديرا كفيلا بردهم إلى جادة الصواب.

ولكنه كان قد بلغ فى حياته الفكرية درجة لا يسهل معها أن يقنع بذلك النصر الذى لم يكلفه مجهودا كبيرا. لقد كان يطمح أن يحصل من العلم والمعرفة - وهو المسيحى - على قدر يجعله فى مستوى الفلاسفة الوثنيين الذين كانت اسماؤهم تلمع فى سماء الاسكندرية، فتتلمذ للفيلسوف الوثنى امونيوس السقاس الذى كان يعلم الإفلاطونية الجديدة. وتزدهر على يديه مدرسة الاسكندرية فيدخل فيها الرياضة والفلك والطبيعة والموسيقى وتتقدم كثيرا عما كانت عليه أيام اكليمنضس، بل صارت هى الأخرى تطاول المدرسة الوثنية.

تثير فينا حياة ذلك العبقرى الموهوب مزيجا من الإعجاب والشفقة - شعور جياش ونشاط خصيب متعدد النواحى، بينما الموت يتهدده. كان

يصاحب أصدقاءه وتلاميذه حافى القدمين إلى حيث يعذبون فى ساحة « الامفيتياتر » ، ليقبلهم قبلة السلام الأخيرة ، بينما الوثنيون يرقبونه بعين التهديد والوعيد . ولكن كيف يبالى بالموت وهو الذى وهب حياته لخدمة المسيح ، وكان يشعر بقوته تشد من أزره . وإذا كان اوريجانوس قد فاته شرف الاستشهاد هنا أيضاً ، فقد عوض ذلك باتباعه نظاما نسكيا صارما فى معيشته ، إذ كان ينام على الأرض ، ويمشى حافى القدمين ، ولا يأكل اللحم أو يمس الخمر ، ولا يتملك أكثر من جلباب واحد ، ويقنع بالضرورى ليقيم به أود الحياة ، فصارت قوته الروحية معادلة لقوته الفكرية . هذه الحياة النسكية ، التى جذبت اليها الكثير من تلاميذه ، إنما كانت بمثابة المثل الذى سيتبعه النساك فى الصحارى . بل ذهب إلى أبعد من ذلك ، فلأجل أن يقطع ألسنة المتخرصين ، الذين يتغامزون عليه كلما رأوا تلميذات جميلات فى حلقات دروسه ، طبق حرفيا على نفسه تلك الآية الانجيلية التى تقول « هناك أناس خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات » ، معطيا بذلك برهانا قاطعا ، على حياة الطهر المثلى التى وهب نفسه لها .

هذا الحماس الذى تبيناه فى حياته الروحية ، يتجلى لنا أيضا بوضوح أشد فى حياته الفكرية ، فيمعن فى شغف فى دراسة كل ما يتعلق بالحياة الأبدية ، ويتخذ من الكتب المقدسة أساسا لذلك ، وينكب على تفسيرها ، ومقارنة الترجمات المختلفة لها ، وتصحيح وتوضيح ما يحتاج منها إلى ذلك . وقد نتج عن هذه الدراسة كتابه الضخم (الهكسبلا) أى ذو الستة الأعمدة ، وهو عبارة عن عمود يحوى النص العبرى للعهد القديم ، يقابله عامود آخر يحوى نفس النص بترجمة يونانية ، ثم الترجمة السبعينية ، ثم ترجمة اكويلا ، ثم ترجمة سيماخوس ، وأخيراً ترجمة تاودوسبوس . ويأخذ بعد ذلك فى كتابة كتب مختلفة شرحا وتعليقا ، نتبين فيها المعلم اللاهوتى والفيلسوف والمفسر والمعلم الاخلاقى ، والقانونى بل والشاعر الموسيقى ـ ذهنا جبارا استوعب كل شىء .

ويتبعه جيش من الكتاب والناقلين يعملون على نقل ميـــاه ذلك النبع الذى لا ينضب معينه وتوزيعه . ويذهب البعض إلى أن ذلك الفكر الجبار قد انتج لنا ستة آلاف مجلدا ، وأكثر التقديرات تواضعا تحددها بثمانمائة . وهو فى أثناء ذلك يعمل أيضاً بمثابة المعلم المتجول لمدرسة الاسكندرية وللكنيسة المصرية ، فيسافر إلى روما ليصحح الكثير من البدع ، ثم إلى قيصرية فلسطين ، وسوريا وبلاد العرب ، حيث استدعته (جوليا ماميا) والدة الامبراطور اسكندر ساويرس لتستأنس بآرائه وأفكاره . ويسافر أيضا إلى أخائيـــة ليقضى على الهرطقات التى نبتت هناك . هذا علاوة على الرسائل التى كان يبعث بها هنا وهناك ، فهو رجل عالمى ، عرفه العالم أجمع .

هل اثارت هذه الشهرة ياترى عاصفة من الحقد عليه ؟ أم أنه استجلب على نفسه غضب أولى الأمر عندما خصى نفسه ؟ أم أن حماسته فى أفكاره وعدم التبصر فى بعضها جلبا عليه امتعاض الكنيسة ؟ على كل حال فإننا نتبين أنه كف عن نشاطه فى الاسكندرية حوالى عام ٢٣٠م. وأراد صديقاه تيوسستوس والكسندروس اسقف أورشليم أن يبالغـــا فى تكريم (أستاذ الأساقفة وأمير شراح الكتب المقدسة) فرقياه إلى رتبة الكهنوت . ولكن الأنبا ديمتريوس اسقف الاسكندرية عقد مجمعا عزله فيه من رتبة الكهنوت التى لا يصلح لها لأنه خصى نفسه . وأقام أوريجانوس فى قيصرية فلسطين حيث استأنف نشاطه ، فعقد حلقات للدرس أمها الكثيرون من طلاب التزود بعلم اللاهوت ، ودخل المسيحية الكثيرون على يديه ، ومنهم غريغوريوس صانع العجائب وأخوه اثينودور ، ولكن الشيخوخة كانت قد دبت اليه بفعل عاملى القساوة على جسده والمجهود الفكرى المتواصل . وفى عام ٢٥٠م سجن وعذب لمدة طويلة ثم أخلى سبيله بعد أن وصل إلى حالة صحية أشرف معها على الهلاك وبعد ذلك بنحو سنتين أو ثلاثة قصد مدينة صور حيث انطفأ ذلك القبس الذى أضاء على العالم المسيحى أجمع ، مؤمنا ، مجاهدا ، فقيرا ، بالغا من العمر

نحو السبعين .

لم يصل إلينا مما صنفه أوريجانوس ، رغماً عن ضخامته وتعدد مواضيعه ، سوى اكوام من الحطام ، على هيئة مقتطفات وشذرات مشكوك فى أمرها ، إذ اختفت مؤلفاته بأجمعها . وحتى تلك التى وصلت إلينا ، فإن أجزاء كبيرة منها تعتبر فى حكم العدم ، إذ الأدلة التى تنسبها إليه ضعيفة والأسانيد مشكوك فيها . على أنها كانت تدور كلها - إذا أمكن أن يكون لمثل تلك المؤلفات العديدة المختلفة محور واحد - حول محور علم اللاهوت .

لقد عبر أوريجانوس نفسه عن الهدف الأساسى الذى وضعه نصب عينيه فى كتاباته وتعاليمه ، وهو أنه « لا يكفى نوع من الأيمان تتداوله العامة فقط ولا يسنده العقل » ، فى مدينة مثل الأسكندرية ، تتصارع فيها اليونانية واليهودية والغنسطية والمسيحية ، كل منها يروم أن يفرض على الناس سر ذلك العلم العلوى الذى يفوق إدراكهم ، وكل منها يدعى ملكيته لهذا السر .

لقد أحس اكليمنضس بالحاجة إلى القيام بمجهود فكرى جبار فى سبيل نشر المسيحية ، ولكن بينما كان مجهود مفكرى المسيحية مقتصراً على شرح أسس إيمانهم بواسطة الفلسفة اليونانية ، ذهب أوريجانوس إلى أبعد من ذلك ، إذ أراد أن يؤلف تآلفاً مسيحياً حقيقيا ، بين الحقائق الإلهية وبين المعرفة التى اكتسبها العقل ، مستنداً فى ذلك استناداً قوياً على الكتب المقدسة ، وتقليد الكنيسة من ناحية ، ومسلحاً بالوسائل الفلسفية من ناحية أخرى ، مظهراً بذلك للمرة الأولى فى التاريخ علم اللاهوت ، كعلم قائم بذاته ، يستند على حقائق الإيمان ، وإنما يستخدم العقل فى الوصول إلى النتائج ، مما يتيح للنفوس التى تبحث عن الله أن تصل إليه عن طريق المسيح . ولكن هذا النوع من التفكير قاده إلى إدخال الكثير من الإفلاطونية الجديدة ، وهى الفلسفة التى ملكت عليه تفكيره ، فى المسيحية ، مما يؤخذ عليه بحق ، حتى أن أحد معارضيه من أئمة ذلك المذهب الفلسفى قال عنه : (كان يعيش كمسيحى وإنما كان يفكر

كيونانى » . حقاً لم يوجه إليه أى نقـــد فى معيشته كمسيحى ، مما دعا القديس غريغوريوس صانع العجائب والقديس اسكندر أسقف أورشليم إلى أن يكونا من أشـد مؤيديه . وقد أساء إليـه كل الإسـاءة بعض تلاميذه المتعصبين فى الأجيال اللاحقة ، عندما أخذوا بعض آرائه فجسموها وأضافوا إليها ونسبوها جميعا إليه . وعندما أطلت الأريوسية بقرنيها ، وهى تنسب نفسها إليه ، رأى البابا القديس بطرس وهو خاتم الشهداء وأحد كبار معلمى الكنيسة ، رأى بحق ، أن الوقت قد حان للقيـام بمجهود جبـار لتخليص المسيحية من أية شبهـة من الفلسفة الإفلاطونية ، فـكتب فى ذلك المؤلفات ، وقد ذهب هذا البطريرك فى سبيل تطهير المسيحية من الأفكار الدخيلة إلى حد إصـدار حروم بأن «كل ما يأتى عن طريق الفلسفة اليونانية إنما هو غريب عن أولئـك الذين يريدون أن يعيشوا فى المسيح فى تقى وورع » .

لقد كانت خطوة حاسمة لابد منها ، ولو أن الأجيـال بعـده لم تكف عن قراءة مؤلفات أوريجانوس أومهاجمة تعاليمه بين الآونة والأخرى . ومهما كان من أمر هذه المناقشات الحامية الوطيس وهـذا التضـارب فى الأفكار ، فإنهما دليل آخر على ذلك النضوج الفكرى الذى كانت تتمتع به المسيحية فى مصر فى ذاك الوقت . وأما مدرسة الأسكندرية فقد ظلت تؤدى مهمتها وقتاً طويلا بعد أوريجانوس .

هذا المعلم سجل خطوة إلى الأمام فى نضوج الفـكر المسيحى . وقد اشتغل من جاء بعده من فلاسفة الأسكندرية وانطـاكية وروما وغيرها من البلدان بفحص دراساته فى الـكتب المقدسة ونقوها من شوائب الإفلاطونية الجديدة وغيرها من المذاهب اليونانية مما مكنهم بعد ذلك من الإقتباس منها ليؤكدوا حقيقـة حياة المخلص فى الجســـد ، التى بواسطتها نلنـا الخلاص . ويمكننـا أن نعتبر أوريجانوس بمثابة الملهم لهم جميعاً ، كما يمكننا أن نعتبره بمثابة تجربة للبعض الآخر وحجر عثرة ارتطموا بها .

ويمكننا أن نجمع أوجه نشاطه المتعددة تحت أربعـــة عناوين ضخمة : (أولا) مؤلفات تتعلق بدراسة وتفاسير الكتب المقدسة ، وقد ذهب فيها شوطاً بعيدا فى التفسير الرمزى لما جاء بها . (ثانيا) كتب لاهوتية أهمها كتاب « المبادىء » الذى شرح فيه فلسفة الديانة المسيحية ، ورغماً عن أنه لم يصل إلينا منه إلا النسخة اللاتينية ، وهى نسخة حصل فيها الكثير من التصحيح والتنقيح ، إلا أننا نستطيع أن نجزم بأن أوريجانوس لم يأمن فيه الإنحراف من حيث لايدرى . (ثالثاً) مؤلفات فى الأخلاق والروحانيات ، وفى مقدمتها رسائل جديرة بالإعجاب عن « الصلاة » و « الدعوة إلى الاستشهاد » . (رابعاً) سلسلة مؤلفات فى الدفاع عن المسيحية ، وهى تعتبر أتم وأحسن ما كتب فى هذا الموضوع ، إذ تناول فيها كل ما وصمت به المسيحية فى زمنه نقطة نقطة ، وعلى الأخص ما رماها به الفيلسوف الوثنى (سلسوس) الذى كان قد أصدر رسالة ضد المسيحية ينكر فيها الظهور الإلهى والتجسد حوالى عام ١٧٨ م ، فلم يجد من يرد عليه قارعا الحجة بالحجة ، وفى أسلوب فلسفى يضارع أسلوبه ، سوى أوريجانوس بعد نحو سبعين عاما . كان كتاب (الرد على سلسوس) فى ثمانية أجزاء ، أظهر فيه ما فى المسيحية من سمو سواء فى تعاليمها أم فى أخلاق معتنقيها ، أم فى دعوتها الشاملة للجميع « سواء أكانوا من البسطاء أم من العلماء والفلاسفة » ، وكأنه كان يعبر بذلك عن أهم هدف حققته مدرسة الاسكندرية فى نضالها ضد تخرصات الوثنيين ، بل هو يلخص ثمرة جهودها الجبارة . فالدين الذى قام صاحبه يلقى تعاليمه وأحكامه على عامة الشعب بين تلال اليهودية ، ثبت أقدامه بين الطبقة المفكرة فى أعظم مركز ثقافى عالمى فى ذاك الوقت ، فكان بحق دين (البسطاء والحكماء) ، وتولت الأسكندرية إذاعة هذه الحقيقة على العالم أجمع ، الذى تقبلها منها كما يتقبل التلميذ الحقيقة من معلمه !

إذا كانت الكنيسة لاتذكر هذا المجاهد فى صلواتها ، فإنها بلا شك لازالت تحمل بين طيات جنباتها إعجاباً عميقا للرائد الأول لعلماء اللاهوت .

وكان أشهر من جاء بعده فى رآسة المدرسة ديديموس ، الضرير ، أو كما كانوا

يدعونه (النبي البصير)، وذلك عام ٣٤٠م، وقد كان الساعد الأيمن لأثناسيوس الرسولى وصديقاً حميما للقديس أنبا أنطونيوس، وقد أضيف إلى القداس المرقسى فى عهده بعض الأوشيات، ويقال أنه صاحب أوشية الانجيل فى هذا القداس، توفى عام ٣٦٥م بعد أن ترك لنا عدة مؤلفات نفيسة أخصها فى الثالوث الأقدس والروح القدس. وهو صاحب التعبير (إله واحد فى « ثلاثة أقانيم ») ، وقد أخذ عنه اليونانيون لفظ (اقنوم) منذ ذاك الوقت.

هذه الحركة الفكرية التى حملت مصر شعلتها عاليا فى أواخر القرن الثانى، جعلت المسيحية خطرا كاسحا، وبعد أن كان الأباطرة ينظرون اليها على أنها حركات محلية تكفى فى اخمادها القوانين القائمة ووسائل القمع العادية، إذا بهم يواجهون مشكلة عويصة اقتضى حلها نحو المائة والخمسين عاما، وكان عليهم ان يسلكوا أحد طريقين: هل يتفقون معها أم يحاولون القضاء عليها؟ ولم يدروا أن العالم كله كان عند مفترق طريقين أيضا: عالم ولد وكبر وكله أمل، وعالم آخر يشرف على الفناء.

وقد اختاروا المقاومة فكانت تلك القوة الغشوم التى ظهرت بها الدولة الرومانية فى القرن الثالث، بينما كان الفناء يدب فى جسمها والمسيحية تنتشر وتزدهر. ومنذ اللحظة الأولى التى بدأت فيها الدولة الرومانية توجه ضرباتها للمسيحية، إنما وضعت فى يديها بذلك أقوى سلاح لنشر دعوتها، سلاح البطولة المعدية. وكان الشهداء هم المنتصرون الحقيقيون فى هذا النضال الرهيب. كل ذلك كان ملحوظا فى القرن الثالث أكثر من ذى قبل، إذ لم يعد النضال متقطعا، بل كان منظما مستمرا، وكل من الفريقين يعرف تماما أسبابه ودواعيه وهدفه. وإذا كان حماس المبشرين والمحبة التى تعمر قلوب المؤمنين، وفضائل القديسين، وجهود آباء الكنيسة ومعلميها، كل ذلك كان له أثره فى الإعداد لانتصار الصليب، فإن البطولة كان لها فى آخر الحساب الدور الحاسم. لقد دفع الشهداء دماءهم ثمنا لانتصار الانجيل. ولا نستطيع، عندما نقرأ اسماء

بعض هؤلاء الشهداء ، أن نميز شخصية على أخرى ، فى وسط ذلك الجيش العرمرم من الأبطال ، المخضبة جباههم بالدماء ، إذ يستوى الجميع فيما يجب لهم من تكريم واكبار . أما أولئك الذين وصلت الينا اسماؤهم عن طريق مؤلفات يوليوس الاقفهصى والسنكسار ، فهم بمثابة معالم الطريق الذى سلكته المسيحية ، وأما أولئك الذين لم يذكروا أو كانت اسماؤهم مجهولة ، فقد مهدوا ذلك الطريق بأجسامهم . كم كنا نود لو خلد التاريخ لنا اسماءهم جميعا ! ولكن يهون علينا أنهم جميعا يشتركون فى صفات الرغبة فى الاستشهاد والتضحية ، والعزيمة الثابتة ، تزينها فضائل البطولة والإيمان والبساطة ، فإذا ذكر بعضهم فهو بمثابة التعرف عليهم جميعا .

لم يكن الاستشهاد نوع من التهور قام به بعض المتعصبين المتحمسين ، بل كان فكرة أظهر مغزاها ومرماها علماء اللاهوت من فلاسفة مدرسة الاسكندرية ، فيقول عنها اكليمنضس « أنه شهادة أخيرة مبنية على الحب ، يصل بها المؤمن إلى ذروة التمام » ، وهو يشدد بعد ذلك فى أننا لا يجب أن نبحث عنه أو نجرى وراءه ، ولكن يجب أن نرحب به عندما يكتب علينا ، وذلك وفقا لتعاليم السيد له المجد عندما نصح تلاميذه إذا أسيئت معاملتهم فى بلد ما أن يرحلوا عنه إلى غيره ، ويختم اكليمنضس نصيحته فيقول « لنخضع للحيوانات المفترسة ولكن لا نحاول إثارتها » .

وبدأ الاضطهاد الأول المنظم فى عهد الامبراطور سبتيموس ساويرس حوالى عام ٢٠٢ م . وظن المسيحيون انها سحابة صيف لا تلبث ان تنقشع ، ولكن توالت الموجات بعد ذلك ، والمسيحيون يقابلونها بالبطولة والتسليم المستمر ، وتنقل الأباطرة من فشل إلى فشل ، إلى أن أتى ذلك اليوم الذى ركعت فيه القوة الامبراطورية أمام الصليب .

ويخبرنا القديس أوسابيوس القيصرى ، وهو من أوائل الذين كتبوا فى تاريخ الكنيسة ، أن فى فترة واحدة من موجات الإضطهاد العديدة التى

اجتاحت مصر ، استشهد عشرة آلاف رجل غير النساء والأطفال ، ويقول (وأنا الذى كنت هناك - أى فى مصر - فى ذاك الوقت ، رأيت عدداً كبيرا يقتل فى أحد الأيام ، البعض بواسطة السيوف ، والبعض بواسطة النـــار . ورأيت السيوف وقد بلغت حداً أن صارت لا تقطع ، والبعض ينكسر ، بينما الجلادون قد أخذ التعب منهم كل مأخذ ، فكانوا يتبادلون العمل) .

ويكتب القديس ديونيسيوس بابا الأسكندرية الرابع عشر ، عن الاضطهاد الذى شنه الامبراطور ديسيوس حوالى عام ٢٥٠ م فيقول : (أنه كان إضطهادا مريعا كفيلا بزعزعة خيار المسيحيين) . وفى رأى أوريجانوس أنه (كان يهدف إلى القضاء قضاء تاما على اسم المسيح فى كل مكان) ، وقد عثر على بعض أوراق البردى حتى فى قرى مصر السحيقة ، نتبين منها صرامة الأوامر التى كان على الحكام تنفيذها على المسيحيين دون شفقة أو رحمة أو أى استثناء . وكان من يضعف أمام الإرهاب ويبخر للأوثان يعطى شهادة خاصة - وجد منها مالا يقل عن أربعين شهادة - تحميه من أى تعقب له بعد ذلك ، يثبت فيها تاريخ الارتداد وامضاء الحاكم ، ومعلومات وافيـــة عن شخصية المرتد . ويخبرنا أوريجانوس (أن القضاة كانوا يتميزون غيظاً ، إذا تحمل المسيحى أنواع التعذيب المختلفة بشجاعة ، بينما كان سرورهم لا حد له إذا ظفروا بمسيحى واحـــد) .

ونتبين هنا ومضة من وطنية المصريين ترتاح إليها النفس ، ونتيه بها فخراً ، إذ كان فلاحو مصر من الوثنيين الذين كانوا يكرهون المستعمر الرومانى مثلهم فى ذلك مثل المسيحيين ، يخفون المسيحيين الذين يلجأون إليهم هرباً من هذا الإضطهاد الذى استشهد فيه الكثيرون ، البعض بإحراقهم أحياء ، والبعض بأنواع التعذيب التى اشتهر بها عهد نيرون ، وكان قطع الرقاب من نصيب السيدات . وهكذا اختفت أمام الوطنية الفوارق الدينية ووقف الجميع يداً واحدة أمام المستعمر الغاشم . إنا لنلحظ تلك الروح العالية التى بدأ يتمتع

بها الشعب عندما هجم حفنة من الفلاحين ، فى الطريق العام ، على الجند الذين اعتقلوا البابا ديونيسيوس وخلصوه من بين أيديهم .

وفى عام ٢٨٤ م ، شن الأمبراطور دقلديانوس إضطهادا دام حوالى العشرين عاما ، هو فى الحقيقة وواقع الأمر وقفة أخيرة للوطنية أمام قوة المسيحية الجارفة ، قاست فيه مصر الأمرين واستشهد الكثيرون . ولم يجد المصريون وسيلة يخلدون بها ذكرى أبطال هذه المجزرة البشرية أحسن من أن يجعلوا عام ٢٨٤ م بدءا لتقويمهم الوطنى ، وهو المعروف الآن بتاريخ الشهداء .

وما دمنا فى صدد التحدث عما قدمه القبط للعالم المسيحى ، فلا ننس تلك الكتيبة القبطية التى كانت تحت قيادة الضابط القديس موريس ، والتى أرسلت من الصعيد لتعسكر عند منبع نهر الرون ، فى (فاليه) ، وهناك تلقت الأوامر بالذهاب إلى فرنسا لقتل المسيحيين ، فرفض الجميع تنفيذ الأوامر ، وكان جزاؤها أن أبيدت عن آخرها . هذه باقة أقدمها للمبشرين الذين أتونا من فرنسا ، وكان همهم تمزيق ما تبقى من الكنيسه القبطية ، تحت ستار أعمال (المحبة) ، كأننا نعيش فى مجاهل افريقيا ، ولم نسمع بعد عن الأنجيل .

معلم اللاهوت والشهيد والناسك ، هى مظاهر ثلاث لذلك الإيمان الذى تغلغل فى قلوب المصريين ، إذ آمنوا بالمسيحية وتعاليمها كل الإيمان ، واختلطت بدمائهم ، فعملوا على نشرها وإعلاء شأنها بفكرهم وبدمائهم ، ثم بأن يجعلوا من أنفسهم أمثلة للعالم ، للمعيشة وفق تلك التعاليم ، التى قد تبدو لأول وهلة غريبة كل الغرابة ، على عالم قام على صروح الوثنية الفاسدة ، التى كانت ما تزال محتفظة بقوة تأثيرها وبما فيها من إغراء . ولذلك لم يكن غريبا أن نقرأ فى تاريخ الانبا انطونيوس أب الرهبان ، أنه قام وباع ما ورثه عن والده وفرقه على الفقراء بعد أن أعطى لشقيقته نصيبها ، بمجرد سماعه فى الكنيسة فى انجيل القداس ، قول السيد له المجد للشاب الغنى « إن أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء فيكون لك كنز فى السماء ، وتعال اتبعنى » ،

ثم ذهب إلى الصحراء ، فهو هنا يطبق حرفيا تعليما انجيليا يبدو ظاهره لكثيرين مستحيل التنفيذ .

كذلك نقرأ فى تاريخ الأنبا باخوميوس أنه كان جنديا وثنيا ، استلفت انتباهه أعمال المحبة التى بدت من المسيحيين فى اقليم اسنا ، فاعتنق مذهبهم ، وأراد أن يحيا حياة طاهرة نقية وفقا لتعاليم المسيحية ، بعيدا عن جو الوثنية الموبوء ، فذهب إلى الصحراء وتتلمذ على الأنبا بلدون الناسك .

ولكن بعض كتاب الغرب الذين تطوعوا لكتابة تاريخنا ، يعز عليهم أن يسجلوا لنا مآثر ، أو قل أن إدراكهم قصر عن فهم تلك الفلسفة الدينية ، التى نلمسها فى كتابات اكليمنضس وفى سلوك أوريجانوس ، والتى وجدت لها صدى فى نفوس الكثيرين . فكتبوا يرجعون الحركة الرهبانية إلى الهروب من الاضطهادات والضرائب الباهظة التى كان يفرضها الرومان . ومن المؤسف حقا أن بعض من كتبوا من القبط فى تاريخنا أخذوا عنهم هذه التعليلات السخيفة .

وكيف يستقيم هذا القول مع إنشاء تلك الجامعة الشعبية الديمقراطية التى لم نسمع عن مثيل لها فى التاريخ ، والتى حج اليها الكثيرون من جميع انحاء العالم؟ لقد قام هؤلاء النساك يلقنون مبادئهم وتعاليمهم لكل من قصدهم من أى طبقة اجتماعية كان ، ولم يكن يشترط فى تلاميذهم سوى أن يكونوا بسطاء القلب . وكان التعليم علميا وعمليا فى نفس الوقت ، إذ كان هؤلاء المعلمون يلقون إلى التلاميذ بتعاليمهم ، وهم فى نفس الوقت أمثلة حية لها أمام مشاهديهم والمستمعين اليهم . ولقد كان كل ما يصدر عنهم ينم عما فى نفوسهم من قداسة .

ونحن فى أيامنا هذه عندما تهتز أرواحنا طربا وإعجابا أثناء قراءة هذه التعاليم ، ثم نرفع أعيننا ونتجه بها نحو تلك الشخصيات التى صدرت عنها هذه التعاليم ، تتولانا الدهشة وأى دهشة ، إذ عوضا عن أن تقع أعيننا على مثل فلاسفة

مدرسة الاسكندرية الأعلام ، لا نرى إلا جمعاً من النساك أكثرهم من الأميين أو ممن فى حكمهم ليس فى ماضى حياتهم ما يلفت النظر ، بل ليس لأى منهم شخصية مميزة ، أو طابع خاص لأقواله . ومع ذلك فهذه الأقوال المتفرقة التى لاتحمل طابع شخصية خاصة ، أو تنتمى إلى مذهب فلسفى معين ،كان لها ذلك التأثير الواسع المدى والعميق والثابت على الدهر ، ليس فقط على تقاليد وعادات الشعوب المسيحية فى مختلف أرجاء العالم ، بل على المدنية ذاتها ! ومسيحيو اليوم ما زالوا يغترفون — دون أن يعلموا — من ذلك البحر الزاخر العجيب ، ويعبون منه عباً . وتخرج من هذه الجامعة العجيبة كثير من العلماء والفلاسفة .

واننا لعلى يقين تام بأن علماء الأخلاق والأديان حتى فى أيامنا هذه ، التى انتشرت فيها المؤلفات فى علوم الاجتماع والتربية ، ليجدون فى أقوال هؤلاء البسطاء وتعاليمهم ، مادة لا ينضب معينها ، لأى دعوة إلى التقدم والإصلاح ، فى النواحى الروحية والتهذيبيـــة ، بل إن أقوالهم وحكمهم لتتمشى مع أسمى المبادىء التى ننادى بها اليوم . أما أصحاب هذه الحكم والتعاليم ، وهنا عظمتهم ، فجمهرة من الفلاحين المجهولين ، الذين لم يكونوا ليمتازوا عن صيادى الجليل فى علومهم ، ومع ذلك فقد وضعوا فى الحقيقة الأسس والمبادىء الخالدة لكل ما يتعلق بالحياة الروحية !.

لقد كان القديس توما الأكوينى ، وهو من أشهر لاهوتيي الغرب ، يقرأ يومياً بعض صفحات من كتاب (المواعظ) التى جمعها عنهم القديس كاسيان عن زيارته لوادى النطرون فى القرن الرابع ، ثم يقول (انى استمد قوة روحية بهذه القراءة ، التى ترفعنى بسهولة فى تأملاتى نحو السمائيات) .

وكانت هذه التعـاليم تقرأ بصـوت عال فى أديرة البنـدكتين فى القرون الوسطى بل ولا تزال إلى يومنا هذا . هذا التراث الأدبى كان له أعمق الأثر فى نفس كل من لبس مسوح الرهبنة فى العالم .

لقد كانت جامعة الأسكندرية تدرس بجانب اللاهوت ، علوم الفلك والطبيعة والمنطق والرياضة ، ولكن هذه الجامعة استحدثت علوماً جديدة ، وقامت تدرسها للمرة الأولى فى تاريخ العالم ، وهى : ١ - الجهاد المستمر ضد غزوات ابليس وحبائله ، والكشف عن مظاهر هذه الغزوات . ٢ - التجرد أو الفقر الاختيارى ، والوحدة . ٣ - إذلال الجسد . ٤ - التواضع والطاعة . ٥ - الرزانة والحكمة . ٦ - المحبة بأوسع معانيها كما وضع أسسها السيد المسيح له المجد . ٧ - التأمل والصلاة .

هذه علوم تهذب الروح وتشحذ الفكر ، وتخلق من كل من وعاها من سكان الصحارى إنسانا رقيق الشعور ، مرهف الحس ، إلى درجة يصعب على الكثيرين منا تصورها ، ولكن الأمثلة على ذلك لا حصر لها فى تاريخ الرهبنة إلى يومنا هذا .

هذه الحركة الروحية العظيمة ، هى الهبة الثانية التى قدمتها الكنيسة المصرية للمسيحية فى العالم . ومازالت الرهبنة منذ نشأتها فى القرن الثالث إلى الآن ، تلعب دوراً رئيسياً فى تاريخ الكنيسة المسيحية ، وقد تركت عليها طابعا لايمحى ، يستطيع أن يتبين آثاره حتى أولئك الذين لاتهمهم مثل الرهبانية ، كما كان الدير مركزا للثقافة حتى فى أحلك العصور ، ومنه تخرج كثيرون من أنشط وأعظم المبشرين بالمسيحية ، ومن بين سكانه انبعثت تلك الحياة الروحية العميقة التى تعرف (بالصوفية) . وهذه الحركة القوية بكافة مظاهرها إنما ترجع إلى مكان واحد وادى النيل ، مهدها .

حج إلى مصر الكثيرون ليروا أباء البرية ، الذين جعلوا منها أرضاً مقدسة ثانية ، وليأخذوا عنهم ويتتلمذوا عليهم ، نذكر من بينهم مؤسس الرهبنة اليونانية القديس باسيليوس الكبير ، الذى أدخل الرهبنة فى فلسطين ، وهيلاريون ، وروفينوس ومعه ميلانيا ، وقد قضيا ستة أشهر عام ٣٧٣ م ، والقديس إيرونيموس ومعه بولا عام ٣٨٦م ، وبلاديوس أسقف هيلينوبوليس

وقد مكث بين رهبان الصعيد الفترة بين عامى ٣٨٨ و ٣٩٩ م ، ثم رجع لزيارة رهبان وادى النطرون بين عامى ٤٠٦ و ٤١٢ م ، وقد ترك لنا كتابا جمع فيه ما وعاه من أقوالهم وتعاليمهم بعنوان : (*Historia Lausiaca*) ، وهو الذى اصطلح على تسميته بالعربية بستان الرهبان . وجاء أيضاً القديس يوحنا كاسيان بين عامى ٣٩٠ و ٤٠٠ م وقد اقتصر على زيارة وادى النطرون فقط ، سجل هذه الزيارة فى كتابيه (المعاهد) و (المواعظ) . هذه المؤلفات التى احتوت الكثير من أقوال آباء البرية وحوادثهم ، اعتبرت تراثاً أدبياً للرهبنة ، واعتبر ما فيها ، تعاليم للرهبان فى العالم فى كل وقت .

وقد كانت هذه المؤلفات تقرأ بصوت مرتفع فى أديرة البندكتين فى القرون الوسطى ، ولا تزال كذلك إلى يومنا هذا . ولا يزال هذا التراث ذا تأثير عميق على كل من لبس مسوح الرهبنة .

وكما انتشرت المسيحية بسرعة فى مصر ، انتشرت الرهبنة بسرعة فى كثير من البلاد الغربية ، عبر البحر الأبيض المتوسط . ونظراً لعدم وجود صحارى فى تلك البلاد ، فقد اتخذوا من الجزر الصغيرة بديلا عنها لعزلتها فأنشىء دير فى جزيزة ليرين (*Lerins*) عام ٤٠٠ م ما لبث أن أصبح مركزاً رهبانياً عظيما ، وكان فى قوانينه وإدارته طبقاً للنموذج المصرى ، وقد تعلم هناك وترهبن القديس باتريك شفيع إيرلندا ، وما زالوا فى إيرلندا يطلقون على المكان المقام فيه دير (*Desert*) أى صحراء ، مع عدم وجود صحارى هناك ، ونظراً لأن الرهبان المصريين كانوا قد وصلوا فى رحلاتهم التبشيرية إلى ارلندا شمالا ، فقد كانت الكنيسة هناك متصلة اتصالا مباشراً بأديرة مصر ، ويوجد بالمكتبة الوطنية فى باريس دليل للرهبان الأرلنديين الذين يقصدون مصر لزيارة (آباء البرية) ، وحتى عام ١٣٢٠ م كانت تحج إلى مصر أفواج منهم وقد تركوا وصفاً لزيارتهم .

وقد أسس الحياة الديرية ، ووضع لها انظمتهـــا القديس باخوميوس (٢٩٢ - ٣٤٦ م) ، عندما أسس أول دير له فى طبنيس بجوار قنا . إذ جمع رهبانه داخل سور ، فى طاعة تامة لرئيس ينتخبونه . وكانت قوانينه التى تختص بدخول الراهب إلى الدير ، وملابسه ، وطريقة معيشته ، وما يقوم به من عمل ، وحياته الروحية من صوم وصلاة ، هى الأصل التى أخذت عنها جميع الرهبانيات فى العالم إلى يومنا هذا . وكان أظهر ما فى هذه القوانين الأهمية التى أعطتهـــا لوجوب قيام الراهب بعمل يدوى ، ولتلاوة المزامير يوميا .

والانبا باخوميوس قائد مثالى فريد فى طرازه ، والقيادة من أهم صفات أباء الرهبنة القبطية المميزة لهم ، التى تضفى صبغتها على كل ما خلفوه لنا من أثار أدبية . وفضلا عن سبقهم فى هـذا الميدان ، فإنها معجزتهم الكبرى التى نقف أمامها مشدوهين .

ورغما عن تعاليمهم الروحية وحبنا لهم ، فاننا لا نضع أباء البرية فى عداد معلمى الكنيسة ولاهوتييها ، أولئك الذين قد لا يعنى البعض نظرياتهم وفروضهم ، وحتى فى القداس الإلهى فإن الشماس ينتظمهم جميعا فى باقة خاصة يضعها على مذبح الرب ، يبدأها (بالعظيم أنبا انطونى) .

والحق أن أباء البرية طراز خاص ، أبدعوا ، أو على الأقل نظموا وشيدوا ، كما لم يفعل أحد قبلهم ، ولم يتركوا مجالا لمستزيد بعدهم ، ما يعتبر فى الحقيقة فن الفنون أو « ذلك الفن العلوى ، شفاء النفوس من أمراضها الروحية » كما يعبر عنه كاسيان ، والذى نود أن نعبر عنه فى كلمة واحدة : قيادة النفوس .

وإذا كان القارىء يجد فى ما نقوله شيئا من المبالغة ، فإنى أسوق إليه أقوال بعض علماء اتصفوا بالرزانة والاعتدال ، أمثـــال الأب روسولو *(Rousselot)* ، الذى يقول « إن الذين يلمون بتعاليم الكنيسة الكاثوليكية فى النسك ، كما تلقنه فى أيامنا هذه ، ويقارنونها بتعاليم الصحراء ، ليعجبون أشد

العجب ، لذلك التماثل التام الذى يكاد أن يكون حرفياً فى معظم الأحيان فى الحالين . ومما لا شك فيه أن ذلك ليس نتيجة للصدفة المحضة ، ولكن للتأثير المباشر : فمعلمو الحياة الروحية الحديثون تكونوا فى مدرسة الرهبان الأولين . وكم يكون هذا التماثل ملحوظاً أكثر ، لو لم يكن أباء البرية أكثر رقة فى الشعور وأوسع أفقاً » ، بل نقول نحن لو لم يكن نصيبهم ، عندما حل عليهم الروح القدس مرة ثانية ، عبقرية القيادة والتوجيه .

ولأقدم أيضاً بعض الأقوال الممتعة ، لأسقف من رهبان البندكتين يدعى منسليور « أولاثورن » "Ullathorne" ، فهو يقول : « إن الأقوال التى تنم عن حكمة عميقة وعن تجارب ، والتى فاه بها الرهبان المصريون وسجلتها أقلام جديرة بالاحترام ، قد أضاءت الطريق للمسيحيين إلى يومنا هذا . لقد قام هؤلاء الأباء فى وحدتهم بمهمة كبيرة ، ليس فقط بصلاتهم لأجل احتياجات العالم ، ولكن أيضاً بنشرهم رسالة تعليمية وتهذيبية شاملة لجميع الأجيال المتلاحقة . إن المؤلفات الروحية التى ينهل منها جميع الرهبان ، إنما تتوهج بضوء حكمتهم ، كما أن دساتير العبادة التى توجه النفوس التقية فى العالم إلى يومنا هذا ، تزين صفحاتها حكمهم المتناثرة فيها . وإن آلاف وآلاف السيدات التقيات ، اللواتى يعملن بنشاط فى الجمعيات والهيئات ، ويتحملن الكثير من المشاق فى سبيل الله والفقراء ، انما أخذن الإلهام والتوجيه من أولئك الأباء الذين كانوا يتأملون ويتعبدون فى الصحارى » .

ويقول روم بتلر — ناشر كتاب بلاديوس — عن العظتين المذكورتين فى كتاب كاسيان واللتين تعتبران المصدر الرئيسى لكل ما يتعلق بالروحيات فى قوانين القديس بندكت « فى هاتين العظتين العجيبتين ... نرى نظرية الصلاة وممارستها ناميتين فى غزارة وسمو وبطريقة عملية ، مما لا مثيل له » .

ماذا أقول بعد ذلك عن تأثيرنا الروحى على العالم المسيحى وما يدين لنا

به ، أنهم لم يتركوا زيادة لمستزيد .

وفى الرهبنة القبطية نتبين بوضوح يقظة الوعى القومى المصرى ، التى صاحبت دخول المسيحية مصر . لقد كان أباء البرية من صميم أبناء البلاد ، وكانوا يرون أن حب الوطن من الإيمان ، ولذلك برز من صفوفهم زعماء آلوا على أنفسهم أن ينفخوا فى روح اخوانهم ، وأن ينموا ذلك الوعى ، ولعل أبرز مثال لذلك الأنبا شنوده ، ذلك الرجل العظيم الذى كرس حياته لمكافحة الفساد الوثنى والبيزنطى فى شتى صوره وأشكاله ، وحرم على الأجانب جميعا الالتحاق بديره المعروف بالدير الأبيض ، وعمل على تنقية اللغة القبطية من التأثيرات البيزنطية ، وترك لنا من الرسائل ما يعتبر تراثا أدبيا ثمينا وكان الرهبان وعلى رأسهم الأنبا انطونيوس سندا قويا للقديس أثناسيوس ضد أباطرة الرومان . وعندما حدث الخلاف عقب مجمع خلقيدونيه (٤٥١م) ، اشتد الاستبداد البيزنطى ، واضطر البطريرك قبيل الفتح العربى إلى ترك كرسيه فى الاسكندرية ، واستقر ضيفا على رهبان وادى النطرون ، وكان من هناك يشرف على شئون الكنيسه ويدير أعمالها . وفى أديرة وادى النطرون صب القداس القبطى فى قالبه النهائى .

لم تكن الأديرة بمثابة ملاجىء أو تكايا للعاطلين والكسالى ، إذ تحتم قوانين الشركة على الجميع العمل والأكل من ثمرة عمل الأيدى ، فاشترك الرهبان فى نشر العلوم والآداب ، ونقرأ فى كتب التاريخ عن أمثال الراهب السكندرى قزمان الملقب (بالرحالة الهندى) لرحلة قام بها إلى تلك البلاد ، أنه كون بين عامى ٥٣٤ ، ٥٤٧ م (طبوغرافية عامة) ، ومؤلفات جغرافية أخرى ، وقد ضاعت جميعا للأسف الشديد . وللرهبنة عامة يرجع الفضل فى حفظ العلوم وفى توجيه المدنية وبناء الحضارة المسيحية فى العصور الوسطى .

وقد عرفت الكنيسة المصرية للرهبنة فضلها وجهادها ، فنالت كل حماية وتقدير من بطاركتها منذ القرن الرابع ، وبدأ اثناسيوس الرسولى فانتقى بعض

أساقفته من بين سكان الأديرة ، ومنذ القرن السادس والغالبية العظمى من البطاركة من الرهبان ، وقد أصبح ذلك مع مرور الزمن تقليد واجب الاتباع فى الكنيسة .

* * *

كان بطريرك الاسكندرية رئيسا روحيا عالميا وزعيما وطنيا فى نفس الوقت ، وكان المهيمن على جميع هذه الحركات العلمية والفكرية ، يوجهها ويغذيها ، وقد أهله لذلك مركزه كخليفة القديس مرقس الانجيلى كاروز الديار المصرية ، وقدره العلمى إذ كان عادة من علماء مدرسة الاسكندرية اللاهوتية ، ودرجته الاجتماعية . إذ كان ينتقى من أحسن الأوساط المدنية الاجتماعية . وقد أدى بطاركتنا المسيحية أعمالا جليلة خالدة ، لم يستطع أحد إلى اليوم أن ينتقص من قدرها أو أن يقلل من شأنها .

وإنا إذا أردنا مثلا أن نعرف تاريخ الكنيسة فى القرن الرابع ، من حيث شئونها اللاهوتية وأحوالها الداخلية الخاصة ، فإنا نجده ممثلا فى حياة القديس أثناسيوس بل إن ذلك القرن ينسب اليه ، فيقال عصر أثناسيوس . إذ أن تاريخ البابا العشرين للكنيسة المصرية يطبع فى أذهاننا ويمثل أمام أعيننا صوراً بارزة حقيقية لحوادث ومنازعات ذلك العصر ، مما لا نجد شبيها له فى ترجمة أخرى من تراجم أبطال الكنيسة ، نظراً لاتساع نطاقه وكثرة الحوادث المرتبطة به ، مما جعل له أثراً خالداً فى حياة الكنيسة شرقية كانت أم غربية إلى يومنا هذا ، لم ينكره عصر من العصور ، ولم يجحد فضله شعب من الشعوب التى قبلت نور المسيحية .

ولسنا هنا فى مجال سرد هذا التاريخ بالتفصيل ، إذ قد أسهبنا فى ذلك فى كتاب (صور من تاريخ القبط) ، وإنما نود أن ننتهز الفرصة هنا لنؤكد بعض نقط خاصة فى تاريخه تكون بمثابة معالم الطريق لمن يريد أن يتوسع فى دراسته .

كثر التساؤل والنقاش على جنسيته ، هل كان مصريا أم يونانيا ؟ أننا نعرف أنه كان يكتب ويتكلم باليونانية وكذلك بالقبطية ، ولكن ما وصل الينا من وصف شعره ـ والشعر ولونه يساعد كثيراً على معرفة أصل الشخص ـ بأن كان له لحية قصيرة متصلة بشاربين كبيرين ، كما كان شعره خفيفاً اسمر اللون ضارباً إلى الحمرة ، يجعلنا نرجح كثيراً بأنه كان من أصل مصرى صميم ، كما تشبه هذه الأوصاف أيضاً شعر المومياءات المصرية المحنطة . وأما أن اسمه يونانى ، فإننا جميعا نعرف أن أب الرهبان القديس (انطونيوس) ذو اسم يونانى بحت ، مع أن لا مشاحة فى كونه قبطى صميم .

رسمه البابا اسكندر رئيس شمامسة له ، وقد استصحبه البطريرك وهو بهذه الرتبة عند ذهابه إلى مجمع نيقية . وقد ابلى اثناسيوس على صغر مرتبته الكهنوتية بلاء حسنا فى ذلك المجمع ، وناضل عن الارثوذكسية بحدة وشدة أغارت صدور معارضيه كما توجته باعجاب كل سامعيه .

وعندما تولى البطريركية بعد وفاة البابا اسكندر ، كان كرسى الاسكندرية ينظر اليه كأسمى مركز للكنيسة فى العالم . وكانت كنيسة الاسكندرية المركز الأعظم الوحيد للعلوم المسيحية ، وكان الجالس على عرشها الرسولى يدعى (بابا) أى (أب الآباء) ولم يكن يكنى فى ذاك العصر بهذه الكنية غيره من الأساقفة أصحاب الكراسى الرسولية .

وأصبح البطريرك الاسكندرى بعد مجمع نيقية « قاضى المسيحية فى كل العالم » تطاع أحكامه فى جميع انحاء العالم المسيحى فى كل الامور العلمية سواء أكانت دينية أم دينوية ، حتى قال غريغوريوس النازينزى « أن رأس كنيسة الاسكندرية هو رأس العالم » . وكانت كل أسقفية تابعة لمصر تخضع للبطريرك الاسكندرى خضوعا لم تبلغه أى سلطة كنسية أخرى فى الغرب .

أما فى المسائل المدنية فقد كان مركز رئيس كنيسة الاسكندرية مركز

أمير ذى سلطان وبأس ، ويذكر لنا المؤرخ جبون (Gibbon) « أن بطريرك الاسكندرية ، وهو على بعد من بطانة الامبراطورية وعلى رأس عاصمة كبرى، تمكن تدريجياً من اغتصاب مركز وسلطة قاض مدنى ... وأصبح حكام القطر المصرى ومديروه الرسميون ترهبهم وتثيرهم تلك السلطة الامبراطورية معنى ، التى كانت لأولئك الرؤساء المسيحيين » ، ونرى من ذلك أن تمثيل أثناسيوس للكنيسة المصرية ، لم يكن مجرد تمثيل بحكم وظيفته الدينية ، ولكنه كان تمثيلا واقعياً فعلياً لاشك فيه . كان أثناسيوس إذن يمثل الشعب الأرثوذكسى الوطنى ، وكان هـذا الشعب فى نفس الوقت شديد التمسك بمذهب وآراء بطريركه المناوىء (للأريوسية) التى كان يناصرها اليونانيون ،تمسكا لم يزده كر الأعوام إلا توثقاً ونمواً . وكان من جراء ذلك الارتباط المتين أن اصبحت سلطة الحكومة الامبراطورية بالقسطنطينية وأنصارها بالأسكندرية مهددة يتحداها بنو الكنيسة القبطية . وقد بلغ الخلاف بين الكنيسة القبطية والامبراطورية الرومانية غايته عندما اجتمع مجمع خلقيدونية ، ونبذ ما كانت تعده الكنيسة المصرية بحق استنتاجا صادقا من مذهب اثناسيوس . وقد لقب الأقباط اتباع ذلك المجمع بالسنوديين أو الملكيين احتقاراً لهم ، كما اختصت الكنيسة المصرية نفسها وكنائس سوريا التىعلى مذهبها بلقب (الأرثوذكسية) أى ذوات الرأى المستقيم .

هذه الرابطة الدينية الوطنية فى آن واحد بين أثناسيوس وشعبه ، ساعدت على جعله عدواً مرهوباً ذا بأس شديد على أعدائه . ولا نستطيع أن نتصور فى التاريخ ملكا يستطيع فى وقت محنته ، أن يثق برعاياه ويعتمد على إخلاصهم ، قدر جزء صغير من ثقة أثناسيوس بولاء بنى كنيسته واعتماده على كتمانهم لسره إذا أراد الاختفاء ، سواء أكان هذا الاختفاء بين الرهبان فى البرارى والقفار ، أو بين أفراد الشعب عندما اختبأ فى قبر أبيه خارج أسوار المدينة .

كان أثناسيوس اكبر علماء الدين فى عصره ، إن لم نقل فى كل العصور ،

وإذا كانت قيمة العلماء الجديرين بالخلود تنمو وتزداد تقديراً بعد موتهم ، فقد تمت شهرة أثناسيوس وأكسبته فيما بعد لقب « الأكبر » بصفة خالدة ، وكان القول المتداول فى القرن السابع (أنك أنى وجدت عبارة من أقوال أثناسيوس ولم تجد ورقة فى الحال فاكتبها على ثيابك) .

وحتى فى الغرب فقد ترك له أثراً أبعد غوراً من أى أثر لأى أب شرقى آخر ، فقد زار روما وتريف بفرنسا ، وتعلم اللاتينية ليخاطب بها اسقف روما ، وعرف أهلها (بالمتوحدين) المصريين وبحياتهم التعبدية ، كما أدخل الرهبانية فى المانيا ، وبلغ من اهتمام أهل الغرب به أن نقلوا رفاته نفسها تدريجاً إلى بلادهم من الأسكندرية إلى القسطنطينية فالبندقية ففرنسا فاسبانيا .

كان لأسلوبه فى الكتابة مكانة خاصة فى نظر علماء الدين فى الغرب ، إلى درجة أن المؤرخين الدينيين استطاعوا أن يميزوا بعض معتقدات ورسائل نسبت إليه فى العصور الوسطى فى أوروبا ويبينوا زيفها . وهو يعتبر بحق حكيم الكنائس الأولى ومفتيها ومؤلف قانون الإيمان المستعمل فى الكنائس الغربية ، بل هو أبو علم اللاهوت كله ومؤسس (الأرثوذكسية) ، وهى مذهب لم يكد يكون معروفاً بمعناه العصرى المألوف قبل عصر أثناسيوس ، وقبل الانتهاء من قانون الإيمان النيقى الذى قام فيه بدور هام .

وإذا كان البعض يرى أن غيرة أثناسيوس على الأرثوذكسية قد جعلته يتعدى حد الاعتدال المسيحى فى القول ، فإنها لم تغوه أو تغره يوماً ما فى حياته على الخروج عن حدود المسيحية فى الفعل ، فلم يشتبك مرة ما فى اضطهاد إلى حيث كان هو الفريسة المقصودة ، أو كان موجهاً إليه لا متوجهاً منه ، فكان موقفه دائماً موقف المدافع لا المهاجم ، ومن حكمه المأثورة عنه (إن واجب الأرثوذكسية هو الإقناع للإيمان لا الإرغام عليه) . ولا يقاس تفوق اثناسيوس بحملاته على (الأريوسية) وغيرها من البدع ، بقدر دفاعه عن الحق شأن كل عالم دينى ، وكان (سر التجسد) نواة أبحاثه اللاهوتية .

طالما اشتهى القديس باسيليوس الكبير أن يحظى برؤية أثناسيوس الذى نصره وأخذ بيده عندما استنجد به فزكاه عند قومه ورعيته ، ولكن حالت الأيام دون تحقيق أمنيته ، فاكتفى من المشاهدة بالمكاتبة ، وكان له عزاء وسلوى أن كتب فى وصف شخصية ذلك الحبر الوقور ممثل العصر الخالى يقول : (لقد كللت السنون هامته باكليل ناصع ..... وعاش منذ الأيام التى سبقت المجمع النيقى حين كان السلام مخيما على ربوع الكنيسة ، حتى هذه الأيام الكاربة التى هبت فيها أعاصير المشاحنات التى لا حد لها .. . هذا هو صموئيل الكنيسة والحكم المبجل بين الجيلين القديم والحديث وواسطة عقدهما ، فهو الطبيب الحاذق القادر على تتبع أقصى ما تئن الكنيسة تحت عبئه من الأدواء وعلى شفائها .... يقف على برجه الشامخ ومرقب حكمته فيحيط بصره بكل ماحوله ويلم بكل ما يجرى فى العالم . يرى المحيط تلتطم موجاته بجنبات سرب من مقلعات الفلك ركبت اليم ، ثم أخذت تضطرب وتنكفىء من جراء أهاويل الماء الجائش خارجها من جهة ، وما يجرى داخلها من جهة أخرى (وهو السبب الأقوى) من تفريط بحارتها ونوتيها وسوء فهمهم وتدابرهم ، ثم تهالك كل من بسفينة على إغراق إخوانه الذين بالأخرى أو الزج بهم إلى جانب غير مأمون .... وإنى أختتم مقالى بهذه الصورة ، فلا حاجة لحكمة أثناسيوس إلى إلى غيرها ، ولا قبل لى تلقاء مصاعب الزمن بالزيادة عليها » .

نرى هنا باسليوس وقد شبه أثناسيوس بمنارة فاروس بالأسكندرية التى هى بلدته ، مشيراً بذلك إلى أنه كان نور هدى يصدر عنها ، بهذه الصورة ختم باسليوس مقالته عن بطل كنيستنا ، ونود نحن أن نختم مقالنا عنه بهذه الصورة أيضاً ، وإنما نود أن نوجه الأنظار إلى أن هذه الصورة ما زالت صحيحة دون أى تغيير فيما يتعلق بتاريخ الكنيسة عامة ، فهو اليوم فى حاضره كما كان بالأمس فى ماضيه وكذا نراه فى مستقبله محمولا على متن ريح زعزع عاتية ، وما زالت الفلك التى ركبت اليم وقتئذ على حالها من الاضطراب والتخبط بين امواج

المشاحنات ، لم يصل بها بحارتها إلى شاطىء الأمان بعد !

وإنه ليكون من سعد العالم المسيحي ومن حسن الطالع ، لو أتاح الله له مرة أخرى مرشداً حكيما يوجه بصره إلى هذا المنظر بينما هو يرصده بعيني عالم مجرب واسع الاطلاع ، أوتى من الحكمة حظاً وفيراً مثل أثناسيوس الأكبر.

وبعد أثناسيوس جاء كيرلس الكبير الذي يلقب (بعامود الدين) ، شاءت له الظروف أيضاً أن يقف وقفة أخرى تتطلب الكثير من الحكمة والشجاعة والثقة بالنفس .... وقف أمام نسطور بطريرك عاصمة الإمبراطورية التي تحكم مصر ! كانت بطريركية حديثة العهد . تلمست مكانها في ظل النفوذ السياسي للامبراطوارية ، وأراد بطاركتها أن يتزعموا المسائل الروحية ، فتخبطوا ، ولم يجدوا من يقف أمامهم في شجاعة لينبههم إلى أنهم تنكبوا الطريق الصحيح سوى بطاركة الاسكندرية ، واستطاع كيرلس في مجمع أفسس عام ٤٣١م أن يقضي على بدعة نسطور الذي أنكر اتحاد الطبيعة الالهية بالطبيعة الانسانية ، ونستطيع أن نتبين أن النضال كان لاهوتياً وسياسياً .

هؤلاء البطاركة كسبوا كرسي الاسكندرية من المجد وعلو الذكر ما جعل البعض يلقبهم (بالبطاركة الفراعنة) ، وزاد من قوة ذلك الكرسي الروحية ما كان يتمتع به من ثراء ، جاءه مما كانت تهبه إياه الدولة وكذلك من النذور والهبات ، وما أن ذهب ديوسقورس ليرأس مجمع أفسس الثاني عام ٤٤٩م ، ليقضي برأى في بدعة أوطاخي ، حتى خوطب بلقب (البطريرك العالمي) *(Patriarche Universel)* ، ولقد رأى كل من أسقفي روما والقسطنطينية أنه أحق بحمل هذا اللقب ، لمكانتها السياسية ، من (بابا المدينة العظمى الاسكندرية) ، وفعلا يحدثنا التاريخ أن هذا اللقب الذي خلع على بابا الاسكندرية ، تنازعه بعد ذلك بقرن ونصف اسقفا روما والقسطنطينية ! وفي الحقيقة وواقع الأمر ، بينما كان نفوذ أساقفة انطاكية والقسطنطينية وروما لا يتميز إلا بقربهم من الامبراطور ، كان نفوذ بابا الاسكندرية ـ تلك المستعمرة الرومانية ـ يمتد على مصر بأكملها

والخمس مدن الغربية وليبيا ، ثم أدى دخول النوبة والحبشة وبعض بلاد العرب مثل نجران فى المسيحية ، إلى أن يخضع لسلطانه الروحى بلاد لا تخضع للنفوذ الرومانى ، وما زال ذلك السلطان يمتد حتى خضع له فى وقت ما قرطاجنة وطرابلس وسائر افريقيا التى كانت معروفة فى ذاك الوقت ! ويدللون على مقدار رعاية بابا الاسكندرية لكرسيه ولرعيته ، أنه بالرغم من رحلات أثناسيوس المستمرة إلى الخارج ، والنفى المتكرر ، والاضطرار إلى الاختفاء بعض الوقت ، فقد وجد من الوقت ما أمكنه فيه أن يتنقل فى انحاء البلاد ، من إبرشية إلى أخرى ، حتى وصل إلى الشلال الأول ، الذى كان يحد سلطته جنوبا فى بداية عهده . هذه الأمانة فى الرعاية التى ذاع صيتها فى العالم زادت العرش المرقسى مجدا فوق ما كان له من أمجاد .

كان البطريرك يعهد فى إدارة أملاك الكنيسة المترامية الأطراف ، إلى من اصطلحنا على تسميتهم فى أيامنا هذه (بالنظار) ، وكان يعين هؤلاء المدبرين ويصدر لهم الأوامر ويدفع مرتباتهم ، ويكون منهم مجلسا للتداول فى الشؤون المالية ، ولعل هذا التدبير من البطريرك كان ليتفرغ هو وأساقفته للشؤون الروحية واللاهوتية ، التى كانوا ينزلونها من نفوسهم المكان الأول .

وكانت أموال الكنيسة تتكون من أراضى وعقارات وهبها الأباطرة أو الأفراد ، ومن نقود وضياع ، وهناك ورقة بردى من القرن السابع تذكر أنها كانت تملك ضياعا شاسعة فى (كامينوى) من إقليم الفيوم ، وكان مستأجرو هذه الضياع يدفعون الإيجار من حاصلاتها وخصوصا القمح ، وكانت كنيسة الاسكندرية تملك اسطولا بحريا تجاريا يزيد على ثلاث عشرة سفينة كبيرة ، للملاحة فى البحر الابيض المتوسط ، وقد عثر على مستند يرجع تاريخه إلى عام ٣٩٠ م وفيه ذكر عن سفينة تملكها (كنيسة الاسكندرية الرسولية) فى ميناء (كيريام) النيلى ، قد تكون إحدى السفن التى تحضر من داخلية البلاد القمح الخاص بالكنيسة . وكان من أثر النضال الوطنى الذى صاحب دخول المسيحية ،

أن اضطرت روما فى القرن الرابع إلى التسليم بحق المصريين فى الملكية ، وتبع ذلك أن تملكت كنيسة الاسكندرية ضيـــاعا شاسعة ، وكانت الأموال فى ازدياد مطرد بفضل العطاءات والنزور ، يضاف إلى ذلك أن كان كل بطريرك يترك عند نياحته كل ما يملك للكنيسة ، كما فعل مثلا كيرلس الكبير ، وبما أن الباباوات كانوا ينتقون من أرقى عائلات المدينة ، فكانت هباتهم مما لا يستهان به . وفى القرن السادس بلغت مالية الكرسى المرقسى من الضخامة ما جعل الامبراطور يعنى بالسؤال عن كيفية إدارتها خوفا عليها من الضياع ، وكانت وظيفة المدبر الأكبر (وزير مالية الكنيسة) من الأهمية بدرجة ان الامبراطور يوستنيان نفسه كان يهتم بمعرفة من يرشح لشغلها .

بدأ تدخل البطاركة فى الشئون المدنية ، عندما عملوا على إقرار العــــدل وإعطاء كل ذى حق حقه ، رافعين بذلك شيئاً من الظلم الذى كان يقع على المصريين والذى اشتهر به العصر البيزنطى ، ويبدو أن الحكام سلموا لهم بهذا الحق لاعتقادهم أن رجال الدين أكثر من العلمانيين تجردوا عن الهوى وعن بعض الميول والنزوات . وكان من حق الأساقفة فى الأقاليم الحكم فى جميع القضايا التى يكون فيها المدعى عليه أحد رجال الكنيسة . وكان للأفراد أيضاً، إذا أرادوا ، أن يرفعوا قضاياهم إلى الأساقفة الذين كان لأحكامهم نفس قوة أحكام القضــــاة المدنيين ، بل كان للأساقفة أيضاً حق الإشراف على الأداة الحكومية فى أبرشياتهم ، مما جعل لهم مركزا يسمو على مركز الحكام ، وكانوا عند اللزوم يلفتون نظر القضاة إذ حادوا عن جادة الحق ، كما كانوا يراقبون أوجه الصرف البلدية ويشتركون فى توزيع التموين على الجيش ، فضلا عن ضرورة الحصول على موافقتهم عند تعيين الموظفين المحليين ، فكان الأسقف بذلك كأحد رجال الحكومة الرسميين ، دون أن تكون له وظيفة محددة ، بينما تمتد سلطته إلى جميع الوظائف . وإذا كان هذا هو حال الأسقف فى إبرشيته فمن السهل أن نتصور ما كانت عليه سلطة خليفة القديس مرقس فى البلاد .

وفى القرن الخامس - أزهى عصور الكنيسة المصرية - بلغ خليفة القديس مرقس من القوة والنفوذ فى الامور المدنية ، ان كانت تخضع له كل قوة حاكمة فى البلاد ، فلم يستطع النائب الامبراطورى أورست أن يقف أمام كيرلس الكبير. وما زال ذلك النفوذ فى تزايد حتى تولى الكرسى الرسولى البابا ديوسقورس ، فكان سيد البلاد المطلق ، وكان يتحدى الامبراطور نفسه قائلا (إن صلتى ببلادى أقوى من صلة الامبراطور بها) . وقد رفض أن يتسلم صورة الامبراطور مركيانوس وزوجته بولخاريا ، عندما ارسلت إلى الاسكندرية لمناسبة توليه الملك . ويؤثر عن ديوسقورس أنه لقب نفسه (بوالى البلاد وحاكمها الشرعى) . وقد وصل الأمر بالبطريرك أن كان يقف حائلا دون تنفيذ أى أمر يتعارض وصالح البلاد الدينى أو السياسى .

كان من الطبيعى أن يثير كل ذلك شيئاً من الغيرة والحسد فى نفوس أساقفة أنطاكية والقسطنطينية وروما ، وكذلك أن يؤلب على بطريرك اسكندرية الإمبراطور وحاشيته . ولذلك ليست بمستغربة بعد ذلك الفكرة القائلة بأن استدعاء القديس ديوسقورس لرئاسة مجمع أفسس الثانى عام ٤٤٩م ، لم تكن إلا حيلة للنيل منه ، ولكيل ضربة فى الصميم لروح الكبرياء المصرية التى كانت قد بلغت أوجها . لم يسأل ديوسقورس ولم يحاكم على عقيدة أو رأى خاص ، ومع ذلك نفى إلى جزيرة جرداء بعيداً عن وطنه حيث ترك إلى أن تنيح . ولذلك لم يكن الشعب المصرى بعيداً عن الصواب ، إذ أعتقد أن مجمع خلقيدونية ، إذا جاز له أن يدين زعيمه الروحى ، فإنما يكون ذلك بإرشاد ابليس لا الروح القدس كما كان الحال فى قرارات مجمع نيقية ، كما اعتبر ذلك الحكم نتيجة لذلك النضال الذى كان يظهر تارة ويختفى أخرى بين كرسى الأسكندرية من ناحية وبين كرسى أنطاكية والقسطنطينية من ناحية أخرى ، وعلى الأخص الكرسى الأخير الذى كان مرتمياً فى أحضان الامبراطور . لقد اتخذ ذلك النضال مظهراً دينيا ، ولكنه كان فى الواقع نهضة مصرية وطنية

قومية عظيمة ، شملت جميع نواحى الحياة السياسية والأدبية والفنية وانما تحت ستار الدين .

أما بعد الاستقلال فقد تزعمت الكنيسة القبطية فريق الثابتين على عقيدة أثناسيوس وكيرلس القائلة « بطبيعة واحدة للكلمة المتجسد » ، من الأمم الشرقية ، إلى أن كان الفتح العربى ، وهنا أترك القارىء ليتتبع الحوادث التى تلت ذلك فى الفصول القادمة ، وإنما هناك حقيقة رئيسية فى تاريخها بعد ذلك الحادث أود أن ألفت نظره إليه ، وهى أنها استطاعت أن « تحيا » إلى وقتنا هذا .

* * *

إذا كان هناك قطر أو بلد ترك آثاراً عميقة على الديانة المسيحية ، فهذا البلد هى مصر ، أو بعبارة أدق إذا كان هناك مدينة من المدن أثرت على الديانة المسيحية تأثيراً عميقاً ، فهذه المدينة هى بلاشك الأسكندرية .

منير شكرى

نصيب القبط في تقدم العلوم

للدكتور صابر جبره

مدير صيدلية القصر العيني

هذه الأمة القبطية التى يقاس تاريخها بالقرون والأحقاب ، وليس بالأعوام والأيام ، انما هى خليقة بدراسة تاريخها من جميع نواحيه ، وأن ينشر للملأ ما أقامه للشعب القبطى من حضارة هى تراث الآلاف من السنين ، فقد ورث هذا الشعب القبطى المجد والحضارة والثقافة عن أمجد الآباء ، وقد ورث الدين عن خير الأديان ، فهو شعب عريق تتأصل فيه بذور الحضارة ، وهو شعب أوسع صدره للمسيحية السمحاء فرحبت به مصر وخلد فيها هذا الدين ، رغم ماتوالت عليه من حدثان الزمن وعصور الأستعمار الغاشم والأضطهاد الذميم ، وسيخلد بإذن الله فى مصر ما بقى فى النيل قطرة من مائه ، وما بقى فى مصرى صميم قطرة من دم آبائه الفراعين الأمجاد ، ولا توجد مدينة أو قطر من أقطار العالم تأثر بهذا الدين السمح السماوى الجديد أعمق مما تأثرت به مصر وعاصمتها الأسكندرية فى ذاك الوقت مهد العلم والعرفان ورافعة لواء الثقافة والحضارة .

وقد لعب الشعب المصرى أو القبطى الصميم فى تلك الأزمان دوراً خطيراً فى نشر المعارف والعلوم وفى نشر مبادىء المسيحية أيضاً ودراستها ومناقشتها والجدل فيها ، وأوجد الكثير من النظم المسيحية المستحدثة كالرهبنة والطقوس الكنيسية .

وان تاريخ المسيحية فى مصر هو تاريخ الأقباط وهو تاريخ خالد امتلأت صفحاته بأسماء من نار ونور لهؤلاء الأبطال الذين خلدوا وأبلوا وجاهدوا . . هذا التاريخ المسيحى صبغ مصر من أقصاها إلى أقصاها بصبغة خاصة تغلغلت فى صميم الدم المصرى الخالص ، حتى لم تقدر ولن تقدر ، عوامل الزمن القاسية أن تنتزعها منه ولو انتزعت الأرواح من أجسادها ، ولنا فى حوادث التاريخ وعبر الشهداء أقوى وأصدق البراهين ، حتى أصبح لهذا العصر طابع خاص هو الطابع « القبطى » .

وهذه الصفات المميزة لهذا الشعب العريق أجبرت التاريخ والمؤرخين أن ينعتوا فترة من الزمن بصفة خاصة له ، فسموا هذه الفترة بالعصر القبطى ،

وهو عصر يجب أن يدرس تاريخه جميع المصريين على مختلف نحلهم ومذاهبهم وأديانهم ، وأن يدرس فضله على الحضارة جميع أبناء الشعب المصرى ، وأن يعرف هذا الشعب كيف أثرت حضارة العصر القبطى المنحدرة من حضارة الفراعين الأمجاد .. كيف أثرت هذه الحضارة فى شعوب العالم عامة . وفى شعوب الشرق خاصة ، وهذه الحقبة من الزمن هى قطعة من صميم التاريخ المصرى من أهملها فقد أهمل تاريخ أمته ، وجهل جزءا كبيرا من تاريخ الأمة المصرية وتاريخ الشرق الذى تزعمته فى تلك الأزمان .

وفى هذا البحث انما ألجأ إلى الحقائق والوقائع التاريخية التى لا ينكرها إنسان ، وأتعرض لتاريخ شعب عريق أصيل تجرى فى دمه أرقى وأروع عوامل المجد والعلم والحضارة والدين .. وله من تراث الماضى المجيد ما يجعله أرفع الشعوب أخلاقا وأقومها دينا وأصلبها فى الحق عودا .. شعب لم تلن ولن تلين قناته لأهواء السياسات المختلفة ولا لأهواء الشعوب المختلفة ، فظل عشرات المئات من السنين يحتفظ بطابعه الخاص دون أن يمنعه ذلك من أن يسير مع المدنية فى ركبها ، وأن يخطو مع الحضارة فى مدارجها ، فيهضم منها ما ساغ له وطاب ويلفظ منها ما تتنافر مع أصله ومنبته .

وقد مرت على شعب مصر القبطى حضارات مختلفة من عصور الاستعمار ، ورغم هذه التيارات الاستعمارية والسياسية وعوامل الدين المختلفة ، ظل الشعب القبطى يحتفظ بكرامته ودينه وشخصيته ، وقست بعض عهود الاستعمار قسوة لا رحمة فيها ولا انسانية ولا دين ، وظل الشعب القبطى صنو الهرم وأبى الهول لا يزحزحه عن مكانته أعنف الظلم ولا أهول الشدة ، حتى حفظ له التاريخ عهداً بل عهوداً من التضحية قدم فيها روحه وماله فى سبيل مبدئه وفى سبيل كرامته ووطنه . والعالم كله يذكر لهذا الشعب الجرىء عصر الشهداء يوم أن كان أفراده يقدمون راضين فرحين رءوسهم للمقصلة وأجسادهم طعاما للنار

والزيت . . وإذا ما ذكر العالم عصر الشهداء فأنما يذكر شعبا من أرقى شعوب العالم ومن أصلبهم عودا . . تلك العهود البربرية التى مرت بالشعب القبطى ، لم تزده إلا ايمانا بالله وبالوطن ، وصلابة فى الحق ومتانة فى الخلق ، وبذلك ضرب المثل رفيعا للعالم أجمع .

وفوق هذا جميعه فقد نال هذا الشعب القبطى المجيد بركة الميلاد المجيد ، وكان أول الشعوب التى تباركت بزيارة الطفل الإلهى رب المجد السيد المسيح ، فقد دخل مصر لا فاتحاً ولا محارباً ، بل طفلا وديعاً مقدساً ، فملأ قلوب أهلها إيماناً وترك فى أديم أرضها تراثاً مقدساً تعتز به مصر .

وتدل المراجع التاريخية على أن الأقباط كانوا غالبية ساحقة فى الديار المصرية حتى القرن الخامس عشر .

العصر القبطى والمسيحية

جاء مار مرقس الرسول إلى مصر فى تاريخ اختلف فيه العلماء ويقدرونه حوالى عام ٤٥م وتقول مدام بوتشر (Butcher) فى الفصل الأول من كتابها عن قصة الكنيسة المصرية أن مصر نعمت فى القرن الأول للميلاد بثلاث من أكرم الزائرين وذلك بين العام الثلاثين والعام الستين للميلاد ، وقد شهدت مصر دخول قيصر فاتحا ثم مجىء السيد المسيح له المجد ثم مجىء مار مرقس الرسول .

ويعتبر مار مرقس الرسول رأس الكنيسة المصرية ومؤسسها ، وتقول الأساطير المصرية المتداولة انه أحد أبناء المدن الخمس بنتابوليس (Pentapolis) وهذه المقاطعة كانت تضم القيروان وبرقة وغرب افريقية وظلت مقاطعة مصرية خلال جميع العصور المسيحية فى مصر ولا زالت الكرازة المرقسية تحتفظ باسمها حتى الآن .

وقد نشأ مرقس من عائلة من علية القوم وكان أبوه أرسطو بولس عماً لبرنابا ، وقد هاجر إلى أورشليم وفيها تربى على المبادىء المسيحية إلى أن جاء إلى مصر ليبشر بها فى الاسكندرية ، وتقول الأساطير المصرية أن أول من آمن بالمسيحية على يد مار مرقس الرسول هو انيانوس بعد أن شفى على يد مرقس . . وبعدها دخل المصريون المسيحية أفواجا حتى أصبحت أصداء ترانيم الكتاب المقدس ترن فى أرجاء الوادى من أقصاه إلى أقصاه ، وأصبح المصريون جميعا عن بكرة أبيهم مسيحيين لا بحد السيف ولا بحرب ونضال ولا برهبة القوة والسلطان ، ولكن بمبادىء المسيحية السمحاء وبالمحبة المتفجرة من بين سطورها وقلوب أبنائها ، وبالجدل المسيحى الشريف السمح . وقد كانت جامعة الأسكندرية أو كلية اللاهوت بها فى عهد أنطونيوس حوالى عام ١٣٨ بعد الميلاد أقوى العوامل على نشر المسيحية فى أرجاء المعمورة ، فقد تخرج فيها الكثير من علماء الأدب المسيحى الذين تعمقوا فى دراسة أسس المسيحية ، وجادلوا فيها وعقدوا المؤتمرات للبحث العلمى الدينى ، ومنها انتشرت تلك الحضارة المسيحية والأبحاث المسيحية والمؤلفات التى دونها كبار فلاسفة علم اللاهوت فى الأسكندرية إلى جميع أنحاء العالم ، وساحلت منها عبر شواطىء البحر الابيض المتوسط حتى تغلغلت فى قلب أوربا وفى ايطاليا .

ليس هذا فحسب بل اشترك علماء المصريين فى المجامع الدينية ، التى ورد تاريخها فى الكتاب المقدس وفى غير الكتاب المقدس ، فقد جاء فى الاصحاح السادس من أعمال الرسل أنهم اختاروا سبعة من المشهود لهم بالحكمة ومملوئين بالروح القدس ، وأقاموهم على كلمة الرب ، وذلك فى المجمع الذى عقد فى أورشليم ، ويستمر الكتاب المقدس فى العدد السادس من هذا الاصحاح فيقول : « الذين أقاموهم أمام الرسل فصلوا ووضعوا عليهم الأيدى ، وكان فى هذا المجمع عدد لا بأس به من الأسكندريين وأهل القيروان » ، ويقول فى العدد التاسع : « فنهض قوم من المجمع الذى يقال له الليبرتيين والقيروانيين والأسكندريين يحاورون

استفانوس ،، وهذا دليـــل قاطع على ما وصل إليـه أهل مصر فى الجـدل اللاهوتى والدراسة المسيحية .

ويذكر الـكتاب المقدس علمـاء مصر وخاصة علماء الأسكندرية ويصفهم بأنهم فصحاء ومقتدرين فى الـكتب إذ يقول فى أعمال الرسـل فى الأصحاح ١٨ والعدد ٢٨ « ثم أقبل إلى أفسس يهودى اسمه ابلوس اسكندرى الجنس ، رجل فصيح مقتدر فى الـكتب وكان هذا جيداً فى طريق الرب وكان وهو حار بالروح يتكلم ويعلم بتدقيق ».

وهذه آيات بينـات على ما وصلت إليه المسيحية فى مصر فى العصر القبطى ، وعلى ما وصل إليه علماء المسيحية أيضاً فى ذلك العصر ، فقد كان مرقس الرسول من أكبر عمد المسيحية ما فى ذلك شـك ، وقد كانت مصر المسيحية من أقوى العوامل فى نشرها ما فى ذلك شك أيضـاً ، وقد كان علماؤها وما وضعـوه من مؤلفات وكتب وأبحاث فى الجدل اللاهوتى من أكبر المؤلفات وأكثرها شيوعاً فى الشرق وأوربا فى ذلك الوقت ، من أكبر العوامل على حفظ تقاليدها وطقوسها .. وتدل مراجع التاريخ على أن مصر أرسلت مبعوثيها الدينيين إلى مختلف أقطار العـالم .

ويرجع الفضل فى انشاء الرهبنة إلى العصر القبطى أو المسيحى فى مصر ، فقد ذهب "St. Frantinus" أو فرنتينوس حوالى عام ١٥١ ميلادية مع مجموعة من اخوته المسيحيين إلى وادى النطرون حيث أنشأوا أول خلية منعزلة للعبادة المسيحية .. وظهر بعد ذلك القديس باخوميوس بين عام ٢٩٠ - ٣٤٨ م ، وهو الذى وضع الأسس الأولى للتنسك والرهبنة والابتعاد عن العـالم ، وضعها على أسس مسيحية ونظم ثابتة بعد أن كان نظام الرهبنـة أيام القديس أنطونيوس نظاماً يكاد يكون ارتجالياً ، ويكاد يكون عزلة تامة عن العـــالم . وقد أجمع المؤلفون والـكتاب فى تاريخ الرهبنة ، على أن أسس الرهبنة ونظمها قد نشأت فى مصر فى أوائل العهـد المسيحى فيها كما ذكرت ، كما أجمع هؤلاء أيضاً على أن

القديس أنطونيوس هو مؤسس نظام الرهبنة فى العالم، ثم وضع لها القديس باخوميوس القوانين والنظم التى لا زالت سائدة حتى الآن .

ولم تكن الرهبنة نسكا وعبادة فحسب ، بل كانت وسيلة هامة من وسائل تحصيل العلم ، وسبيلا للدرس والبحث ، خدمت العلوم والآداب خدمات جليلة فترة كبيرة من الزمن ، وتركت تراثاً خالداً لابأس به .

العلوم

ما من شك أن الشعب القبطى قد ورث حضارة عظيمة عن أجداده الفراعنة ، فقد ورث عنهم التعمق فى العلوم ، وقد وجدنا من مخلفات العصر القبطى الكثير من البرديات التى تدلنا دلالة قاطعة على أن المصريين قد بلغوا أيام هذا العصر مبلغاً لابأس به من العلم والحضارة ، ومن أكبر الدلالة على النهضة العلمية والبحث والدرس ، أنهم أجادوا فى تلك الأزمان صناعة سبعة أصناف من الورق للكتابة .

وقد انتقلت حضارة الفراعنة التعليمية الطبية عبر عصور الزمن إلى مدرسة الاسكندرية ، التى ظلت ردحا طويلا تحمل لواء العلم والعرفان إلى ما بعد دخول المسيحية فى مصر ، وظل علماء الاسكندرية عمد النهضة العلمية ، وظهر من بينهم فى العصر الرومانى كرنيليوس سلسوس (*Corneluis Celsus*) ، ذلك العالم الماهر الذى وضع تذكرته المشهورة لمنع تلف الأسنان ، وهى مكونة من بذور الخشخاش والفلفل وسلفات النحاس معجونة بالجلبانوم ، واستعمل حقنا شرجية من ماء البحر ، ولبخات من بذور الكتان والحلبة .

وسيرابيون السكندرى الذى تعمق فى عقاقير قدماء المصريين وخاصة الكريهة (*Unpleasant*) منها ، وهو الذى قدمها إلى العصور المتتابعة ، حتى ظلت مستعملة إلى القرن الثامن عشر ، وظهرت وصفاتها فى قلب أوربا واستمرت ردحا طويلا من الزمن .

وقد هضمت الحضارة المصرية جميع الحضارات التى دخلت اليها من فارسية ـ يونانية ورومانية حتى أنها تمكنت أن تجعل لها فى ذلك العصر القبطى طابعا خاصا، امتاز بما خلطه بحضارتها من حضارات الرومان واليونان، حتى انه ظهر فى الاسكندرية فى العصر القبطى فى أيام الرومان أغلب المصطلحات الصيدلية والطبيـة التى لا زالت مستعملة حتى الآن، منها (Medicina) العقاقير. و(Medicamentus) الدواء أو السم (Apotheca) مخزن الدواء و(Apothecary) رجـل الدواء أوصانع العقاقير، وهى الكلمة التى أطلقت على الصيدلى حتى القرن ١٨ م.

ويعزى إلى جالن (Claudius Galenas) وهو أول مثال نابغ من نتاج مدرسة الاسكندرية، ولو أنه ولد فى جزيرة برجوس عام ١٣٠م ومات فى صقلية إلا أنه تعلم بكل حكمة المصريين كما يقول الكتاب المقدس عن موسى النبى وجمع فلسفته وطبه وصيدلته من جامعة الاسكندرية، ولهـا يرجع الفضـل فيما وصل اليه من سمعة وصيت علمى ظل خالدا على مدى الدهور.

وقد بلغ جالن الشهرة العلمية قبل أن يتم العقد الثالث ونسبت اليه المجموعة الخاصة بالعقـاقير الطبية المسماه بالجاليلية (Galenicals) وله كثير من المستحضرات الدوائية التى ظلت مستعملة حتى العصور الحديثة.

ومن أبرز المخطوطات القبطيـة الطبية تلك البردية التى عثر عليهـا شاسيناه (E. Chassinah) وبردية زينون (Zenon) وقـد تميزت بردية شاسينـاه الطبية بناحية خاصة، هى علاج أمراض العيون. وقد ذكر فى هذه البردية الأفيون المستخرج من نبات الخشخاش اثنين وعشرين مرة فى وصفات، إما قطرات أو مسحوق للعين، وذكر فيها مرتين لمرض نسائى وأخرى للبخة، كما ورد ذكر بذور الخشخاش فى برديتين فى القرن الثالث للميلاد أهمها برديه «زينون»، ومن بين هذه الوصفات التى ذكرت فى بردية شاسيناه فى الصفحة ١٤٦ قطرة قابضة لمنع النزيف مكونة من درهم من سلفات النحاس ودرهم من الأفيون ودرهمين من

الفلفل الأسود ودرهم من المر، تعمل قطرة وتستعمل من الظاهر، كما وصفت البردية لخراج ملتهب متقيح الوصفة الآتية . . « أوراق الصفصاف وأوراق الرجلة وعصارة الحلوة المرة والزعفران وزلال البيض وقليل من الأفيون، تسحق جيداً مع بعض مع قليل من النبيـــذ النقى وتستعمل كمرهم وذلك فى الصفحة ٣٠٦ من البردية » .. وقد ورد استعمال كثير من العقاقير فى البرديات الطبية فى العصر القبطى فاستعملت هذه البرديات قشر الرمان كمانع للنزيف، كما احتفظ العصر القبطى وما بعده بكثير من العقاقير التى كانت تستعمل فى مصر، فقد ذكرت بردية شاسيناه فى ص ١٤٥ استعمال لبن الجميز لرأس الطفل المصاب بالبثور، كما ذكرت البردية العصارات المختلفة لنبات الجميز وميزت منها العصارة الطرية فى ص ٢٣٦، وكان ذلك فى وصفه للمرضى الذين يشعرون بعتامة فى عيونهم، كما ورد ذكر زيت الخروع والشب والزاج الأزرق والصمغ والقلافونية والشمع وزيت الفجل والراتنجات، ففى وصفة طبية فى الصفحة ٦٤ تذكر البردية القبطية قطرة من زيت الخروع والشب والزاج الأزرق والصمغ لعلاج بعض أمراض العيون. وتقول كتب الطب الحديثة باستعمال زيت الخروع كقطرة للعين فى حالات التهاب الملتحمة، وفى التذكرة الطبية ص ٢٣٩ تقول البردية انه دواء صنعه بنفسه مع والده من القلافونية وزيت الخروع والشمع وزيت الفجل، واستعملها لصقة للفقاقيع بعد طبخها على النار، والواقع ان هذه التذكرة بالذات ترينا مدى ما وصل اليه صيادلة العصر القبطى من أصول فن صناعة الدواء، إذ يحضرها الذى ورث المهنة عن أبيه كأحسن ما يكون علم الصيدلة فى تحضير اللصقات، كما تدل على علمهم الوافر بالتفاعلات الكيماوية التى تتم على النار فقط بين الراتنجات والزيوت .. غير هذا كثير من المستحضرات الطبية والعقاقير المختلفة التى تداولتها العصور المتتابعة حتى ظهرت آثارها فى وسط أوربا فى القرون الوسطى . كما يقول نيتولتسكى (*Nitolitzki*) فى كتابه الطب الشعبى المقارن، أن كثيراً من العلاجات والمستحضرات العلاجية فى أوربا والقرون الوسطى تحمل الطابع المصرى القديم، كما أن الكثير من هذه الوصفات لازال مستعملا حتى الآن فى مصر وفى كثير من بلدان الشرق .

صابر جبره

الآثار القبطية

للدكتور باهــور لبيب
مــدير المتحف القبطى

يظن كثير من العلماء أن الآثار القبطية هي آثار دينية مسيحية محضة فحسب كما زعموا أنها بيزنطية .

وهم يعتقدون أيضاً أن هذه الآثار القبطية تبدأ من سنة ٣٩٥ ميلادية ، وقت أن أصبح الدين المسيحي ديناً رسميا في مصر ، ويستمر العصر القبطي في نظرهم حتى سنة ٦٤٠ ميلادية أي وقت دخول العرب مصر .

والواقع يخالف هذا كل المخالفة . إذ أن الآثار القبطية هي الآثار التي تركها الشعب المصري لحياته على الأرض وفي الآخرة ، قبل ظهور المسيحية بزمن طويل ، نستطيع تحديده بدخول الاسكندر الأكبر مصر أي حوالي سنة ٣٣٢ قبل الميلاد . وهو انتهاء العصر القبطي الفرعوني ، واستمرت هذه الآثار القبطية أيضاً إلى ما بعد دخول العرب مصر .

وقد استعارت اسمها « قبطية » من اسم مصر الذي نشأت فيه هذه الآثار ، لأن مدلول كلمة قبطي هي نفس مدلول كلمة مصري وهو الاسم الذي أطلقه العرب على المصريين عامة ، إذن فهي مصرية قبل أن تكون مسيحية .

وبالرجوع إلى الآثار القبطية المختلفة المنتشرة في أنحاء الوادي ، وفي متاحف أوربا وامريكا . وبالرجوع إلى الآثار المعروضة أيضاً بالمتحف القبطي بمصر القديمة ، يتبين لنا بوضوح أن الفن القبطي خضع لمؤثرات البيئة المصرية التي نشأ فيها ، وهو ترجمان صادق للحياة المصرية في تلك الفترة من الزمن وما قبلها وما بعدها . وهو حلقة من حلقات الفن المصري من بدايته إلى نهايته ، أي بعبارة أخرى أن الفن القبطي قام إلى حد كبير على التقاليد الفنية المصرية الموروثة من أجدادنا قدماء المصريين ، ومازالت هذه التقاليد حية حتى يومنا هذا — ولا يظهر لنا مابين مصر القديمة والحديثة من صلات ظهوراً واضحاً جلياً ، إلا إذا ابتعدنا عن المدن التي تأثرت حضارتها ببعض عناصر الحضارات الأجنبية ، واقتربنا من الريف المصري حيث نجد حياة المصريين تتفق اتفاقاً تاماً وحياة أجدادهم في العصور القديمة المختلفة ، ولا يقتصر هذا الاتفاق على

ملامح الوجوه ، بل هو ظاهر أيضاً فى العادات والتقاليد والطقوس وخاصة فى أفراحهم وجنازاتهم ، كما نجده فى المسكن وطريقة بنائه والملبس وطريقة نسجه وحياكته ، وفى وسائل الزرع والحرث والحصاد وهكذا .....

ولا يفوتنى أن أذكر أن التطورات التاريخية والأحداث التى وقعت فى فترات مختلفة كان لها تأثير على تطور الفن المصرى ، فقد أثرت المسيحية فى بعض نواحى الفنون وخاصة المعمار ، والفنون المتصلة بالطقوس الدينية فى فترة من هذه الفترات .

ولذلك سأقتصر الحديث اليوم على الآثار القبطية فى الفترة ما بين القرنين الثالث الميلادى والعاشر الميلادى .

والآثار القبطية ننظر لها من عدة نواح .

أولا — الآثار المعمارية .

ثانياً — الآثار الفرعية كآثار النجارة والصباغة والنسيج وما أشبه .

أما الآثار المعمارية فهى قسمان :

ا — الآثار المعمارية الدينية من كنائس وأديرة ومقابر القديسين .

ب — الآثار المعمارية الدنيوية من مساكن ومقابر الأشخاص وآبار (١) وسواق ومخازن مياه الأمطار والحمامات وصوامع الغلال (الشون) ومصانع للهدايا التذكارية .

يدلنا التاريخ على أن مصر كانت مهداً للعلوم والفنون منذ أقدم العصور ، فالفراعنة هم أول من استخدم الأحجار فى البناء ، ونبغوا فى فن الهندسة

---

(١) وبهذه المناسبة أحب أن أنوه الى أن الفكرة السائدة لدى طبقة المثقفين أن فكرة حفر الآبار فى الصحراء هى فكرة رومانية .

والحقيقة أن الفراعنة كانوا أسبق من الرومان فى هذا المضمار بآلاف السنين .

والمعمار ، فزينوا مبانيهم وزخرفوها بشتى أنواع النباتات التى أخذوا أشكالها من النباتات التى تنمو حولهم . كما زخرفوا الحوائط والأفاريز بصور من الطيور والحيوانات محفورة حيناً وملونة حيناً آخر .

وقد نقل الاغريق عنهم هذا النوع من الفن ومن بعدهم الرومان ، حتى كان من أهم مظاهر توددهم للمصريين أثناء حكمهم لمصر ، أنهم كانوا يلتزمون الطراز المصرى القديم فى العمارة والنحت والزخرفة ، تشهد بذلك معابد فيله وادفو ودندره واسنا وكوم امبو ، فاحتفظ الفن المصرى بجوهره وصفاته على مر الأجيال وتعاقب الأيام . وقد سار القبط على سنة آبائهم وأجدادهم فى استخدام الأحجار فى تشييد مبانيهم وفى زخرفة عمائرهم بزخارف نباتية مستمدة من مظاهر الطبيعة والبيئة المصرية ، حيث يظهر ذلك جليا فى مجموعة تيجان أعمدة دير القديس أرميا بسقارة والمعروضة فى المتحف القبطى بمصر القديمة والتى يرجع تاريخها إلى القرن السادس الميلادى .

وقد كان نبوغ القبط فى بناء الكنائس والأديرة بالغا منتهى الروعة والجمال ، تشهد بذلك بقايا كنيسة ابو مينا (مار مينا) بالصحراء الغربية والتى كشفها العالم الالمانى كوفمان سنة ١٩٠٥ وتعتبر من أقدم الكنائس المصرية حيث بدىء فى عمارتها أواخر القرن الرابع الميلادى ، واهتم البطريرك الأنبا يوساب الأول فى منتصف القرن التاسع الميلادى (٨٣٠ - ٨٤٩) بادخال اصلاحات عليها . والكنيسة عبارة عن قاعة أعمدة على شكل مستطيل تكون صحن الكنيسة ويفصل جناحيها صفوف من الأعمدة الرخامية ويقوم الهيكل فى طرفها الشرقى « أى نظام البازيلكا » وهذا النظام ليس بجديد أو مستحدث على الأقباط بل هو تصميم مصرى قديم بدأه الملك تحتمس الثالث حوالى سنة ١٤٠٠ قبل الميلاد فى تشييد قاعة الاحتفالات بمعبد الكرنك .

وقد كان لبعثة المتحف القبطى الفخر ان قامت فى السنة الماضية باكتشاف

جزء من مدينة ابو مينـا بالصحراء الغربية وما زال باقى المدينة مطموراً تحت بحث بعثة المتحف القبطى .

وتخطيط المدن القبطيـة لم يختلف كثيراً فى مظهره الخـارجى عن أى بلد مصرى قديم ، فانها كانت تتألف فى الصعيد حيث لا يوجـد مطر ، من بيوت مبنية من اللبن كمـدينة هابو غرب الأقصر ، وأما فى بلاد الوجه البحرى الذى يكثر فيه المطر فكانت تتألف المدن من بيوت مبنية بالطوب الأحمر أو الحجر الجيرى كما هو الحال فى مدينة أبو مينا بالصحراء الغربيـــة ، وكان يتخلل هذه البيوت شـوارع . ومن الطريف ان مفـــاتيح أغلب أبواب هذه البيوت مصنوعة من الخشب ، كما هو الحال فى الريف المصرى الآن . وتوجـد مجموعة من هذه المفاتيح الخشبية بالمتحف القبطى .

ثانيـا - وإلى جانب الفن المعمارى وطرزه المختلفة ، نجـد الفنون التى يسمونها الفرعية ، والتى أرى أن نطلق عليها الفنون الدقيقـة ، كالنحت وفن التصوير والنقش على العاج وفن صناعة المعادن وفن النسيج ، نظراً لبراعـــة تصوير أغلبها فى مساحات صغيرة مع دقة صنعها .

وقد تفنن الصانع القبطى فى هذه الفنون إلى حـد بلغ من الروعة والدقـة ما نعجب له الآن .

ونسقت أثار هـــذه الفنون الدقيقة بالمتحف القبطى ، تنسيقا روعى فيه الترتيب الزمنى بقدر الامكان وفقا لأنواعها المختلفة ، فشملت الأقسام الآتية :

أولا - قسم النحت والرسوم الجصية .

ثانيـاً - قسم الأقمشة وفن النسيج .

ثالثـاً - قسم الأخشاب .

رابعاً - قسم المعادن .

خامساً - قسم المخطوطات .

سادساً - قسم المعروضات الحديثة .

وهذه بعض أمثلة :

فأما عن فن النحت ـ فنجد أكثر من تاج عمود تظهر فيها عوامل التقليد الدنيوى وتسجيل الحياة اليومية فى ذلك العهد ، إذ نبصر تيجان أعمدة من الحجر مجدولة على شكل السلال ، وأتقن الفنان صنعه ، وهى تشبه إلى حد قريب تلك التى ما زالت متداولة حتى اليوم والمصنوعة من القش ، أو تيجان أعمدة بشكل زخرفى لأوراق العنب أو كرم العنب أو الأكانتس أو مأخوذ من سعف النخيل ، أو تيجان أعمدة ملونة باللون الأخضر وهو اللون الطبيعى للنبات .

وكان القبطى حريصاً على التعبير عن الظواهر اليومية الطبيعية ، كمداعبة الهواء لأوراق الأشجار ، فقد عبر عنها تعبيراً ناطقاً يكاد يسمعنا حفيفها .

وقد اهتم القبط بتزيين الجدران ، فنقشوا الرسوم الهندسية بالألوان أو بالحفر ، واندمج العرب بعد دخولهم مصر مع الأقباط ، واستوحوا منهم الفن خصوصاً الرسوم الهندسية التى ظهرت واضحة على المساجد والمنازل ، ولم تظهر فى صور الأشخاص لأن تعاليم الاسلام تحرم إقامة التماثيل وتكره التصوير ، ولتخصصهم فى الناحية الهندسية المعمارية برعوا فيها وأتقنوها فيما بعد .

كذلك اهتم الأقباط بنحت الرسوم النباتية ، فنجد بالمتحف القبطى على سبيل المثال واجهة باب من باويط ، وهى بلدة قرب منفلوط تبع مركز ديروط باسيوط ، من الحجر الجيرى على شكل نصف دائرة ، وقد حلى برسوم هندسية وبزخارف ثمار الرمان . وهذا يدل على ارتباط المصرى قديماً وحديثاً وفى مختلف العصور ، بخواص البيئة المصرية بل والأقاليم المصرية أيضاً ، ولا يزال الرمان الآن ينسب إلى منفلوط .

كذلك زخرف القبط الحوائط والأفاريز بصور من الطيور والحيوانات ، فنرى ضمن زخارف الفن القبطى صوراً لصيادى الطيور والأسماك والوحوش المفترسة كالأسود ، فضلا عن الحيوانات المصرية الأليفة كالأرانب والغزلان .

وأصل الكثير من هذه الزخارف يرجع إلى مصر الفرعونية ، ويبين استمرار وحدة الفن المصرى فى عصوره المختلفة ، كما نرى ضمن الزخارف المهارية صورة للحداد القبطى تحيط به أدواته من كماشة وقادوم كما يعرفها الصانع المصرى حتى اليوم (انظر صورة رقم ١) .



(الصورة رقم ١)

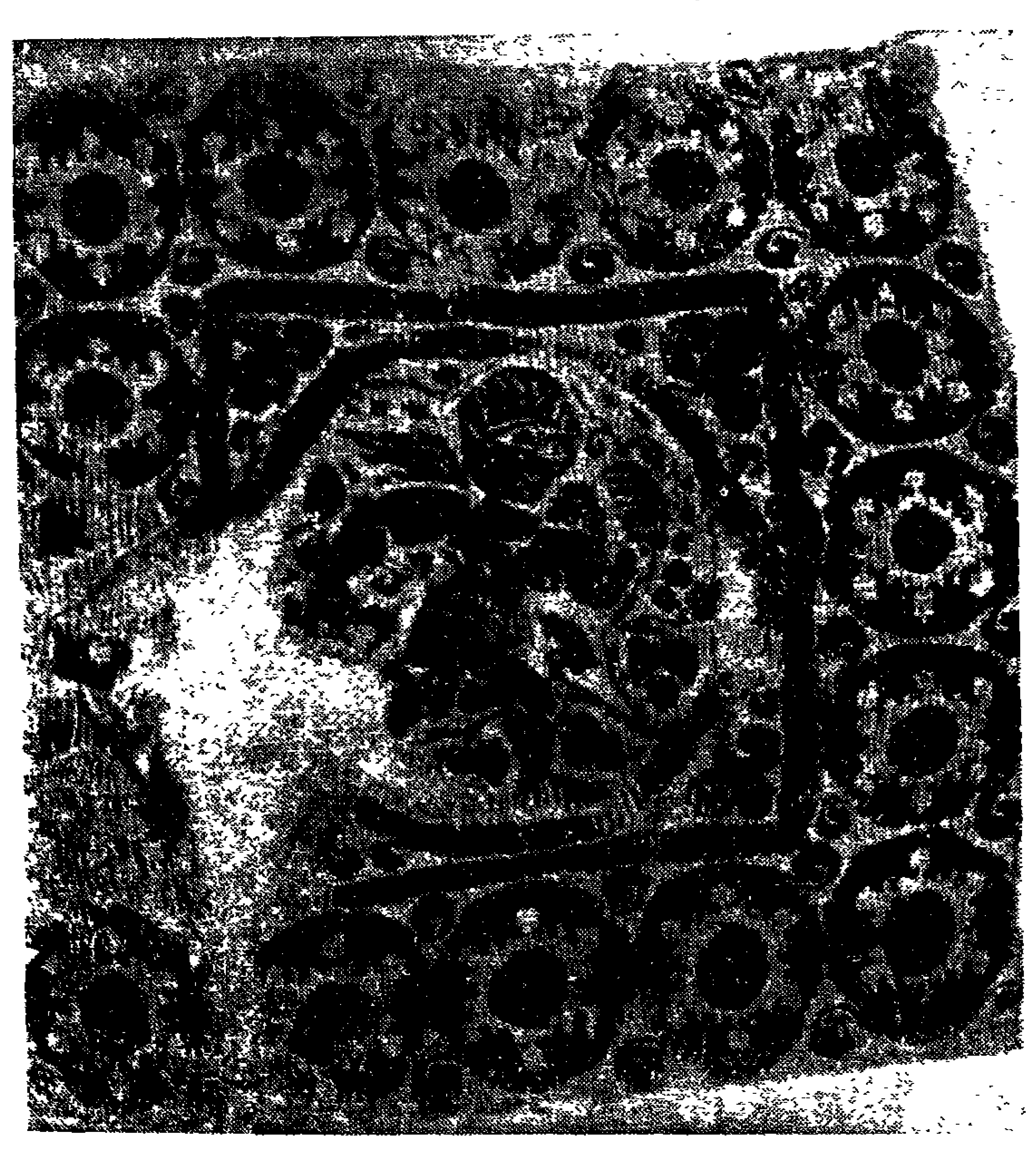
ولم تكن روح الدعابة تنقص الفن القبطى ، فإننا نجد على الآثار القبطية ضمن ماخلفه من الصور والنقوش ، لوحة تمثل وفد الفيران يتقدم إلى القط طبقاً للقصة المشهورة ، وقد رفع الفيران علماً هو الذى يعتبر حتى اليوم علم الهدنة والايمان ، كما نجد منظراً آخر لرجل سقط من نخلة عالية أثناء تسلقه لها لجنى البلح ، كما نرى منظراً لنوتى يداعب تمساحاً بيده على أثر من الخشب .

وأما عن فن النسيج فقد كفل نهر النيل لهذا الوادى وسكانه كل أسباب قيام الحضارة واستقرارها فيه ، وفى قيام الصناعات التى ترتبت على وجود الزراعة كالنسيج . لذلك كانت مصر منذ فجر التاريخ مشهورة بمنسوجاتها الكتانية ، لذلك ترجع شهرة مصر فى صناعة الأقمشة والنسيج إلى أقدم العصور ، وقد كانت مصر تصدر من منسوجاتها إلى جميع ممالك العالم القديمة .

وظلت هذه الشهرة تلازمها حتى العصر اليونانى الرومانى ، وبالرغم من

وجود حكام اليونان الرومان ، فقد كان يسود الصناعات الشعبية المصرية أصول الفن القبطى خلال هذه العصور .

ومن المدن التى ذاع صيتها خلال العصر القبطى فى صناعة الأقمشة ، بابلون « مصر القديمة » ، واخميم ، وانطوينوى « التى أنشأها هدريان سنة ١٣٠ ميلادية ، وهى بلدة بالقرب من الروضة بالوجه القبطى ، وتعرف الآن ببلدة الشيخ عبادة ، وأرمنت ، والبهنسة ، وتنيس « صان الحجر » . وكان للأقباط قدرة فائقة كأجدادهم قدماء المصريين فى مزاولة صناعة الغزل والنسيج ، وموضوعات زخارف المنسوجات ، إما رسم طيور أو أسماك أو نبات اللوتس و عناقيد العنب ، وهى موضوعات مستمدة من صميم البيئة المصرية ، أو أشكال هندسية « انظر صورة رقم ٢ » .



(صورة رقم ٢)


« صورة رقم ٣ »

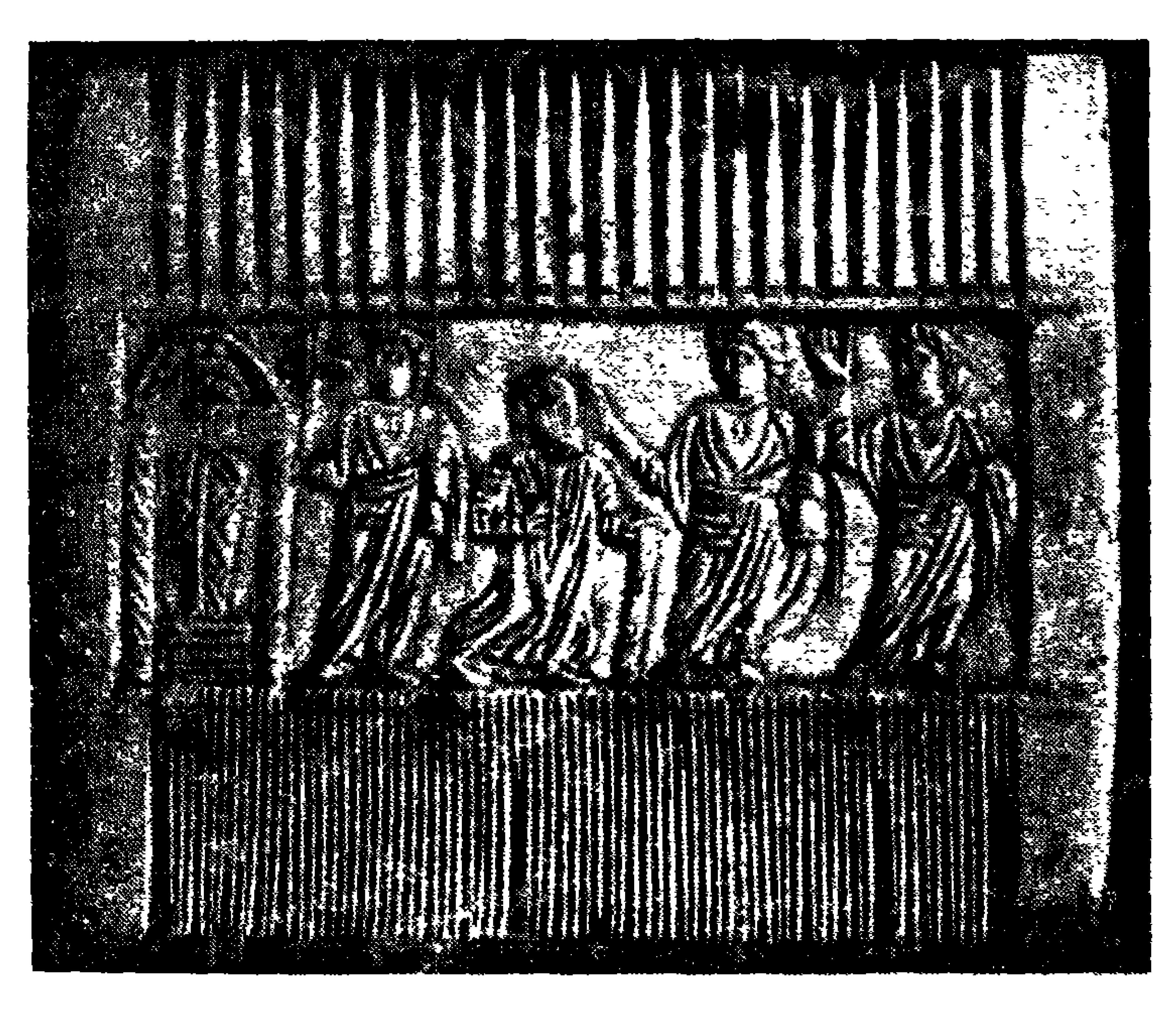
وقد شهد علماء الفن للأقباط بقدرتهم الفائقة فى استخدام الألوان وزخرفة الأقمشة، على سبيل المثال، الجلباب المصرى أو الجلابية، فى الفن القبطى، تدل على احتفاظ المصرى قديماً وحديثاً وفى مختلف العصور بهذا الرداء خصوصاً فى الريف.

وأما عن فن الحفر على الأخشاب، فنجد بعض الآثار القبطية عليها مناظر نيل مصر، من طيور وأسماك أو نبات البردى أوالتمساح، «أنظر صورة رقم ٣». أو المراكب المحملة بالأوانى الفخارية الآتية من قنا على أغلب الظن، والنيل بلا شك قوام حياة مصر وقلبها النابض فى كل عصورها قديماً وحديثاً.

وقد نبغ الأقباط فى فن النجارة والتطعيم كأجدادهم المصريين القدماء. فباب كنيسة السيدة برباره الذى يرجع إلى القرن الرابع الميلادى، وكذلك منظر دخول المسيح أورشليم ويرجع إلى القرن الخامس الميلادى، وكلاهما موجود بالمتحف القبطى، يشهدان بتقدم هذا الفن عندهم.

كما ان أصل الكثير من أدوات زينة المرأة فى العصر القبطى يرجع إلى مصر الفرعونية، فمثلا المكاحل التى من العاج أو الأمشاط فعلى

سبيل المثال مشط رقم ٥٦٦١ بالمتحف القبطى منقوش عليه صـــورة بديعة تمثل حسناء متكئة على سرير تحته كلب ، ويرجع إلى القرن الرابع الميلادى ، ويشبه كل الشبه أمشاط عصور مصر الفرعونية ، بل ومشط اليوم المسمى بالفلاية . وهناك أمشاط من العاج عليها رسوم بها أثر دينى مسيحى ، فمثلا رسم يمثل وقوف السيد المسيح على قبر أليعازر ، وهى صورة دينية نقشت على أداة للاستعمال اليومى (أنظر صورة رقم ٤) .



(صورة رقم ٤)

كما أن الكثير من أدوات زينة المرأة المصنوعة من المعدن يرجع إلى مصر الفرعونية ، فمثلا الأساور المحلاة برأس الثعبان ، وكذلك زينه اليد والأصابع والعقود والخلاخل ، لا زال إلى يومنا هذا يستعمل بعض القرويات المصريات هذه الأدوات .

كما نجد ضمن الآثار المعدنية بعض الأدوات الطبية التى برع الأقباط فى استعمالها ، وقد ورثوا هذه البراعة فى الطب والجراحة عن أجدادهم قدماء

المصريين .

كما نجد بين الآثار القبطية في قسم المعادن أدوات زراعية كالشرشرة والفأس ، وهى من الأدوات التى ما زالت بشكلها القديم مستعملة حتى اليوم فى الريف المصرى . والآن وقد سقنا هذه الأمثلة العديدة والأدلة التى بيناها ، نستطيع بأن نؤكد أن الآثار القبطية لها طابع دنيوى مصرى إلى جانب الطابع الدينى .

وبما أن الفن القبطى ليس كما يقول بعض العلماء فنا دينيا مسيحيا محضا ، وانما كما رأينا هو فن مصرى له مؤثراته وأغراضه الدنيوية إلى جانب أغراضه الدينية ، والفن فى ذلك لا يخرج فى تطوره كأى شىء التصق بالانسان فى حياته . فهذه اللغة القبطية فضلا عن انها اليوم لغة الطقوس الدينية فانها كانت قديماً أداة التفاهم فى العصر الفرعونى والعصر القبطى ومظهراً من مظاهر الحياة المدنية .

المخطوطات

ومن أهم ما خلفته اللغة القبطية المخطوطات ، وكتبت هذه المخطوطات بالحروف القبطية ، والحروف القبطية مكتوبة بالأبجدية اليونانية ، وبعض حروف اشتقت من الديموطيقية . وقد وصلتنا مخطوطات قبطية من عصور مختلفة بالرغم مما حاق بهذه المخطوطات من خرق وتخريب وحرق وغير ذلك .

وأقدم ما وصلنا منها يرجع إلى منتصف القرن الرابع ، منها الدينى ، ومنها ما يتصل بالسحر والفلك والطب والضرائب .

ولعل أهم ما وصلنا من هذه المخطوطات ما كشف عنه حديثاً من أوراق بردى ، مكتوبة باللغة القبطية ، وتتناول البحث فى فلسفة الغنوسطية ، أو كما تسمى بالعربية فلسفة العارفين بالله . تمكنا من معرفة ٤٨ كتابا مختلفا معظمه

غير كامل . أخص هنا بالذكر منهم الكتاب المسمى بانجيل المصريين ، مما يدل على أنه كان للمصريين مذهبهم الخاص فى تفهم الديانة المسيحية وتفهم فلسفتها.

وكتب الأقباط على البردى والرق والجلد والاستراكا (الشقافة) والعظم والخشب ، وحفروا على المعدن ونسخوا الكتاب على الأقمشة .

وبرع الأقباط فى فن تجليد الكتب ، فان ما وصلنا من غلافات الكتب عليها زخارف تعد من أقدم ما عرفه العالم من فن التجليد . ولعل أقدمها ما كشف عنه حديثا من غلاف بالجلد له لسان لإخراج المخطوط منه ، وهو الذى حفظت به الأوراق الغنسطية السابقة الذكر ، وهو موجود الآن بالمتحف القبطى بقاعة المعروضات الحديثة .

والتجليد معروف عند قدماء المصريين، عرفناه من الرسوم والنصوص ، وان لم يصلنا إلى الآن منه شىء ، مثل ما نعرفه من مقبرة الوزير رخمى رع أحد وزراء الملك تحتمس الثالث أحد ملوك عصر وحدة مصر الثالثة .

فالآثار القبطية ما هى إذن إلا صورة من صور الآثار المصرية فى عصر من عصورها المتطورة ، أى لا تخرج عن أن تكون فصلا من فصول تاريخنا القومى وتاريخ حضارتنا المصرية .

دكتور باهور لبيب

موجز تاريخ القبط


للأستاذ ولـيم ورل

بجامعة متشيجان

راجع ترجمتها عن الانجليزية

الأستاذ الدكتور مراد كامل

المحتويات



مقدمة المؤلف

ان الوصف القصصى التالى عن الشعب القبطى ، والذى كان موضوعا لمحاضرة هنرى رسل لموسم ١٩٤١ / ١٩٤٢
(Henry Russell Lecture for 1941 - 42)
قصد به فى الواقع ان يكون حديثا وصفيا وليس تاريخيا ، ولو ان حديثا مثل هذا تستعرض فيه حقبة طويلة من الزمن ليتطلب بالضرورة أن يروى فى أسلوب قصصى . ويستمد هذا الحديث عناصره من مصادر الدراسات القبطية لا من المصادر الخارجية الخاصة بالدراسات الاغريقية الرومانية أو بالتاريخ القديم أو الوسيط . كذلك لم يعن هنا بالناحية الكنسية أو اللاهوتية أو الدينية بل بالناحية الدنيوية الانسانية .

بيد ان هذه المصادر ليست بالكثرة المرجوة ، إذ كان القبط فى نظر كتاب الأغريق واللاتين مصريين وطنيين أو مصريين مسيحيين ، ذوى لغة وأساليب خاصة فى الحيـــاة لم تكن معروفة لهم ولم تسترع اهتمامهم ، بينما كانوا فى نظر كتاب العرب شعبا مسيحيا استعصى ادماجه تماما ، فلم يحفلوا بشأنه إلا قليلا فيما عدا ثوراته المتكررة وما وقع عليه من اضطهاد . هذا ولم يظهر بين القبط أنفسهم من أرخ لأمته باللغة القبطية ، حتى ولو حدث ذلك فمن المشكوك فيه انه كان يضمنه شيئاً كثيراً مما يهم الانسانية البحتة ، ذلك ان تلك العصور الخوالى كانت عصور اللاهوت والدين بحيث اعتبرت الأمور الأخرى التى نتوق الآن إلى معرفتها غير جديرة بالاهتمام والتسجيل .

ولم يكن من العسير إطالة هذا الموجز بالتوسع فى موضوع المجادلات المتصلة بالعقائد المسيحية ، أو بزيادة النصوص المقتبسة من الأدب والوثائق ، أو بنشر مآسى الاضطهادات المضنية الطويلة . على أن هناك نقصاً ملموساً

حقا ، وهو موضوع الفن القبطى مع ماله من فائق الشهرة وكبير الاهمية ، فقد اضطررت إلى ذلك لعدم اتقانى لهذه الناحية الخاصة ، ولهذا أرجو معذرة القارىء .

ولقد أغفلت ذكر الحواشى وتصرفت بعض الشيء فى المقتبسات ، كما ضمنت ملحقاً خاصاً بآخر الكتاب كافة المراجع التى نقلت عنها أو اقتبست منها ، راجياً بذلك أن أجعل كتابى هذا أيسر فى المطالعة ، وإن انتقص من مظهره العلمى .

ويدرك كل من كتب عن القبط كم هو مدين إلى أقصى حد للمؤلفات الأساسية التى كتبها يوحنا ليبولدت (Johannes Leipoldt) وهى : تاريخ الأدب القبطى (Geschichte der Koptischen Literatur) وهو أحد أجزاء « تاريخ الأدب المسيحى فى الشرق » (Geschichte der Christlichen Literaturen des Orients « Leipzig, 1907 ») . و « شنوده الأتريبى » "Schenute von Atripe" المنشور فى (نصوص ومختارات تاريخ الأدب المسيحى القديم ـ الطبعة المنقحة) (Gebhardt and Harnack : Texte und Untersuchungen zur Geschichte der Altchristlichen Literatur, Neue Folge) Vol. X, 1 (1903).

وأدين بالفضل لزميلى مستر ولفرد ب. شو (Mr. Wilfred B. Shaw) ، الذى تولى باهتمامه وذوقه الحسن وإدراكه السليم ومهارته الفنية إعداد الرسوم التى يزدان بها . وكذلك لزميلى الدكتور فرنك أ. روبنز (Frank E. Robbins) ، مدير مطبعة جامعة متشيجان الذى يرجع إليه الفضل فى نشر هذا الكتاب ، وبصفة خاصة لاخراجه فى شكله الحالى بما أضفاه عليه من مهارته الفنية . هذا وقد استعين فى اعداد رسوم هذا الكتاب بعدة صور نقلت من كتاب مرقص سميكه باشا [(١)] : (A Brief Guide to the Coptic Museum and to the Principal Ancient Coptic Churches of Cairo, « Cairo 1938 »).

---

(١) وهذه الرسوم لانرى داعياً الى نشرها فى هذه الطبعة العربية .

فلهؤلاء جميعاً أزجى عظيم شكرى وامتنانى .

ومما يجدر ذكره فى المقدمة ، أن القبط هم المسيحيون من سكان مصر ، وأنهم السلالة المباشرة لقدماء المصريين . وكان تعدادهم ٨٣٤٤٧٤ نسمة فى عام ١٩١٧ ، ويكثر وجودهم فى مدن مصر الوسطى وعلى الخصوص فى أسيوط واخميم . وللقبط أهمية خاصة لأنهم البقية الباقية من الشعب المصرى الصميم ، ذلك الشعب الذى يمتاز بأن له أقدم تاريخ مدون . ثم لأنهم جماعة مسيحية عريقة بقيت على الزمن رغم عزلتها واضطهادها . وكلمة « قبطى » محرفة من الكلمة الإغريقية التى تؤدى معنى « مصرى » ، وخلافاً للاعتقاد السائد فأن مسيحيي الحبشة ليسوا قبطاً ، ولكنهم اعتنقوا منذ القرن السادس عقيدة الطبيعة الواحدة التى تدين بها الكنيسة القبطية ، أما مطرانهم فيرسمه لهم بطريرك القبط فى القاهرة . وقد حلت اللغة العربية إلى حد بعيد محل اللغة القبطية منذ القرن العاشر ، ويتكلم القبط الآن العربية فقط . وأخيراً فالقبط يؤمنون بأن عقيدة الطبيعة الواحدة هى العقيدة المسيحية الصحيحة ، ولذلك فهم يعتقدون بأن كنيستهم هى لب المسيحية الصحيحة .

١٢ سبتمبر سنة ١٩٤٥

وليم . هـ . ورل

مصر قبل قدوم الأغريق

كان قدماء المصريين قوما يقصرون اهتمامهم على شئون بلادهم دون سواها، وكانت بلادهم هذه جنة مستطيلة تحف بها الصحارى وترويها وتجدد تربتها مياه النيل على مدار السنة، وكذلك كانت معرضة للغزو من الشمال والجنوب فقط، كما حبتها الطبيعة بأسهل طرق المواصلات الداخلية، ومع ذلك فقد اغارت عليهم شعوب كثيرة خلال تاريخهم الطويل. وكان اتصالهم بالاغريق والعرب شديد الخطر عليهم، وقد بدأ الاتصال بالاغريق منذ منتصف القرن السابع قبل الميلاد، بينما بدأ اتصالهم بالعرب من منتصف القرن السابع بعد الميلاد واستمر إلى وقتنا الحاضر. وقد اسفر اتصالهم بالاغريق عن تضييق الخناق على لغتهم وثقافتهم القومية قرابة الف سنة من الاسكندر الأكبر (٣٣٢ ق. م) إلى عمرو بن العاص (٦٤٠ م)، بينما أدى اتصالهم بالعرب إلى انتعاش ما بقى لهم من ثقافة ولغة، ثم اندثار ذلك فيما بعد حتى انتهى الأمر بأن أصبح أبناء البلاد أقلية دينية فى وطنهم الأصلى. وفيما بين منتصف القرن الخامس إلى منتصف القرن السابع الميلادى قام المصريون بنهضة قومية ظلت متصلة زهاء قرنين، وجنوا ثمارها من منتصف القرن السابع إلى نهاية القرن الثامن، بينما كانت يد الأقدار قد قضت عليهم بالاضمحلال.

ولما كانت ثروة البلاد تتوقف على فلاحة الأرض، فقد ظل المصريون دائماً شعباً زراعياً، واتسمت ثقافتهم وأخلاقهم بذلك الطابع الأساسى طوال عصور تاريخهم. فهم قوم واقعيون ولا شأن لهم بغير ذلك، وهذا واضح حتى فى لغتهم، وفى طريقة كتابتهم الهيروغليفية، وكما كان للحيوانات فى ديانتهم نصيب كبير، كذلك كثرت فى كتابتهم الهيروغليفية صور الحيوانات وأجزائها، وتضمنت عباراتهم دائماً اشارات تمثل أعضاء الجسم. وهكذا نرى الصلة الوثيقة بين المصريين وتربة بلادهم.

والمصريون شعب أبيض من جنس البحر الأبيض المتوسط ، نزحوا الى حافة وادى النيل ثم استوطنوه تدريجياً ، وأزالوا غاباته بعد جفاف الصحراء الكبرى فى العصر الجيولوجى الحالى . ويبدأ تاريخهم حوالى سنة ٣٢٠٠ قبل الميلاد . وتختلف العشائر التى استقرت فى وادى النيل حتى منف شمالا عن العشائر التى قطنت الدلتا ، إذ كان للأولين علاقات بالبلاد الحامية الى ما وراء حدود مصر الجنوبية ، على حين كان الآخرون على اتصال بالبلاد الحامية على طول شواطيء البحر الأبيض إلى الغرب . ومع ان هذه الشعوب جميعاً تعتبر جغرافياً شعوباً افريقية إلا انها ليست من أصل زنجى ، ويعوزنا الدليل على وجود دم زنجى فى مصر فى العصور السحيقة . ومن المشاهد ان للقبط حتى فى عصرنا الحاضر شعر يميل لونه إلى السمرة غالباً ولكنه ليس مجعداً على كل حال وكذلك قد تذكرنا بعض مميزاتهم الاجتماعية بمثيلاتها عند الزنوج ، ولكن لعل ذلك راجع إلى عوامل البيئة الافريقية المشتركة .

ولقد اختلف المؤرخون فى تفسير القرابة بين الحاميين والساميين ، وهما على أغلب الظن فرعان شديدا القرابة من جنس البحر الأبيض المتوسط الصحراوى . وإلى جانب ذلك فمن المحقق تاريخياً ان الهكسوس الساميين غزوا مصر حوالى ١٦٨٠ ق.م ، ولا يبعد ان يكون الدم السامى قد تسرب إلى المصريين قبل ذلك التاريخ .

هذا وقد تسرب دم حامى جديد إلى المصريين عن طريق الليبيين ، الذين هاجروا إلى الدلتا ، والنوبيين الذين هاجروا إلى الوادى فى القرنين العاشر والثامن قبل الميلاد ، غير أن مما لا شك فيه أن هذه الهجرات ليست الوحيدة من نوعها .

وقبل ظهور الأغريق على مسرح التاريخ كانت الأيام التى تجلت فيها عظمة مصر قد ولت ، تلك الأيام التى استطاع فيها المصريون بمحض قوتهم وذكائهم وخيالهم من تشييد اهراماتهم ومعابدهم التى لا تزال آثارها قائمة تشهد بتفوق

اجسامهم وكفايتهم الادارية ومهارتهم الهندسية . ولقد امتازوا بقوة الملاحظة ومهارة الصنعة وفرط المحبة للجمال ، هذا الى ولعهم بالحياة المرحة البهيجة . ولكنهم مع ذلك لم يصلوا قط إلى مرحلة التبحر فى العلوم والفلسفة ، فقد وجدوا فى عقائدهم الدينية منذ وقت مبكر ما استجابت له سريعاً غريزة حب الاستطلاع فيهم ، لذلك لم يشغلوا أنفسهم بمفارقات الحياة بل اهتدوا بتجارب الماضى . وعلى مر الأجيال الطويلة فقد العنصر المصرى شكيمته ومقدرته على استيعاب غيره من الشعوب ، وتوالت على عرش مصر أسر أجنبية من الأفريقيين ثم من الأسيويين . فلما زار هيرودوت مصر حوالى سنة ٤٥٠ ق.م وجد المصريين ينظرون إلى ماضيهم المجيد نظرهم إلى آثار دارسة مضى عهدها وانقضى . وهكذا اصبحت مصر موطناً للألغاز فى أعين الشعب الأغريقى الفتى الذى كان نجمه قد بزغ فى سماء القارة الأوروبية . ولكن مصر كانت عندئذ قد فقدت فضائلها الأولية وبساطتها وثقتها بنفسها. ثم ظهرت المسيحية كشريعة إلهية للحياة البشرية، وكان من الهين على المصريين ادراك مبادئها ، فقد عرفوا من قبل ان هناك دياناً إلهياً له صفة الآله والانسان معاً فى شخص أوزريس ، كذلك شبهوا الأم والصبى بايزيس وحوريس ، أما عقيدة قيامة الجسد من بين الأموات فلا بد ان كان لها صدى عميق فى قلوب هؤلاء القوم الذين درجوا على تحنيط موتاهم منذ قديم الزمن . وسرعان ما انتشرت المسيحية انتشاراً واسعاً بين أهالى مصر الريفيين ، وكفت المعابد الشاهقة والتماثيل الضخمة عن أن يكون لها فى نظرهم أى معنى سوى أنها تلك المنكرات الوثنية التى لعنتها الكتب المقدسة . واجتاحت البلاد موجة عنيفة من التخريب والتدمير لم يحد منها إلا قصور الشعب المتضعضع وكثرة ما خلفـــه أسلافهم من آثار هائلة . ثم تحولت القاعات الضخمة إلى كنائس وهياكل ، وتراكمت الانقاض حتى غطت الأعمدة العظيمة إلى ما دون تيجانها . وهكذا كانت الحال حينما كشف عنها الأثريون منذ نحو قرن من الزمان تقريباً . وهنـاك وجدت بين الأغلبية السـاحقة من السكان المسلمين المتعربين أقلية دينية من أصل مصرى نقى إلى حد كبير ، أولئك هم بقايا الكنيسة المسيحية القبطية وسلالة مصر الفرعونية .

العلاقات مع الأغريق

كان قدماء المصريين يسمون الأغريق « وينين » ، فإذا نقلنا الواو والياء كلا منهما مكان الآخر أصبح الاسم مشابها للاسم العبرى « ياوان » الوارد فى العهد القديم ، وما هو فى الحقيقة سوى الاسم الاغريقى القديم « اياونس » (Iawones) أى « ايونيين » الذى كان يطلق على الأغريق قبل أن يدعوا هيلينيين .

ويبدو ان أول من وطئت أقدامهم أرض مصر من الأغريق كانوا تجاراً يجوبون البحار أو قرصانا انتهى بهم المطاف فى موانىء الدلتا ، ولحق بهم تجار آخرون وباعة جائلون استقروا هناك أيضاً ثم اتسع نطاق أعمالهم تدريجيا حتى توغلوا فى داخلية البلاد . ومن المؤكد ان هؤلاء التجار ومن اليهم كانوا غير مرغوب فيهم أو على الأقل غير موثوق بهم من أهالى البلاد ، إذ ان المصريين بطبيعتهم وثقافتهم لا ينسجمون مع الاغريق فى كثير ولا قليل .

بيد ان الرخاء الذى تمتعت به مصر فى عهد الأسرة السادسة والعشرين (٦٦٣ - ٥٢٥ ق. م) كان فرصة مواتية للأغريق ، الذين يرجع اليهم بدون شك فضل مذكور فى تهيئة أسبابه . فقد أسس هذه الأسرة أمراء وطنيون من الدلتا ، تربعوا على عرش مصر بعد تحرير بلادهم من ربقة المحتلين الأشوريين . ومع ان هؤلاء الأمراء اختطوا سنة قومية فى الشؤون الثقافية باحيائهم التقاليد والأساليب المصرية القديمة فى كل ما يتصل بالألقاب واللغة والأدب والفن . إلا انهم كانوا على نقيض ذلك فى الشؤون الاقتصادية إذ انشأوا علاقات تجارية مع الأغريق ، وأسس لهم أمازيس خامس ملوك هذه الأسرة (٥٦٩-٥٢٦ق.م) مدينة نوقراطيس فى غرب الدلتا ، وكانت هذه المدينة التجارية إغريقية سكانا ولغة ، وسرعان ما أصبحت أهم مركز تجارى فى مصر .

على ان نشاط الأغريق اقتصر على هذا الحد فى ذاك الوقت ، فقد حكم الفرس مصر سنة ٥٢٥ إلى سنة ٣٣٢ ق. م ، وخلال تلك المدة قام هيرودوت برحلته الشهيرة إلى مصر .

ولما اعتزم الاسكندر الأكبر ان يقضى على الضعف والانقسام فى بلاد الاغريق ، وان يقيم نظاماً جديداً للعالم ، رأى ولا شك ان ذلك يقتضى منه ان يعلو بنفسه فوق مستوى الفاتحين البشريين والحكام المطلقين إلى مصاف الآلهة . وأى مكان أنسب لتحقيق هذه الغاية من مصر ، حيث كان يعتبر فرعونها « الإله الطيب » منذ العصور السحيقة ؟ لذلك غزا مصر عام ٣٣٢ ق.م ، ثم حج فى السنة التالية إلى واحة سيوه النائية فى الصحراء الليبية ، حيث نودى به ابنا للمعبود آمون . وفى أعقاب هذه الرحلة أسس مدينة الاسكندرية فى موقع قرية مصرية قديمة قليلة الأهمية كانت تدعى راكوتى ، وكان اختياراً موفقاً نظراً لبعد هذه البقعة عن تيارات الرمال السافية ، ولوقوعها على البحر قرب بحيرة مريوط التى كانت تصلها بالنيل عدة قنوات . وما لبثت الاسكندرية أن أصبحت أهم ميناء تجارى فى البحر الأبيض ومركزا ثقافيا ينافس اثينا . أما أهالى مصر الوطنيين فقد ظلوا يسمونها « راكوتى » .

ولم يمض طويل وقت حتى اصطبغت مصر بالصبغة الهيلينية إبان حكم الاسكندر وخلفائه ، شأنها فى ذلك شأن البلاد الأخرى التى فتحها . على أن الأمر لم يقتصر على غرس جذور الآداب والمعارف الأغريقية فى الاسكندرية ، بل يبدو أن اللغة الأغريقية حلت محل اللغة المصرية ، واتخذ المصريون لأنفسهم أسماء أغريقية ، أو صبغوا بها أسماءهم المصرية ، وأخذ الأهالى — حتى الطبقات المتواضعة — يكتبون وثائقهم وخطاباتهم باللغة الأغريقية ، ولقد بلغت الوثائق البردية الأغريقية التى عثر عليها فى مصر من الكثرة والأهمية ما اقتضى أن تخصص لها دراسة جديدة قائمة بذاتها ، يتوفر الآن على العمل فى رحابها لفيف من العلماء الذين ملأت أبحاثهم المنشورة للآن مجلدات عديدة .

ولا نزاع فى أن المعلومات التى زودتنا بها هذه الوثائق فاقت كل ما عرفناه من المصادر الأخرى عن تاريخ أى بلد من البلاد أو أى عصر من العصور. هذا باستثناء الوثائق المكتوبة بالخط الاسفينى «الاشورى البابلى». ومع ذلك فأن مما يؤسف له أن هذه الوثائق البردية الاغريقية تعطى صورة زائفة عن الحالة اللغوية فى مصر. إذ لما كانت الاغريقية لغة الدولة فقد استلزم الأمر أن تدون بها كافة الوثائق سواء أكان كاتبها يعرف الاغريقية فيكتبها بنفسه، أو لا يعرفها فيستخدم كاتباً عاماً لهذا الغرض. يضاف إلى ذلك أن وفرة وجود الكتبة الاغريق قد يسر كتابة الخطابات أيضاً بالاغريقية حتى ولو كان المرسل والمرسل إليه يجهلانها أو ربما كان لهما بها إلمام بسيط. هذا ومع انه يحتمل عدم اختلاف استعمال اللغة المصرية ـ سواء فى الكتابة أو فى الكلام ـ فى عصرى البطالمة والرومان عما كان عليه فى عصورها الأولى أو المتأخرة، فأنه يبدو أن أى مصرى كانت لديه المقدرة والوسائل لتعلم الكتابة، كان يفضل أن يتعلم كتابة الاغريقية، على أن غالبية أهالى مصر كانت عندئذ لا تعرف الكتابة بأى خط كان. فمن الخطأ البين إذن أن نزعم بأن كافة المصريين كانوا يستعملون الاغريقية دون سواها أو كانوا يستعملونها عادة أو حتى فى بعض المناسبات. والحقيقة هى أنه منذ عهد الاسكندر وما بعده، ازداد استعمال اللغة الاغريقية وقل استعمال الديموطيقية، إلى أن انتهى الأمر بعد عدة تجارب بظهور اللغة المصرية الدارجة بحروف أغريقية، فكانت اللغة التى نعرفها بالقبطية.

—*—

انتشار المسيحية فى مصر

من مظاهر النظام الجديد الذى أنشأه الاسكندر ، ان تيار التأثيرات الثقافية لم يتجه فى ناحية واحدة ، فإذا كان الشرق قد اصطبغ بالطابع الهلينى فان العالم الأغريقى قد اصطبغ بالطابع الشرقى ، وقد وضح ذلك بصفة خاصة فى شؤون الدين .

ولقد ساهم الشرق فى تكوين أصول الثقافة الاغريقية التى ترجع جذورها إلى الماضى المكينى العظيم (Mycenaean) ، حينما كانت هناك اتصالات بمصر وفينيقيا وبابل النائية ، وان كانت هذه التأثيرات قد ظلت قاصرة على مستوى الحضارة الاغريقية المحدود ، لتطفو بين حين وآخر كطقوس دينية غامضة . بيد ان الثقافة الاغريقية بلغت بوجه عام مستوى عقليا وفكريا لم يسمع به من قبل فى الشرق ، ولم يتخطاه الانسان اطلاقا فى كافة عصور تاريخه الطويل. أما الطقوس الوثنية البسيطة الخاصة بالمدن والقرى الاغريقية ، فقد انغمرت فى فيض من الاساطير الوطنية التى وجدت تعبيراً لها فى الآداب والفنون ، غير انها لم تتخذ شكل علوم لاهوتية أو نظام دينى مقرر يتحتم على الجميع اتباعه . ولقد أدى شغف الاغريق بالاستقصاء والبحث عن الحقيقة ، إلى استكشاف أسرار الكون ، وإلى فحص الطبيعة البشرية والعلاقات الاجتماعية وإلى تقرير أهمية الفكر . وبينما هم يتابعون هذا السعى الخطير إذ بهم يتركون الدين ، فلم يتأثر بالعلم وقواعد الاخلاق ، ناسين كل مايتصل بخلاص نفوسهم . ولكن بمرور الزمن ، عندما فقدت الفلسفة خصوبتها وثقتها ، وعندما كثر السفسطائيون والمتحذلقون بينما المجتمع يتدهور ، أخذت العناصر الرشيدة تتجه نحو الدين . غير ان العقائد الاغريقية القديمة الممثلة فى فنونهم وآدابهم كانت قد فقدت قدرتها للخلاص ، فلم يجدوا بدأ من التماس ضالتهم فى تلك

الطقوس الدينية الغامضة ، رغم عدم استقامتها مع اساليبهم الفكرية . وهكذا كان العالم الهيليني الذى اوجده الاسكندر اغريقيا وشرقيا معا ، نشأت فيه - عن طريق لغة مشتركة - مجموعة من الأديان المختلطة لا هى شرقية ولا غربيـة ، وكان للشرق النصيب الأوفر فى ذلك ، ولكن الغرب كان يحول الطقوس الوثنية الشرقية إلى طقوس غامضة وفقاً لأغراضه ، بل وكان يبعث بها ثانية إلى الشرق .

ولقد بلغت هذه الأديان المختلطة أوجها فى العصر الرومانى . ومع أن مصر بدأت منذ عام ٥٠ ق.م تتأثر بالسياسة الرومانية ، وأصبحت ولاية رومانية عام ٣٠ ق.م ، إلا أن النفوذ الثقافى الرومانى ظل مهملا . واستمرت عبادة الآلهة المصرية القديمة على جلالها ، فى معابد أحدث وأفخم ولكن كهنتها أصبحوا الآن من الاغريق ، كما أضحت الآلهة نفسها شخصيات غامضة . وكان سيرابيس أعظم آلهة ذلك العصر ، وقد ابتدعت عبادته فى العصر الاغريقى لأغراض سياسية . ولربما أتوا به من آسيا ولكن اسمه - باشتقاقه المألوف هذا - قد أوجد له صلة بكل من أزوريس أقدم وأعظم الآلهة المصرية وأبيس عجل منف المقدس ، وقصد بذلك الخلط أن يجعلوا منه معبوداً مشتركا لكافة المصريين . وقد نقلت عبادة سيرابيس وايزيس إلى روما لتكون ملهاة لمن وجد من المخدوعين فى ذلك المجتمع الرومانى اليقظ .

أما الفلاح المصرى المسكين فلم يعد كل ذلك عليه بأى نفع . فقد كان يعتبر آلهته فى الماضى جزءا لا يتجزأ من حياته الزراعية العملية ، فكان يلتمس عونها من جهة ويقدم لها فروض العبادة من جهة أخرى ، بحيث لم تدع له قواه المنهوكة أى رغبة جدية فى بحث موضوع الخلاص . واستمر الفلاح يعيش عيشة أجداده ، ولكنه كان حريصا على التمسك بأهداب الآداب والأخلاق ، إذ كانت آلهته تحضه على ذلك . على أن نظرته إلى آلهته كانت مختلفة تمام الاختلاف عن نظرة فلاسفة الاسكندرية وتلك الجموع المختلطة التى كانت

تحتشد فى معبد سيرابيس هناك .

وجاءت المسيحية إلى مصر كدين بسيط ينطوى على مبادىء للأخلاق موحى بها، تدعو إلى ان هناك حياة أخرى فيها ثواب للأبرار وعقاب للأشرار. وكانت هذه التعاليم بعينها أساس قواعد الأخلاق المصرية التى قامت عليها عبادة أزوريس، وكما كان أزوريس انساناً ثم صار إلهاً ، كذلك كان السيد المسيح له المجد إلهاً وانسانا . وكما كان أزوريس يدين الموتى فكذلك سيدينهم المسيح يوما ما . هذا ولما لم يكن فى عبادة أزوريس أى مجال للغفران أو الفداء ، فأنهم لم يتقبلوا كثيراً العقيدة المسيحية الخاصة بالفداء فى شخص المسيح ، رغم انها أساسية .

صلب يسوع حوالى عام ٣٠ م واستشهد القديس بولس فى روما عام ٦٤ م وفيما بين سنة ١٨٨ (أو ١٨٩) وسنة ٢٣١ كان الأنبا ديمتريوس الأول اسقفاً على الاسكندرية . وحوالى سنة ١٩٠م وجدت بالاسكندرية مدرسة لاهوتية، ولم تأت سنة ٢٠٠م حتى كانت المسيحية قد انتشرت انتشاراً واسعاً بين المصريين الوطنيين، وامتلأت الدلتا بالمتنصرين. وفى عام ٢٠٤م حرم الأمبراطور سبتيموس سيفيروس (Septimius Severus) على الرعايا الرومان اعتناق المسيحية .

وكان من الطبيعى أن تتطلب الأعمال التبشيرية التى أتت بهذه النتائج ، الاستعانة ببعض فصول الكتاب المقدس. ومن المحتمل انه اكتفى فى الاسكندرية بنصوص الكتاب الاغريقية ، سواء أكان المبشرون من الاغريق أو المصريين، أما خارج الاسكندرية ـ وحتى فى الدلتا ـ فيكاد يكون مؤكداً ان اللغة المصرية كانت لغة التبشير ، وكان ذلك مؤكداً دون أدنى شك فى مصر العليا. ويبدو ان المبشرين ظلوا وقتاً طويلا يعلمون المتنصرين أجزاء من الأناجيل والمزامير بعد ترجمتها ترجمة ركيكة ، ولكنهم ما لبثوا ان لمسوا الحاجة الماسة إلى اخراج ترجمة باللغة المصرية الدارجة ، مدفوعين إلى ذلك بالرغبة فى تنسيق عملهم

والقصد من جهدهم . غير ان تعليم اللغة الديموطيقية المعقدة الجافة لتلك الألوف المؤلفة من الريفيين الأميين كان أمراً مستحيلا ، إذ الواقع ان هذه اللغة كانت بالنسبة اليهم حينئذ كاللغة اللاتينية إلى الايطاليين . هذا فضلا عما كانت تزخر به من المشتقات والرموز الوثنية . لذلك كان من الأيسر عليهم ان يكتبوا لغتهم الريفية التى كانوا يتخاطبون بها بحروف الابجدية الاغريقية أى من الناحية الصوتية فقط . حقيقة كان دون ذلك صعاب ، فمن جهة كان لكل أقليم لهجته الخاصة ، ومن جهة أخرى كان هناك أصوات فى اللغة المصرية لا يقابلها حروف فى الابجدية الاغريقية . ولا شك ان تنظيم مثل هذه اللغة الدارجة الجافة لمن الأمور العسيرة التى لا تتأتى إلا لعالم فى اللغة أو النحو ، ليخضع اللغة الدارجة لقواعد ثابتة .

ومنذ عام ٢٠٠م قامت محاولات بسيطة وفردية لكتابة اللغة المصرية بحروف اغريقية ، وكان يؤتى للصوت الغريب بحرف اغريقى مقارب وإلا استعمل الحرف الديموطيقى . على ان كافة هذه المحاولات كانت وليدة الحاجة لسبب أو لآخر، دون ان يكون لذلك أى شأن بالمسيحية . وانتهى الأمر بان استطاع شخص أو جملة اشخاص استحداث ما نسميه الآن « اللغة القبطية » ، وما هى فى الواقع سوى اللغة المصرية الدارجة لذلك العهد ، كتبت بحروف اغريقية ، واضيفت اليها بعض حروف مأخوذة عن الديموطيقية ، ثم وضعت لها قواعد النحو والهجاء . ولدينا اكثر من سبب يحملنا على الاعتقاد بأن هذا العمل الفنى الرائع قام به لغويون على جانب كبير من الخبرة اللغوية .

نستطيع القول إذن ان اللغة القبطية ظهرت مع آدابها فيما بين سنتى ٢٥٠ و٣٥٠ م . وقد حدث عام ٢٥٠ اضطهاد ديسيوس (*Decius*) ، وهو آخر امبراطور رومانى نقش اسمه بالهيروغليفية فى المعابد المصرية . وبعد ذلك بسبع سنوات وقع اضطهاد فاليريان (*Valerian*) . غير اننا إذا أستندنا إلى ما هو معروف من استمرار استعمال اللغة المصرية القديمة فيما بعد ، لحكمنا بأن

الوثنية ظلت باقية بعد ذلك بنحو مائتين من السنين ، إذ يرجـــع تاريخ آخر ما لدينا من النقوش الهيروغليفية إلى عام ٢٩٤ م ومن النصوص الديموطيقية إلى عام ٤٥٢ م .

نعرف أنه وجدت اختلافات كبيرة بين شتى لهجات اللغة المصرية القديمة ، ولا ريب أن بعض هذه الاختلافات على الأقل كان أساساً لما وجد منها فى اللهجات القبطية المتعددة . وعلى ذلك يمكن القول أنها جميعاً قديمة جداً . أما محاولة تحديد الوقت الذى وضعت فيه قواعد الـــكتابة لكل منها حتى أمكن استعمالها فى الأغراض الأدبية ، فهذا موضوع آخر . لقد كان هناك خمس لهجات أدبية فى اللغة القبطية ، أشتقت كل منها من لغة التخاطب فى جهة معينة . ولدينا كميات وفيرة من رسائل ووثائق تخص أفراداً من الشعب توضح لنا ما كان للهجة الكلام المحلية أو الشخصية من أثر لم يستطع معلم المدرسة محوه . إذ أن القبط — دون سائر الشرقيين — يميلون ميلا شديداً لكتابة الألفاظ كما ينطقـــونها .

ومع أن هناك من الأسباب التاريخية ما يحملنا على الاعتقاد بأن هذه اللهجات المختلفة ظهرت فى أوقات مختلفة ، إلا أن هناك أيضاً ثمت إصطلاحات مشتركة بينها جميعاً ، مما يشير إلى أن كافة هذه اللهجات صادرة عن أصل واحد أو أنها تأثرت بذلك . فمثلا نجد أن الحرف (تى القبطى) المشتق من الديموطيقية يستعمل فيها جميعاً عوضاً عن « Ti » الذى يؤدى نفس الصوت . كذلك كانت الحروف الأغريقية (ثيتا . فاى . كى) تنطق (ث + ه) (ب + ه) (ك + ه) بدلا من النطق المعتاد الذى كان معروفاً فى ذاك الوقت . لقد احتاجت اللغة القبطية إلى حروف تؤدى الأصوات المشار إليها ، فاستعملت هذه الحروف الثلاثة التى كان استعمالها الأصلى قد بطل ، بحيث لم تكن معروفة سوى للغويين والنحويين . ثم بعد أن تم استعمال هذه الحروف الثلاثة فى الغرض المتقـدم ذكره ، استلزم الأمر إحلال حرفين ديموطيقيين محل الحرفين (فاى وكى) ،

أما الحرف الثالث فقد استغنى عنه . وكانت اللهجة البحيرية فقط هى التى تطلبت هذه الاجراءات ، فقد كانت لهجة أهالى الاسكندرية ، حيث كان يوجد العلماء الاكفاء لمثل هذا العمل ، والذين كانوا يعرفون أن هذه الحروف الاغريقية الثلاثة كانت رخوة تنطق فى الأصل مضافا اليها حرف الهاء . نستطيع أن نفترض إذن أن اللهجة البحيرية كانت أول لهجة وضعت لها قواعد للكتابة ، وأن هذا العمل تم فى الاسكندرية . ثم أن البحيرية هى اللهجة الوحيدة التى سدت كافة إحتياجاتها عن طريق الاستعارة من اللغة الديموطيقية . ويبدو أن أساليب كتابة اللهجات الأخرى تمت على أيدى اشخاص إما لم تكن لهم معرفة بالديموطيقية ، أو انهم قنعوا بأن يتخذوا من قواعد الكتابة البحيرية أساساً لعملهم . غير أنه مما يؤسف له أن خصائص الكتابة باللهجة البحيرية الأولى لم تعرف ، نظراً لضياع كافة الوثائق البردية الهامة المكتوبة بالبحيرية فى عصورها الأولى .

ويحتمل أن تكون اللهجة الصعيدية قد نشأت عقب البحيرية مباشرة ، ويبدو أنها مشتقة من لغة التخاطب التى كانت تسود الجزء الشمالى من وادى النيل ، فيما بين بابيلون (منف) وأسيوط . وفيما بعد استعملت اللهجة الفيومية فى الفيوم واللهجة الأخميمية فى منطقة اخميم . أما اللهجة المشتقة من الأخميمية فيرجح أنها مأخوذة من لغة التخاطب فى ذلك الجزء من الوادى جنوب المنطقة التى كانت تسودها اللهجة الصعيدية . وهناك لهجة سادسة يشير اليها الكتاب الوطنيون وهى البشمورية ، ولربما كانت لغة مصرية دارجة استخدمها الاغريق المقيمون فى شرق الدلتا ، وكتبوها بالحروف الاغريقية العادية .

وتكثر فى جميع اللهجات القبطية الكلمات المستعارة من الاغريقية ، استعير بعضها دون شك قبل العصر القبطى واصطبغت بالطابع الوطنى تماماً ، وأدخل البعض الآخر مع تعاليم المبشرين . ثم وهناك كلمات استعملت على الأخص فى الكتابات المترجمة عن الاغريقية ، ربما نتيجة لكسل المترجم أو لتفضيله الكلمة الاغريقية أو لعدم استساغته للكلمة القبطية أو لنفوره من ترجمة عبارة لاهوتية

ويتفاوت استعمال هذه الكلمات فى مختلف اللهجات .

وكانت باكورة الآداب القبطية ترجمة البشائر والمزامير - على ما يرجح - عن الاغريقية ، ولا ريب أن ذلك كان عملا شاقاً ، ولكنه تم على أحسن وجه ، ولا ترجع صعوبة ذلك إلى نقص فى مقدرة المترجمين ، وإنما كانت اللغة القبطية لغة ريفية جافة ، واقتضى الأمر صقلها بحيث تصبح صالحة للكتابة . وتوالت ترجمة الكتب الكنسية الأخرى إلى القبطية حتى مجمع خلقيدونية (٤٥١ م) حينما فقد القبط كل اهتمام بذلك .

نساك الـــبرية

قدمت مصر للمسيحية مظهرين من أروع وأهم مظاهرها ، ألا وهما الناسك والراهب . ولقد ظلت حياة التنسك - بوجه عام - تقليداً مكتوباً فى أوروبا نتيجة للظروف الجوية هناك ، بينما أصبحت الحياة الرهبانية فى مظهرها الجماعى الأمينة على المعارف والحياة الصالحة. أما فى مصر فقد ساعدت الظروف الجوية على استمرار حيـاة التنسك وقتاً طويلا ، بينما تحولت الجماعات الرهبانية حصوناً منيعة للمحافظة على العقيدة .

وليست فـكرة ترك الانسان لهمومه والنأى عنها بعيداً فـكرة مستحدثة . ومصر من البـــلاد القليـلة التى يستطيع المرء فيها أن يعيش فى الخلاء فى أى وقت يشاء . ولا يعوزه لذلك سوى أن يستقر بجوار نبع ماء ، أو يأوى إلى مغارة أو قبر قديم ، أو كوخ من الأحجار أو من البوص أو اللبن . كذلك يستطيع الحصول على ما يسد به رمقه عن طريق المقايضة على ما كان يصنعه من سلال وحبـال أو بالسؤال ، إذ أن المصرى قنوع كريم بطبعه . أما العوامل التى تدفع بالانسان إلى الابتعـاد عن العالم ، فقد تكون عدم التوفيق أو فشل الحياة العائلية أو بسبب الدين أو لجريمة ، أو بمجرد حب العزلة ، وللصحراء سحر لا يدرك كنهه إلا من اختبره . هذا وقد كان الفلاح المصرى فى عصور المسيحية الأولى يئن تحت نير المالك الاغريقى الوثنى ، كما كان يضطهد بسبب دينه من حين لآخر . بيد أن هناك عامل اكثر جدية وأشرف غاية حفزه للفرار إلى البرية ، ذلك أنه بموجب ديانة أزوريس التى اعتنقها اجداده ،كانت الخطية غير قابلة المحو ، لا بالتـكفير ولا بالتوبة ، فلم يكن الشرير مستحقاً الخلاص . فلما جاءت المسيحية انصرف اهتمام المتنصر المصرى إلى التفكير فى الابتعاد عن الخطية أكثر من التـكفير ، فما التوبة سوى الملجأ إلى الخلاص قبل

أن يفوت الوقت . وإذ كانت الخطية تأتى غالباً من جراء علاقات الانسان بأخيه الانسان فبالوحدة تصير العلاقات بين الناس أقل تعقيـــداً كما تزول الشهوات الجسدية .

ويأتى بعد ذلك موضوع الأملاك الشخصية . ألم يقل السيد المسيح له المجد « اذهب بع كل مالك واعط الفقراء فيكون لك كنز فى السماء » (مرقس ١٠ : ٢١) ؟ لقد أعطيت هـذه النصيحة لشاب غنى مستقيم الخلق يعيش عيشة صالحة ، ولكنه مع ذلك كان فى شك من أمر خلاصه ، واقترنت بدعوة السيد له ليتبعه ويكون أحد تلاميذه . حقيقة لم يكن الفقر شرطاً مفروضاً أو مطلوباً لنوال الخلاص ، ولكن أوصى به لأولئك القلقين بسبب ممتلكاتهم ، كما طلب من هؤلاء الراغبين فى أن يكونوا تلاميذ المسيح ، إذ أن « اتباع » المعلم أجل قدراً من مجرد « ميراث الحياة الأبدية » . هذا وليس هناك ما يبرر الزعم بان ذلك الشخص كان « رجلا غنياً شريراً » ، كما يصوره لنا بعض الوعاظ فى وقتنا الحاضر . وعلى ذلك فمع أن هذه الآية تخلى سبيل المسيحيين الأغنياء ، إلا أنها تعلمنا أن الفقر هو أقوم سبيل فى الحياة ، وانه السبيل الوحيد لمن يتوق إلى أن يكون تلميذاً للمسيح . كما انها تعلمنا أيضاً أن الفقر هو العلاج الوحيد للضمير القلق ، وأن فى الامتناع عنه بعد يقظة الضمير لدليل على عدم استحقاق الخلاص . ولقد كان النساك والرهبان المصريون يعتبرون أنفسهم تلاميذاً للمسيح تيقظت ضمائرهم ، وتاقت نفوسهم إلى الحياة المثلى .

وكان القديس أنطونيوس أول النساك المصريين وأنبههم ذكراً ، وأصله فلاح من أهالى مصر الوسطى ، لا يعرف سوى لغتـه الدارجة الجافة . وقد تنسك عام ٢٧١ م ، وأقام فى الجبال الواقعة شرقى افروديتوبوليس (اطفيح الحالية) ، غير أن مظاهر التبجيل التى كان يغدقها عليه مريدوه الكثيرون أزعجته وضايقته ، حتى اضطر إلى التوغل شرقاً حيث عاش فى الجبال القائمة قرب البحر الاحمر .

ولما كان الانسان حيواناً اجتماعياً حتى فى حالة فراره من المجتمع ، فقد تجمع النساك فى المناطق الملائمة لحياتهم ، والتى كانت لها شهرة خاصة . وبطبيعة الحال كان الناسك عند اعتزاله فى البرية يتوق إلى ان يكون بالقرب من رجل عرف بقداسته ، كيما يفوز منه بكلمة عارضة من كلام الوحى قد يفوه بها رداً على مسألة روحية ، بل قد يصبح تلميذاً له . هذه هى الدوافع الطبيعية لدى الناسك المبتدىء ، وهناك مشكلة المرض والموت ، هذا ولا ضير من التعاون المحدود فى أعمالهم اليدوية وفى بيع منتجاتهم . وهكذا تكونت جماعات غير منظمة من هؤلاء النساك . ولدينا صورة من حياة هذه الجماعات فى الكتاب المعروف باسم « أقوال الآباء المصريين » (بستان الرهبان) ، المحفوظ باللغات القبطية والاغريقية والسريانية ، ولا شك ان النسخة الأصلية كتبت بالاغريقية فى مصر . وتختلف النسخ الثلاث فى الترتيب وكذلك فى المحتويات . على انها جميعاً ليست فى متناول القارىء العادى ، وهو أمر يؤسف له حقاً ، إذ انها تحوى من المعلومات ما يقصر دونه كل وصف وهذا ما يحفزنا لتقديم طائفة من المقتطفات مترجمة بتصرف عن النسخة القبطية بعد اختصارها وتنسيقها بعض الشىء حتى تسهل قراءتها .

فإليك مثلا تلك المبادىء الأربعة البسيطة لسلوك الراهب ، التى تضمنها قول أباهور : « أنه لم يكذب قط ولم يحلف ولم يسب أحداً ولم يتكلم بدون موجب » .

وكانت التجارب تنهال دائماً على الرهبان فى هيئة « أفكار » ، نتيجة لغارات الشياطين . فلما سئل أحد الرهبان : « لماذا يحاربنا الشيطان ؟ » ، أجاب : « لأننا نزعنا عنا سلاحنا الذى هو احتقار هذا العالم والتواضع والمناعة والصبر » .

وكانت الأحلام والرؤى الشريرة تزعج الرهبان ، غير انها كانت احيانا مصدر عزاء بل وغبطة لهم ، وكان الشيطان يظهر غالبا فى هذه الرؤى فى هيئة

رئيس الملائكة جبرائيل أو ميخائيل ، ولكنها مع ذلك كانت تعتبر فى نظرهم خطرة وينبغى اجتنابها ، إذ اعتاد الشيطان ان يتخذ هذه الهيئات الملائكية كى يخدع المؤمنين . وقد ظهر مرة على هذه الصورة لأحد الاخوة وقال له : « أنا جبرائيل أرسلت إليك » ، فأجاب الأخ : « لعلك مرسل إلى أحد الأخوة الآخرين ، لأنى لست أهلا لذلك » ... ، وعندئذ اختفى الشيطان لساعته مدللا بذلك على أن هذه الرؤيا كانت زائفة وخبيثة . لذلك نجد فى أقوال الرهبان « حتى إذا ظهر لك الملاك حقيقة فلا تستقبله بل تواضع وقل له : « انى لست جديراً برؤية الملاك لأنى أعيش فى الخطية » .

ولقد أوحى مرة إلى راهبين أن علمانياً يدعى يوخاريستوس وزوجته مارية قد وصلا إلى درجة من الكمال تفوق ما كانا عليه ، فلما عثرا عليهما وسألاهما أجاب يوخاريستوس فى تمنع « انى راعى غنم وهذه زوجتى ... ، لقد ترك لنا أباؤنا هذه الأغنام ، والصوف الذى يضعه الرب عليها ليكون من نصيبنا نقسمه إلى ثلاثة أقسام ، قسم للفقراء والثانى للغرباء والثالث لاستعمالنا . ومنذ زواجنا لم يتدنس أحدنا بل بقينا أبكاراً ، وكل منا ينام فى الليل بمفرده داخل كيس ، أما بالنهار فنرتدى ملابسنا ، وحتى هذه اللحظة لا يعلم أحد بذلك » .

وتعطينا قصة الأخوين الغريبين فكرة واضحة عن حياة هؤلاء القوم فى البرية . أقبل ذات يوم غريبان على الأنبا مكاريوس ، القديس الشهير الذى عاش فى وادى النطرون بالصحراء الليبية فى المكان الذى يدعى شيهات . وكان يبدو عليهما أنهما أجنبيان وصغيرا السن بل كان أحدهما فى الواقع صبياً ، كما كان مظهرهما يدل بوضوح على أنهما من أولاد الأثرياء . وقد أخبرا القديس بأنهما سمعا عنه وعن برية شيهات ، وبأنهما رغبا فى رؤيته وفى الأقامة هناك . ولما لم يستطع القديس أن يثنيهما عن عزمهما أعطاهما فأساً وسلة تحوى خبزاً وملحاً ، وأراهما صخرة وقال : « اقطعا أحجاراً من هذا المكان واحضرا بعض

قطع الأخشاب من المستنقع واصنعا لكما مسكنا، ثم تناول بعض سعف النخيل من المستنقع وأراهما كيفية ضفرها وعمل السلال بها وأردف قائلا : « اصنعا سلالا واعطياها إلى الحراس فيحضرون لكما خبزاً » . وبعد مضى ثلاث سنوات لم يزعجاه خلالها اطلاقاً ، زارهما القديس فوجدهما فى مأواهما يضفران الخوص فى صمت تام إلا عند الضرورة القصوى . ولما أقبل الليل « انشق السقف وأضاء المكان بنور كنور النهار . . . فنهضا وتمنطقا ورفعا أيديهما إلى السماء . . . . . ورأيت الشياطين تحوم حول أصغرهما كأنها ذباب بعضها يهبط على فمه ، وبعضها الآخر على عينيه ، ثم رأيت ملاك الرب وبيده سيف من نار يحوطه به طارداً عنه الشياطين التى لم تستطع الاقتراب من الأخ الأكبر » . وعندما كان الأخ الأصغر يتلو المزامير « كان ينبثق من فيه عند كل آية شعلة ملتهبة تصعد إلى السماء » ، وعندما فتح الأخ الأكبر فاه للترتيل « خرج من فمه ما يشبه لسانا عظيما من النار وصل إلى السماء » . ومن ثم تلى القديس بعض صلوات محفوظة وقال « صليا من أجلى » ، فقد أدرك القديس عندئذ « ان الأخ الأكبر وصل إلى درجة الكمال ، بينما كان الأصغر لا يزال يجاهد مع العدو » . وبعد أيام قليلة توفى الأكبر ولحقه الاصغر بعد ثلاثة أيام . « وكلما ذهب بعض الرهبان إلى أنبا مكاريوس كان يأخذهم إلى قلايتهما ، قائلا : « تعالوا وعاينوا الشهادة التى تركها الغريبان الصغيران » .

وفيما يلى قصة من ذلك النوع المغاير الذى يذكرنا بقصة تاييس ، تتضمن التوبة بعد الكثير من الخطايا : -

رأى أنبا سرابيون امرأة خاطئة فقال لها « اننى آت اليك هذا المساء فأعدى نفسك » ، ولما جاءها قال لها : « تمهلى قليلا حتى أؤدى فرضاً علىّ » ، فقالت له « حتمنا يا أبى قم » ، فأخذ يرتل مبتدئا من المزمور الأول حتى اتمه ، ثم سجد ثلاثاً ، وظلت هى تصلى وراءه فى خوف ورعدة ، وتابع هو صلاته من أجل خلاصها وكان ان استجاب الله لصلاته . فألقت المرأة بنفسها عند

قدميه باكية مسترحمة ، وقالت له « أحسن إلىّ يا أبت وخذنى إلى المكان الذى تعلم ان فيه خلاصى إذ أن الله قد أرسلك إلىّ لهذا الغرض » . وكان أن أخذها إلى دير للعذارى وقال لرئيسته : « خذى هذه الأخت ضمن راهباتك دون أن ترهقيها بالواجبات ولا بالأوامر بل دعيها تفعل ما تشاء ، أتركيها بمفردها فى رعاية الرب » . وبعد أيام قليلة قالت : « أننى خاطئة ولا أريد أن أكل إلا مرة واحدة فى اليوم » . وبعد فترة أخرى قالت « أريد ان أكل مرة واحدة فقط فى الأسبوع » . ثم قالت فيما بعد « ضعونى فى صومعة منفردة لأنى ارتكبت كثيراً من الخطايا ، واعطونى الطعام من كوة الباب مع ما علىّ أن أؤديه من عمل يدوى » . ففعلوا ذلك ، ووجدت مسرة فى عينى الرب ، ولم تلبث حتى رقدت فى الرب هناك .

وكان هؤلاء الرجال القديسون يمتنعون عن عمل المعجزات ، حتى لا يداخلهم الغرور والكبرياء البغيض أو ينتهى بهم الأمر إلى احتراف ذلك . ولكنهم كانوا قديرين على إتيان العجائب ، وليس أدل على صدق ذلك من الحالات التى كانوا يستدرجون فيها إلى التفوه بالكلمات المطلوبة حتى تحدث هذه العجائب دون أن يتعمد هؤلاء القديسون عملها ، بل كانت كلماتهم وحدها كافية لإحداثها كما لو كانت سحراً

وقد حدث أن ذهب أحد العلمانيين مرة مع ابنه إلى أنبا بيجوى الذى كان يعيش فى برية الأنبا أنطونيوس ، ومات ابنه فى الطريق ولكنه مع ذلك لم ييئس ، بل أخذه إلى الراهب فى عقيدة وايمان وطيد ، وهناك ألقى بنفسه مع ابنه كما لو كانا يقومان بالاعتراف أمام الراهب ليباركهما ، ثم قام الوالد واقفاً ووضع ابنه عند قدمى الراهب وخرج من الصومعة ، أما الراهب فقد ظن أن الصبى راكع أمامه لينال البركة فقال له « قم وامش » ، لأنه لم يكن يعلم أن الصبى ميت ، وفى الحال قام الصبى ومشى . فلما رأى أبوه ذلك تعجب ودخل الصومعة ملقياً بنفسه أمام الراهب وأخبره بالأمر ، فسمع الراهب ذلك

ولكنه حزن إذ لم تكن له رغبة فى عمل كهذا ، ونهرهما تلميذه قائلا «لا تخبرا أحداً بذلك طالما الراهب على قيد الحياة» .

ومن الطريف أن نعلم أن أنبا بيجوى كان له تلميـــذ وكان مقيما فى رية القديس أنطونيوس ، الذى سبق أن لجأ إلى الصحراء هرباً من التلاميذ .

وتبين القصة التالية مثلا من أمثلة التعاون الذى كان قائماً إذ ذاك بين النساك المتجاورين .

يحكى أن أحد الاخوة كان يقوم بصنع السلال ويعمل مقابض لها ، فإذا به يسمع جاره يقول «ماذا عسانى أنا صانع بهذه السلال ؟ لقد أوشك العمل فيها على نهايته وليس لدى مقابض لها» . فقام الأول وانتزع المقابض التى كان قد وضعها فى سلاله وأحضرها إلى أخيه قائلا : «أنظر لقد فاضت هذه المقابض عن حاجتى ، خذها وضعها فى سلالك» . وهكذا عجل باتمام عمل أخيه مؤجلا عمله هو .

وفى حالة واحدة على الأقل كان هناك راهبان يعيشان معاً ، هما أبا هور وقد كان مريضاً وملازماً الفراش مدة ثمانية عشر عاماً ، وأبا هاترى الذى كان يقوم على خدمته ، إذ كانا من أقليم واحد . «وقد حل بينهما سلام عظيم إلى أن افترقا بالجسد ، فقد كان أبا هاترى مثالا للطاعة العظيمة كما كان أبا هور مثالا للتواضع الكبير» . ويروى لنا أنبا بيجوى كيف أن «شخصاً أحضر لهما سمكة صغيرة ، فأراد أبا هاترى أن يطهيها لأبا هور ، فأخذ سكيناً ليشق بها السمكة ، وفى تلك اللحظة احتاج إليه الشيخ المريض فناداه : هاترى هاترى ، فما كان من الأخير إلا أن ترك السكين فى السمكة ولم يكمل قطعها بل أسرع إليه ملبياً نداءه» .

وراوى القصة «يعجب لهذه الطاعة الشديدة فأنه لم يطلب منه أن ينتظر حتى يكمل تقطيع السمكة» . أما عن تواضع الشيخ فيظهر أيضاً فى هذه المناسبة ، إذ أن أبا هاترى قام بطهى السمكة الصغيرة وتعمد أن تكون سيئة الطهى ثم

قدمها للراهب الشيخ فما كان منه إلا أن أكلها وهو راض لم يقل شيئاً ، فقال له أبا هاترى : « أتراها جيدة الطهى ؟ » . فأجاب الراهب : « حسنة جداً » . ثم أن أبا هاترى ، قدم له شيئاً قليلا منها كان قد أجاد طهيه فعلا وقال له : لقد أتلفتها ، فأجابه قائلا : نعم لقد أتلفتها قليلا » .

ولدينا قطعة من الشقف يرجع تاريخها إلى العصور المتأخرة كتب عليها الخطاب الآتى ، الذى يبين أن بعض الرجال كانوا يلجأون إلى الصحراء تخلصاً من التزاماتهم :-

« أخبرك أن الأمر أصبح شائناً بل شائناً جداً . أنك تعذب نفسك فى الصحراء ولكن الدائن يعذبنى أنا هنا . لقد مضى الموعد الذى كان يجب أن تدفع فيه ، وقد سألته أن يمهلك لمدة عام ، وها قد مضى عام ونصف منذ ذهابك إلى الصحراء ، ويمكنى بالطبع أن أرسل إلى الصحراء من يستخلص الدين منك ، ولكنى لا أود أن أكون سبباً فى إيذائك وذلك من أجل الرب . ماذا ؟ لقد سددت عنك الفوائد عن سنتين وهم الآن يصرون على وجوب دفع المبلغ هذا الشهر ولكنى مندهش لك كثيراً ..... »

وكانت أول جماعة رهبانية منظمة هى جماعة باخوميوس بطبنيسة قرب فاو فى الصعيد الأعلى ، وقد تأسست حوالى عام ٣٢٠ م . وكان باخوميوس مصرياً وطنياً ، واسمه « باخوم » من الأسماء الوثنية وقد تبعه تاودروس وهورسيوس . ولا بد أن اللهجة القبطية التى كانت سائدة هناك هى اللهجة المشتقة من الأخميمية ، وأما لغة الكتابة والأدب فى هذه المؤسسة فكانت الصعيدية .

أما سبب انتقال هذه اللغة من مصر الوسطى فليس معروفا لدينا ، ولعل لغة هذه البقعة المأهولة كانت سائدة فعلا فى مصر الوسطى والعليا .

وكانت الجماعة تخضع لعدد من القوانين التى أصبحت فيما بعد عظيمة الأهمية فى تنظيم الجماعات الرهبانية الأخرى . وقد سجل باخوميوس وتلاميذه الذين

خلفوه أول نتاج فى الأدب القبطى الصعيدى الأصيل أى الذى لم يترجم عن الأغريقية . وما زالت قوانين باخوميوس وآدابه باقية فى أغلبها حتى الآن بالأغريقية واللاتينية . وأما ما بقى من الآداب الأخرى الصعيدية فقد اختلط بمواد دخيلة ، وأصبح قليل الوضوح نظراً لما فيه من رموز غامضة واختصارات مخلة .

وأما بدء تكوين جماعات المتوحدين فى النطرون والأسقيط (برية شيهات) فى الوجه البحرى حوالى سنة ٣٣٠م وانشاء الدير الأبيض قرب أخميم فى مصر الوسطى حوالى سنة ٣٥٠م ، فقد حدث فى فترة تالية كما سيأتى ذكره .

ومما يجدر ذكره بشأن العلاقة بين الكنيستين القبطية والارلندية ، فان ستانلى لين بول (*Stanley Lane Poole*) ، وهو كاتب ومؤرخ مشهور بدقة بحثه ، يعتقد ان هناك صلة مباشرة بين الكنيستين الارلندية والقبطية (أنظر كتاب « The Story of Cairo, London, 1902 » ص ٥٤ و ٥٥ و ٦٢) وأما مؤلف هذا الكتاب فيعتبر ان البينة على ذلك ليست كافية. غير أنه مفروض أن هناك سبعة من الرهبان الأقباط دفنوا فى ديزرت اولده (*Desert Ulidh*) بمقاطعة دونيجال (*County Donegal*) ، وأن قوانين باخوميوس كانت قائمة فى ليران (*Lerins*) ، حيث تلقى القديس باتريك علومه فى الجزء الأول من القرن الخامس ، وفى جلاستونبرى (*Glastonbury*) بانجلترا . كما يقال أيضاً ان مبانى الكنائس الارلندية الأولى كان لها صحن وخورسان جانبيان ، ولم يكن لها جناح ، كما كانت الكنائس المصرية فى أول عهدها . ومفروض كذلك ان الغلاف المعدنى (*Cumhdach*) الذى تحفظ بداخله الأناجيل فى الكنيسة الارلندية ، كانت له نفس المهمة التى للصندوق الفضى القبطى الذى يحتوى الأناجيل . كما أنه مفروض أيضاً أن المذبة التقليدية التى جاء وصفها فى المخطوطات الارلندية القديمة ، وثيقة الصلة بالمذبة التى كانت تستعمل فى الكنائس المصرية لطرد الذباب والبعوض بعيداً عن كأس التناول.

زعامة الاسكندرية

فى عهد قسطنطين الأكبر (٣٢٤ - ٣٣٧م) وهو أول امبراطور مسيحى، انعقد مجمع نيقية عام ٣٢٥م. وقد أصدر هذا المجمع حكمه ببطلان تعاليم أريوس الاسكندرى التى تقول على أن المسيح كان شبيهاً بالله وليس هو الله فعلا، وبأنه انبثق من الله قبل كل الدهور بقصد خلق العالم، كما أقر المجمع العقيدة القائلة بأن الآب والابن هما من جوهر واحد. وكان الوفد المصرى فى هذا المجمع مكوناً من الكسندروس الشيخ بابا الاسكندرية وأثناسيوس الشاب رئيس شمامسة الاسكندرية، ومن أريوس نفسه كاهن الكنيسة الرئيسية بالاسكندرية، وغيرهم من رجال الدين ذوى الاسماء الاغريقية من مصر وليبيا، ومن رهبان مصريين وطنيين من الصعيد. ويبدو أن هؤلاء الأخيرين كانوا متعصبين لبابا الاسكندرية، يعتقدون أنه على صواب مهما قال حتى وإن لم يفهموا شيئاً أو فهموا قليلا من الخطب والمناقشات والآراء اللاهوتية التى أبديت فى المجمع. على أن زعامة كنيسة الاسكندرية فى هذا النزاع كانت من الأمور الواضحة، وفوق ذلك فلما كان أعضاء الوفد الاسكندرى هم أكثر الحاضرين علماً فى مجمع نيقية فقد فوض اليهم تحديد التاريخ المضبوط للاحتفال بعيد القيامة. وقد كان فريق أريوس ضمن الوفد الاسكندرى من الاغريق، بينما كان فريق أثناسيوس من المصريين. وكان أثناسيوس، أياً كانت جنسيته، محبوباً جداً لدى المسيحيين الوطنيين فى الاسكندرية، ولدى الرهبان والمتوحدين، إذ أنه عاش بينهم ردحاً من الزمن، وعرف القديس أنطونيوس شخصياً، وقد أصبح فى نيقية بطل الارثوذكسية، وهكذا شقت الكنيسة المصرية طريقها فى العالم المسيحى.

وعقب مجمع نيقية بقليل مات الكسندروس وخلفه أثناسيوس فى منصب

بطريركية الاسكندرية الذى ظل بشغله من عام ٣٢٨ إلى عام ٣٧٣ م. والذى كان أهم كرسى بطريركى فى الكنيسة ، كما كانت الاسكندرية أهم مدينة فى الشرق كله . وبذلك أضيفت إلى أمجـــاد مصر القديمة والاسكندرية الهيلينية شهرة الدراسات المسيحية وقوة الزعامة الفعلية .

ولسنا فى حاجة أن نستعرض هنا تاريخ حياة القديس أثناسيوس بطـل الارثوذكسية ، تلك الحياة الطويلة الحافلة بآيات المجد ، ويكفى أن نتذكر أنه بواسطته أصبحت الكنيسة المصرية ليست فقط فى نطاق الارثوذكسية ولكن ـ فى الواقع ـ فى موضع الرأس منها .

وفى مجمع أفسس (عام ٤٣١م) أيد كيرلس بطريرك الاسكندرية العقيدة القـــائلة بأن القديسة مريم هى والدة الإله ، على نقيض تعاليم نسطوريوس بطريرك القسطنطينية. وفى المجمع المسمى « مجمع اللصوص » (عام ٤٤٩م) الذى انعقد أيضاً فى أفسس ، أمكن لديسقورس خليفة كيرلس أن يفوز بتأييد عقيدته التى تنص على ان المسيح كانت له حقا طبيعـــة مزدوجة قبل تجسده وطبيعة واحدة بعد التجسد ، هى الطبيعة الإلهية (المترجم . . هذا تفسير خاطىء من المؤلف تعتقد الكنيسة القبطية بطبيعة واحدة للكلمة المتجسد) وأقر مجمع خلقدونية (عام ٤٥١ م.) بهرطقة القائلين بالطبيعة الواحدة هذه ، كما أقر أن المسيح كانت له طبيعتان لا تمتزجان ولا تتغيران ، ولكنهما غير قابلتين للتمييز ولا للانفصال . وهنا فقدت الكنيسة المصرية زعامتها . وقد كان السبب الرئيسى فى صدور هذا الحكم فى خلقدونية هو البابا ليو الأكبر . ولكن كان الاسكندريون قد اعتادوا أن تكون لهم الزعامة ولم يكن للمجمع سلطان عليهم ، ووقفت مصر الوطنيـة متحدة تظاهر بطريرك الأسكندرية ، وكان أن تدفق الشعور القومى وهكذا بدأت الكنيسة المصرية شخصيتها القومية المستقلة.

وفى عهد زعامة الأسكندرية تحت رئاسـة أثناسيوس (٣٢٨ - ٣٧٣ م) ،

حدثت حركتان كان لهما أهمية عظمى فى تاريخ الرهبان والنساك المصريين، وبالتالى فى تاريخ الشعور القومى المصرى. وهما بدء تكوين رهبان الشركة فى نتريا والأسقيط عام ٣٣٠ م، وتأسيس الدير الأبيض عام ٣٥٠ م. أما نتريا فهى المنطقة الواقعة فى الجزء الغربى من الدلتا إلى الجنوب الشرقى من الأسكندرية، فى نطاق المنطقة العامة للهجة البحيرية. أما الأسقيط - وبالقبطية شيهات - فكانت فى وادى النطرون، وهو عبارة عن واحة طويلة من الأراضى البور الملحة التى تكثر فيها المستنقعات، وتقع على الطريق القديم بين منف وحافة صحراء ليبيا. ويحتمل أن تكون اللهجة البحيرية قد وصلت هذه البقعة من نتريا أو أنها كانت متوطنة هناك.

ومن جهة أخرى كان الدير الأبيض فى الصعيد أو على التحقيق فى مصر الوسطى قرب أخميم فى نطاق منطقة اللهجة الأخميمية. وكان الدير الأبيض مهداً للأدب الصعيدى (لا الأخميمى)، بينما كان وادى النطرون مهداً للأدب البحيرى. وفى الدير الأبيض أصبحت اللهجة الصعيدية هى اللغة الأدبية للكنيسة القبطية فى أزهى عصورها. وأما فى وادى النطرون فقد حفظت اللهجة البحيرية التى تمت بها الجهود التبشيرية الأولى، كما ترجم اليها الكتاب المقدس، فاصبحت لغة الأدب فى عصر النهضة القبطية المتأخر إذ أنه لما نقل مقر بطريركية الاسكندرية إلى القاهرة فى القرن الحادى عشر بعد منفاها فى وادى النطرون، أصبحت اللهجة البحيرية هى اللغة الرسمية للكنيسة القبطية.

وقد عاش فى الاسقيط القديسان مكاريوس وأمون وجمع كبير من النساك، ممن حفظت أخبارهم جيداً فى « أقوال الآباء المصريين »، الذى نقلنا عنه طرفا من قصصهم فيما سبق. هذا وقد بنيت عدة أديرة فى وادى النطرون لم يزل بعضها قائماً حتى الآن، غير أن أهمية هذا المركز الثقافى للغة القبطية البحيرية بمصر السفلى قد طغت عليه سرعة ازدهار الثقافة القبطية الصعيدية بمصر الوسطى ومركزها الدير الأبيض.

وكان ذلك حوالى عام ٣٥٠م حينما قام مصرى وطنى يدعى «بجول» مهتدياً بقوانين باخوميوس، وأسس الدير الأبيض فى الصحراء غربى النيل قبالة أخميم. وقد كانت اخميم مدينة هامة، كما كانت اللهجة المحلية فى المنطقة الصغيرة المحيطة بها - وهى اللغة المعروفة باسم الأخميمية - قد بدأت تأخذ مكانها كلغة للأدب. ومع ذلك كانت اللهجة الصعيدية وليست الأخميمية هى لغة الشركة الرهبانية الجديدة. ويحتمل ان يكون ذلك راجعاً إلى أنهم تحققوا أن الحاجة ماسة إلى لغة واحدة لمصر العليا بأجمعها، وإلى التفوق البعيد المدى الذى بلغته اللهجة الصعيدية عندئذ. فقد كانت هى اللهجة المستعملة فعلا فى الشركة الأصلية التى أنشأها باخوميوس بفاو وفى الجنوب. ثم وباستعمالها فى الدير الأبيض أصبحت اللهجة الوحيدة المفهومة من الجميع فيما بين منف وأسوان. غير أنه من المحقق أن خصائص اللهجة الأخميمة ظلت باقية فى كلام العامة، وعادت إلى الظهور بعد احتلال العرب، ويبدو ان اللهجة الأخميمية كانت مستعملة فى الدير الأحمر المجاور وهو دير أنبا بشوى. هذا وإذا استندنا إلى ما تبقى لنا من الترجمة الأخميمية للأناجيل لحكمنا بأن هذه الترجمة لم تكن ذات طابع خاص بل كانت مبنية على الصعيدية.

ولعل هذا هو المكان المناسب لأن نستعرض تقدم الأدب القبطى. فحوالى سنة ٣٥٠م يحتمل أن تكون قد تمت ترجمة معظم أجزاء الكتاب المقدس إلى اللهجتين البحيرية والصعيدية. والواقع ان الترجمتين مستقلتين كل منهما عن الأخرى، كما أنه وصلت الينا أجزاء من الكتاب المقدس باللهجات الأخميمية والمشتقة من الأخميمية والفيومية، مما يدل على أنه كانت هناك حركات أدبية محلية لا يمكننا ان نعين تواريخها بالضبط، ولكن يحتمل أنها ترجع إلى تلك الأيام الأولى، التى ظهرت فيها كذلك الكتابات الأصلية لباخوميوس ومن تبعوه. وأغلب الظن ان اللغة الأغريقية بدأت فى التراجع بمقدار النمو المطرد الذى بلغته المسيحية بين الريفيين، واستعمال اللغة القبطية كلغة أدبية، وازدياد المصريين شعوراً بكيانهم وقوميتهم. وفوق ذلك فقد كانت هناك نهضة عالمية

عامة فى النصف الثانى من القرن الرابع لجميع اللغات الشرقية المعمورة، وتقهقرا عاما للغة الأغريقية نحو مواطنها الأصلية . ومن مجمع نيقية (عام ٣٢٥ م) إلى خلقدونية (عام ٤٥١م) ترجم ما يتعلق بالعقائد والطقوس والتنسك وكذلك الأدب التاريخى فى ذلك الوقت، ترجمة رديئة إذ لم يكن للقبط إلا ميل طفيف لمثل هذه الأشياء، بل كانوا يفضلون الأناجيل الأبوكريفية (الأسفار المحذوفة) وأعمال الرسل وسير القديسين والشهداء التى كانت تفيض بالمعجزات والقوى السحرية، وكان أبطالها الطفل يسوع (خورس) والعذراء (إيزيس) وبولس واندراوس .

وهاك مثل طريف من هذا النوع من الأدب فى دفاع يهوذا عن نفسه، جاء فى أحد الأسفار المحذوفة واسمه « أعمال الرسولين اندراوس وبولس » . وفيه يقص بولس أخبار رحلته إلى الجحيم ويصف ما رأى هناك :—

وقد حدث عندما ذهبت إلى الهاوية أن رأيت المكان الذى تأوى إليه جميع الأرواح، ورأيت يهوذا التلميذ الذى سار مع السيد، رأيته فى عذاب وألم شديد فقلت له « كيف أدى بك الأمر إلى هذا العذاب ولم تحضر كبقية الأرواح التى أحضرها السيد معه ؟ » فأجابنى يهوذا قائلا : تعساً لى بل تعساً لى مرتين بسبب ما صنعته مع سيدى، فأنى أخطأت إليه بتسليمى إياه لليهود من أجل قطع فانية من الفضة، رغم أنى كنت أعرف أنه سيدى بل سيد الأرض كلها، وقد ذهبت حاملا معى قطع الفضة وأعدتها ثانية لرؤساء الكهنة، وتوسلت إلى المسيح قائلا : ياسيد اغفر لى، أحقاً أنك تنوى التخلى عنى وتركى بسبب ما فعلته بك بتسليمى إياك ؟ ياسيد لا تتركنى جانباً، أحقاً تريد أن تودى بى إلى التهلكة ؟ تذكر ياسيدى أنى سمعتك تتحدث مع بطرس التلميذ عندما سألك « كم مرة يخطىء إلىّ أخى وأنا أغفر له، هل إلى سبع مرات ؟ » وأنت أجبته « لا أقول لك إلى سبع مرات بل إلى سبعين مرة فى سبع مرات » . ولكننى أسأت إليك مرة واحدة فقط، أتريد أن تودى بى إلى التهلكة ؟ كلا

بالتأكيد ياسيدى ، أى رجل يستطيع أن ينظر إلى إبنه وهو ذاهب إلى الجحيم ولا يساعده ؟ وأنا حقاً قد تماديت فى الضلال لدرجة أنى أسلمتك . أوتريد حقاً أن تودى بى إلى التهلكة ؟ كلا ياسيدى بالتأكيد كلا .

« ثم أنه أرسلنى خارجاً إلى البرية وقال لى : لا تخف من أحد إلا من الله ، وإذا رأيت الشيطان يقترب منك فلا تخف منه ولا من أى أحد آخر سوى الله . وهكذا ذهبت إلى البرية لأصوم حتى يغفر الله لى فأتانى ملك الجحيم ورفع رأسه فوقى وفغر فاه ليبتلعنى ، نخفت وعبدته قائلا : أنت سيدى . وفى الحال تخلى عنى الرب ، فبكيت إذ لم يكن أمامى سبيل للتوبة . ثم فكرت ماذا عسانى فاعل ؟ لو أن السيد كان هنا لذهبت إليـــه وصليت له بخضوع ، ولكنهم لن يأخذوه بعد ليحاكموه فى دار المحكمة الرومانية . فلأذهب وأشنق نفسى .

« وصلت إلى الجحيم قبل وصوله ، ولكنه نزل إلى هنا وحمل جميع الأرواح بعيداً ، ودمر الجحيم ما عدا روحى . وبكى حراس الجحيم أمام أبليس قائلين : كيف يتأتى لك أن تباهى وتقول : « أنا ملك ولا يوجد ملك آخر سواى » . ونحن نعلم الآن يقيناً أنك لست ملكا لأن واحداً آخر هو سيدك جاء وأخذ الجميع منك . فنادى الشيطان فى جمع من قواته قائلا : ياجميع قواتى ، هل تظنون أنه يوجد من هو أقوى منى ؟ كلا على العكس ، فبالرغم من أنه جاء إلى هنا فهناك روح واحدة لم يتمكن من أخذها معه . ثم أن يسوع نادى ميخائيل الذى أحضره معه إلى الجحيم وقال له : الىّ بروح يهوذا حتى لا يجد ابليس حجة ضدى . لجاء ميخائيل وأصعدنى ثم صاح قائلا : تباً لك أيها العدو الضعيف . ثم قال يسوع لميخائيل : « أعد الروح ثانية إلى ظلمات جهنم » .

بكى يهوذا وقال : أذاهب أنت وتاركنى فى هذا السعير ؟ لقد أخرجت روحى من جسدى لأنى كنت أعرف أنك لابد آت إلى الجحيم لتحمل كل

هاتيك الأرواح وروحى ضمنها » . فأجاب يسوع قائلا : « أيها الشرير، ماذا فعلت حتى بلـغ بك الأمر أن تلق بنفسك وتعبد إبليس؟ » فقال له يهوذا : « ياسيد، لقد هجم علىّ فى صورة تنين فاغر فاه ليبتلعنى فخفت وعبـــدته » . فقال له يسوع « أيها الشرير ، لو أنك ناديتنى عنـدما جاءك الشيطان وقلت : يا يسوع ساعدنى ، لكان نصيبك الخلاص . ولـكنك أتيت عملا يغضب الله وقتلت نفسك ، ومن أجل هـذا فأنك ستكون فى غياهب الجحيم إلى يوم الدينونة حين يحاكمك الله » ثم قال يهوذا « وهكذا أنا باق هنا منذ ذلك اليوم » .

رأينا كيف أن بجول أنشأ الدير الأبيض حوالى عام ٣٥٠م ، وبعـد نحو ثلاثة وثلاثين عاماً «٣٨٣م » خلفـه ابن اختـه شنوده ، أعجب شخصية أنجبها القبط ، فهو فى الواقع المؤسس الحقيق للكنيسة القبطية . وقد دامت رئاسته نحو ٦٦ سنة أى ضعف مدة رئاسة سلفه، ومات عام ٤٥١ م . وقد عاش وجاهد فى أحرج الأوقات وأعنفهـا ، ففى عهد البطريرك تاوفيلس عام ٤١٢ م ، دمر السرابيوم فى الأسكندرية، وكان مقراً ورمزاً للنشاط الوثنى السياسى فى مصر . كما رجمت هيباتيا حتى الموت فى الأسكندرية عام ٤١٥ م . وانعقدت المجامع فى أعوام ٤٣١ و٤٤٩ و٤٥١ م فى أثناء حياته ، ومات فى نفس العام الذى أقر فيه مجمع خلقدونية هرطقة القائلين بالطبيعة الواحده . وقد عرف شنوده فى تاريخ الأدب القبطى بأنه أعظم كتابه .

لم يكن شنوده ذا ثقافة واسعة ، ولـكنه كان رجل عمـل ونشاط مستبداً برأيه لا يريد حوله إلا من يقولون « نعم » . وأحياناً كان يبدى تبرمه بهـذا العالم . وكان محباً لشعبه يفهمه ويقاسمه أحزانه كفلاحين مواطنين يرزحون تحت نير مضطهديهم من الأغريق الظالمين ، وكان شنوده لا يستسيغ العلوم المسيحية الأغريقية أو الفلسفة . وكان كأسلافه المصريين يؤكـد الدينـونة والعقـاب على الخطيئة مهما كانت ضئيلة ، دون أن يهتم بموضوع التكفير

والفداء. وكان جل مجهود شنوده ونشاطه الإدارى موجهاً نحو محاربة الوثنية واقتلاع جذور خرافاتها من الكنيسة، مثل السحر والتعاويذ والدجل الطبى والبدع الاجتماعية المختلفة فى الأعياد الدينية، إذ أن الفلاحين فى مصر العليا لم يكونوا قد غيروا طبيعتهم الوثنية التى تعزى إلى طبيعة أرضهم.

ويجدر بنا أن نقتبس هنا تعويذة (لا يعرف تاريخها بالضبط) للتسخير فى عمل، ثم لعنة (يحتمل ان تكون من القرن الرابع أو الخامس) وذلك لتوضيح طرق التطبيب والسحر فى ذلك العصر. وكانت هذه الأساليب تستند إلى أصل هيلينى يهودى، غير أن بعضها كان ذا أساس مصرى وثنى: ـ

أنا أدعوك أنت يا أتراك، الملاك العظيم الذى يقف عن يمين الشمس والذى تدين له بالولاء كل قوات الشمس، أذهب حتى إلى حافة الهاوية، الفضة اذبحها، والصلب اكسره، والحديد أذبه، والحجر فتته، ومياه البحر جففها، والجبال حركها، والمرأة الحامل شق جنبها الأيمن وأخرج منه طفلها! إنى أدعوكم يا رؤساء الملائكة السبعة، ميخائيل وجبرائيل واوريبل وراكوئيل وسوريبل وانوئيل وسلفوئيل، لتنزلوا جميعاً حتى ميخائيل إلى هذا المكان، ولا تسمعوا شيئاً إلا ما أقوله لتمنحونى طلبى وتحققوا الرغبة التى تجيش فى عقلى، وتتوق اليها نفسى. أنا سأعبر أنهار النار السبعة وأصعد إلى السماء السابعة، حيث يتربع رب الصباؤوت، وسأجد ميخائيل واقفاً عن يمين الآب، اسرعوا اسرعوا.

أنا اتضرع واستحلف وأتوسل اليكم أيها الشهداء القديسون، أنا تيودورا المرأة الخاطئة أضع أمامكم هذا الاتهام ضد جور وزوجته، والقى بنفسى أمامكم حتى تجيبوا رغبتى نحو جور وزوجته، فتسحقوهما وتشتتوهما، لتحل عليهما اللعنة ولتأكلهما الديدان، وليتشتت شملهما، وليحل غضب الله على جور وزوجته وكل ممتلكاته، ولتجتح بيته وزوجته نقمة وغضب عظيمان. لتضعوا

أيديكم عليهما ، ولتنزل فى الحال هذه اليد القوية والذراع الجبارة عليه وعلى زوجته . أيها الشهداء القديسون اسرعوا ونفذوا حكمى عليهما . ارسلوا قواتكم ومعجزاتكم أيها الشهداء القديسون ونفذوا حكمى .

واليك أيضاً نبذة من عظة للأنبا شنوده ، يندد فيها ببعض الأعمال الرديئة التى تحدث فى موالد الشهداء (أنظر صفحة ١٩) .

وكان النشاط السياسى لشنوده محصوراً فى محاربة الوثنية ، فكان يثير الجماهير ويحرضهم على تدمير المعابد الوثنية ، بل كان يقودهم بنفسه . ولا شك ان فى هذا الوقت وقعت أعنف أعمال التدمير والتخريب فى المعابد العظيمة ، مثل معابد الاقصر والكرنك . وهنا ينبغى ان نذكر ان الوثنية ، ولو انها كانت عندئذ ديانة ميتة ، إلا ان بعض طقوسها كانت لا تزال حية .

وكانت كتابات شنوده عملية وصالحة للاستعمال المباشر ، كالرسائل والمواعظ . ولم يكن أسلوبه مصقولا ، لكنه كان يصاغ فى قالب خطابى بليغ ، ولا شك انه كان مبتكراً ليست به سلاسة . كذلك لم يبحث شنوده عن المعرفة أو جمال الألفاظ رغم انه كان ملماً بالثقافة الاغريقية . هذا وتقف كتاباته القبطية جنباً لجنب مع الترجمة القبطية للكتاب المقدس ، وكان شنوده أيضاً كثير الانتاج مالكا لناصية اللغة يكيفها كيف شاء .

وكان رهبان الدير الأبيض هم وحدهم المتعلمون بين طبقات الفلاحين ورجال الدين أنفسهم ، فقد كانوا جميعاً يعرفون القراءة ، كما كان البعض يعرف الكتابة . وكان بينهم المزارعون المهرة والبناءون والأطباء وكان كل من يلتحق بالدير يأخذ على نفسه التعهد الآتى :ـ

أتعهد أمام الله فى هذا المكان المقدس ، وتشهد على الكلمات التى تخرج من فمى ، أننى لن أدنس جسدى بأية وسيلة ، ولن أسرق ولن أشهد زوراً

ولن أكذب ولن أباشر بأى طريقة اعمال الغش فى الخفاء . فاذا نقضت هذا العهد فلأشاهد ملكوت السموات دون أن أدخلها ، وليدمر الله نفسى وجسدى فى نار جهنم إذا نقضت العهد الذى أخذته على نفسى فى حضرته .

ومن بين قوانين هذا الدير القانون الآتى :ـ

لا تدع رجلا ممن يدخلون هذه المجتمعات فى أى وقت ليصبح راهباً يقول : « أننى سأواصل فى هذا المكان أو سأنجز العمل الذى بدأته فى بيتى » ما لم يصدر له أمر بذلك . « لا تدعه يقول » : « ان العمل الذى من أجله جاء كل واحد إلى هذا المكان هو الكتاب المقدس والكتب التى وضعت لنا ، علموا نا إياها » . وإذا لم يرغب أحد فى العمل فى غير صناعته التى يمارسها فى بيته والتى يفهمها ، قولوا له : « إذا كنت تأتى إلى هذا المكان لتعمل فى حرفة ولا تعمل لأجل خلاص نفسك فأمامك المكان الذى أتيت منه . عد إليه لتمارس صناعتك » . ودعوه يسمع هذا أيضاً « إذا كنت لا تعمل فى غير ما تعرفه فى بيتك فمن ذا الذى يؤمن بانك ستترك أعمالك جانباً وكذلك الشئون الدنيوية والجهل والفساد وجميع الأشياء الشريرة لتتهذب وتتطهر وتنقى نفسك ولتعمل كل شىء حسناً مما تؤمر به . لان كل من جاء إلى هذا المكان لايجب أن يعمل بحسب إرادته ، ولكن بحسب إرادة الرب .

وكان هذا الدير هو مكان الراحة الوحيد ، ولكنه لم يكن معــــداً لاى أغراض دنيوية ، ولذلك كانت آداب الدير كلها دينية بحتة . وكان كل نزلائه من القبط ، أما خارج أسواره فكان هناك شعب من الفلاحين يعيشون لهذا العالم مستعبدين لنفر من أصحاب الأملاك الاغريق ، وكان شنوده فى نظرهم قديساً التمسوا معونته .

تمصير الكنيسة

مات شنوده عام ٤٥١ م ، فى نفس العام الذى صدر فيه الحكم من الكنيسة الجامعة ببطلان عقيدة الطبيعة الواحدة التى قال بها البطريرك الاسكندرى ديوسقورس ، وكان شنوده قد وضع أسس الكنيسة القومية ، فجاء مجمع خلقدونية فرصة مواتية للانفصال . وكانت النهضة التى بدأت ونمت أثناء فترة زعامة الاسكندرية ، قد أخذت تؤتى ثمارها بعد انقضاء هذا العصر . ومع ذلك فان تمصير الكنيسة المصرية لم يكتمل طول المدة التى كانت فيها مصر تحت حكم بيزنطه ، التى كانت لها عندئذ عقيدة ارثوذكسية مغايرة . ولم يكتمل فعلا إلا بعد زوال هذا النفوذ البيزنطى بدخول الاسلام فى القرن السابع . على ان ثمن هذا التسليم كان الاضمحلال التدريجى فى ظل حكم أشد قسوة .

وقد كان النفور بين القبط والاغريق مطبوعا بمميزات منها الجدلى واللغوى والثقافى والاقتصادى والدينى والسياسى . وكان ينقص القبط تلك الصفات الشمالية والاناضولية التى خلقت من الاغريق قوما يستميتون فى المنافسة التجارية ، كما كانوا من الوجهة الثقافية أقل مستوى من الاغريق ، وهذا ما دعاهم إلى التمسك بلغتهم تمسكا شديداً . كذلك كانوا فى حالة استعباد مستمر للاك الاراضى من الاغريق . وقد ظل هؤلاء على وثنيتهم زمناً طويلا ، وبعد ذلك اعتنقوا المسيحية على المذهب الارثوذكسى ، ولكنهم لم يدينوا بعقيدة الطبيعة الواحدة . هذا ولقد كانوا يحكمون مصر بحكومتهم المركزية من بيزنطة النائية .

وبتمصير الكنيسة بعد مجمع خلقدونية أصيبت اللغة الاغريقية بنكسة شديدة كما يتضح من ازدياد الاستغناء عن استعمال الكلمات الاغريقية فى اللغة

القبطية ، وبمجىء العرب اختفت الأغريقية تماما بين القبط .

وقد خلف شنوده فى الدير الأبيض تلميذه ويصا عام ٤٥١ م ، وقد كان هذا شخصاً ضعيفاً خجولا إذا قورنت شخصيته بالشخصية الجبارة التى كانت لأستاذه ، كما كانت كتاباته لا تتميز بلون أو طابع خاص ، وكان كثير الاقتباس من الكتاب المقدس ، ومن أقوال استاذه الذى افنى كل جهده فى تمجيد ذكراه ، ومات بعد عام ٤٥٧ م بقليل .

وفى القرن السادس ظهر كثير من المخطوطات الصعيدية مكتوبة بخط دقيق واضح وانيق ، لم يكن يختلف كثيراً عن الخط اليونانى إلا فى الحروف الخاصة .

وحوالى هذا الوقت حلت الصعيدية كلغة للأدب محل اللهجة الفيومية التى كانت قد ترجمت اليها أجزاء من الكتاب المقدس كما سبق ذكره. وفى الحق كانت الفيومية مجموعة من لهجات متشابهة وليست لغة موحدة مقررة . وهكذا أصبحت الصعيدية هى لغة الأدب جنوبى الدلتا .

ولدينا عدد كبير من الرسائل والوثائق التى كتبت على ورق البردى وقطع الشقف من تلك الأيام ، والشىء الذى يدهشنا هو قوة اللغة القبطية وسرعة استعمالها بين جميع الأفراد . وكانت اللهجة المحبوبة لديهم والتى يهدفون اليها هى الصعيدية ، ولكن كان كل كاتب يحاول أن يدخل فى كتاباته طريقته فى الاملاء والتعبير مستمداً ذلك من لهجته العامية الخاصة . فمثلا وجدت رسائل فى طيبة تبين تأثيرات قوية للهجة المشتقة من الأخميمية ، ولعل محتويات هذه الرسائل تمكننا بدرجة ما من تكوين صورة عن الحياة فى هذه الأيام ، رغم ان العادة الواضحة عند القبط هى ان يكتبوا فقط فى أوقات الشدة ، ولهذا السبب لم يتركوا لنا كثيراً من الصور عن هذا العصر . وها هى بعض أمثلة قليلة :-

عندما كتبت لنا يا أخى فى المرة الأولى قائلا « ارسلوا لنا النول »، أجبتك « أن ذلك ليس فى امكانى »، ولكن إذا كنت يا أخى تحافظ على الاتفاقات التى تمت بيننا فأنا على استعداد لأن نعمل بمقتضاها فى كل الأمور التى رتبناها معاً ».

ولقد كتبت لنا ثانياً بحسب رعونتك المعروفة تقول « ارسلوا لنا النول » والآن لا تظن يا أخى العزيز أنى أقدر أن أفعل شيئاً من هذا، لأنتى فى منزل ال . . . . . . كخادم يشرف على منزل سيده حتى لا يهمله لئلا . . . . . . وينهبه اللصوص . كلا ليس لى نفوذ أن أعطى أوامر عن أى شىء آخر .

وأما بخصوصك أنت ايها الأخ العزيز، فاذا لم تنبذ عنك هذه الافكار الشريرة فأنك ستخصر كثيراً فى عينى الله والناس، ومع ذلك مادمت تطلب مشورة منا فنحن على استعداد لذلك فى أى وقت ترغب . تعال إذن إلى الشمال فى أى مكان يناسبك ونحن نذهب ونبحث الأمر معاً . فلو أن كل شىء أهدى إلى الهيكل يسترده عند الحاجة إليه، فانى أعطيك إياه عن طيب خاطر . سلاماً أيها الأخ . . . وابق فى خير وعافية . . .

وواضح هنا أن شخصاً كان قد أهدى نولا إلى هيكل وأراد استعادته لاستعماله الخاص . ويتضمن الخطابان التاليان استرحاما من أشخاص وضعوا فى الحجز لديون عليهم لآخرين « وأرمنت هذه مدينة صغيرة بالقرب من طيبة » :-

أنت تعلم أنه ليس لى أحد بأرمنت، لا أم ولا أب ولا أخ ولا أخت ليدافعوا عنى، وإنى لم أحاول الهرب حين أرسلونى إلى السجن بل سلمت نفسى فداء عنك، وكم كنت قاسياً وتجاهلتنى . أنظر كيف شوهت يداى، وحتى لما وصل ذلك إلى علمك لم تحرك ساكناً لاخلاء سبيلى، أنا الذى لاصديق لى . ولقد وضعونى حيث إضطرتنى الحاجة إلى التبول مكانى ولم يمكنى تغطية نفسى لأن يدى قد شوهتا . فهلا بادرت إلى ابنك المتألم من .....

لقد كتبنا إليك مع مافى ذلك من مشقة ، ولقد تجاهلتنا فى سجننا هذا حيث علقونا وأحنوا ظهورنا . لقد أزهقوا أرواحنا ولم تحرك ساكناً لمساعدتنا مع أننا سلمنا أنفسنا فداء عنك ، أنظر كيف تجاهلتنا ، فهلا عملت على تخليصنا دون الاعتماد على أى شخص آخر . فبحق الرب حتى ولو دفعت المبلغ اليوم فربما لن تجدنا على قيد الحياة . أرسل مؤونتنا إلى السجان واعط الأرغفة .

وفى الخطاب التالى يكتب شخص يدعى بلينى إلى رجل أكبر سناً ، يطلب منه أن يتوسط لدى الموظف الأغريقى فى صدد تهمة غير مذكورة كانت ابنة أخت بلينى قد اتهمته بها أمامه مرتين ، وكانت ابنة اخته هذه قد دفعت غرامة سابقة ، وكان الرجل الذى صدر فى صالحه هذا الحكم قد حضر إلى المدينة .

أنا بلينى كاتب هذا الخطاب أهدى تحياتى إلى الأب إلياس . أرجوك أن تتفضل وتبعث رسالة إلى الاغريقى ، لان إبنة أختى قد التجأت إليه واتهمتنى أمامه مرتين . أنظرانه يزعجنى بقوله أنه سيحكم على بالغرامة . تكرم بالكتابة إليه عن رأيك . حاشا ! إذا أوقع على الغرامة فسأترك القرية وأرحل ، إذ أن الرجل الذى دفعت الغرامة لصالحه قد حضر .

أما الخطاب التالى فموجه إلى شخص نابه الذكر يدعى ايفانيوس ، وكان رئيساً لدير ايفانيوس الواقع على ضفة النيل الغربية فى موقع مدينة طيبة القديمة . وكلمة « نى » المذكورة هنا أثر فائق الأهمية متخلف عن الاسم القديم لمدينة طيبة وهو « نيوت » (أى المدينة) الوارد بلفظ « نو » فى حزقيال ٣٠ : ١٤ وفى أرميا ٤٦ - ٢٥ . وربما كان الغزاة المشار إليهم هم الفرس « عام ٦١٩ م » .

اكتب لتقديم واجب الطاعة والتحية إلى آثار أقدام أبوتكم الطاهرة ، متوسلا إلى السيد المسيح أن يجعلنى مستحقاً لذلك وجهاً لوجه . وأتوسل إلى

أبو تكم الطاهرة أن تذكروها فى صلواتكم المقدسة حتى يخلصنا الله من هؤلاء القوم الذين وجدوا طريقهم إلى أقليمنا ، إذ انتابنا نحن والفقراء غم عظيم . ويعلم الله أنهم إذا استولوا على « نى » لأصبح الاقليم بأجمعه فى خطر عظيم . فلكن رحيا وصل إلى الله ليشتت شملهم ، إذ لو أصبحت لهم اليد الطولى فسيكون فى ذلك - كما ذكرت - محنة شديدة للمنطقة كلها ، ومع ذلك فقد أصابتنا تلك الأحداث بسبب خطايانا . سلم هذا إلى القديس الموهوب أبا ابيفانيوس .

من اناسطاسيوس

والخطاب التالى أرسلته سيدة تدعى يودوكسيا إلى الناسك ابا بسون ، تسأله فيه أن يصلى من أجل شفائها .

أبدأ بأن أحيي موطىء قدميك . واتضرع وأتوسل إليك أيها الأب القديس أن تتحنن وتبتهل إلى الله عنى لكى يرحمنى ويغفر لى خطاياى ، لانى اخطأت إليه ولم يشأ أن يبعد العدو الشرير عنى ، فأحمالى وخطاياى كثيرة جداً جداً وثقيلة على وقد سلمنى العلى إلى أيدى أعدائى . فلتتحنن وتبتهل الى الله من أجلى لكى ينجينى من العذاب الذى أنا فيه . أيها الأب القديس لاتتوان فى التضرع الى الله من أجلى لأنكم معشر (النساك) شافعون من أجل العالم كله . استودعك فى الرب أيها الأب القديس المكرم ابا بسون الناسك .

من الخاطئة يودوكسيا التى خطاياها كثيرة جداً والتى تلتمس رحمتك ومعونتك .

واليك المثال الأخير ، وهو خطاب إلى ناسك أو راهب تماثل للشفاء من مرض خطير ولكن لم تكن قد زالت عنه خطورة مرضه بعد :

هذا خطاب إلى ابوتكم الطاهرة ، لقد تهللت كثيراً وكثيراً جداً ، ويعلم الله اننى قرعت باب الرب حتى يخلصك من مرضك ، فهذه كانت طلبتى حينما كنت ابتهل اليه ، وسأظل حتى أول (الشهر) متعهداً السجود عند قدمى ابوتكم الطاهرة والله الرحيم يتم شفاءكم ، ويبقيكم طويلا ملاذاً لنا . مع رجاء التكرم والرد على هذا الخطاب ، والخلاص فى الرب .

ومن بين هذه الرسائل وجدنا الرسالات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة بدير ابيفانيوس بطيبة ، ذلك الدير المشهور الذى ازدهر حـــوالى عام ٦٠٠ م ، وقد حفظ لنـا هذا الدير عدداً هائلا من الرسائل والوثائق التى استقينا منها أغلب معلوماتنا عن الحياة فى تلك الأمكنة . على أنه كانت هناك فى ذاك الوقت مؤسسات وأديرة فى جهات متعددة أخرى من الوادى وفى الفيوم.

ثم انه لسبب غــير معروف اعتكف بطريرك الاسكندرية القبطى فى القرن السادس بوادى النطرون ، حيث ظل إلى ان اتخذ القــاهرة مقراً له فى القرن الحادى عشر ، وبقى هناك منذ ذلك الحين حتى يومنا هذا . وفى استطاعتنا تعليل ذلك بأن الاسكندرية كانت تغلب عليها الصبغة الاغريقية الارثوذكسية ، بينما كان وادى النطرون معقل القبط المتمسكين بعقيدة الطبيعة الواحدة ، أما القاهرة فكانت فى القرن الحادى عشر موطناً للتسامح كما كانت عاصمة لمصر .

وكانت أقاصى مصر العليا ـ كما ينتظر ـ هى آخر معقل للوثنيـــة المصرية القديمة ، فان النوبيين والبلميين استمروا على عبادة إيزيس معبودة جزيرة فيله (فوق اسوان) حتى بعد هزيمتهم على يد الامبراطور ماركيان (*Marcian*) عام ٤٥١ م ، وكان المصريون يشتركون فيها ، وبعد ذلك التاريخ تقلصت عبادة إيزيس إلى بلاد النـــوبة ، وأسست مدينة قبطيـة فى جزيرة فيـله ، وفى حكم الامبراطور يوستنيـان (*Justinian*) (٥٢٧ ـ ٥٦٥ م) اغلقت معـــابد فيـله نهائيـاً .

وفى خلال فترة تمصير الكنيسة هذه أخذ الشعور الوطنى يظهر فى الفن ، ومع ذلك فلم يتم التحرر من المؤثرات الاجنبية إلى أن تمكن العرب من تخليص البلاد من كل ما هو مطبوع بالطابع الأغريقى ، وعندئذ كان الوقت قد أضحى متأخراً ـ بطبيعة الحال ـ للقيام بعمل ذى شأن كبير (أنظر صفحة ٣٠) .

تعريب القبـــط

وكما أن الصيف لا يبدأ بصفة محسوسة إلا بعد مرور الانقلاب الصيفى ، وثماره لا تنضج حتى يقترب الشتاء ، فإن أخصب حقبة فى التاريخ القبطى هى تلك الفترة التى انطوى فيها القبط على أنفسهم بعد ان ارتضوا الحكم الاسلامى ثمنـــاً لتخليصهم من الاغريق ، معرضين أنفسهم بذلك للاضطهاد بين الحين والحين ، متضائلين فى العدد ، ومواجهين عوامل الانقراض .

ففى سنة ٦٢٢م بينما كان الرهبان القبط يحيون حياة الشركة ، وبينما كان الفلاحون القبط يفلحون تربة مصر الخالدة على نحو ما رأينا ، إذا هنـاك فى بلاد شبه الجزيرة العربية النائية الغامضة ، احداث تتهيأ ، كان لها من الأثر العميق فى حياة المصريين ما فاق حد التصور . فقد غزا الفرس الساسانيون مصر عام ٦١٩م ، واغتصبوا البلاد من حكامها البيزنطيين الضعفاء ، ثم طردوا بدورهم عام ٦٢٦ م . ولكن بينما كانت هاتان القوتان الغنيتـان المتداعيتان (الساسانيون والبيزنطيون) فى نزاعهما المسمر ، كان النبى محمد قد أخذ يعد فى المدينة المنورة نظاماً جديداً قائمـاً على السلطة المطلقة ، كان من شأنه تغيير مجرى الحياة فى جزء كبير من العالم إلى وقتنا هـذا . وكانت بلاد العرب حينئذ برية مجهولة ، تسكنها قبائل بدوية غير متحضرة ، لها لغة غير معروفة وتاريخ غيرمدون ، حتى أن البعثات المسيحية التبشيرية لم توجه اليها أى مجهود . على انه سرعان ما تحول بدو الصحارى إلى قوة هائلة ، اكتسحت أمامها ـ وكأنها تكتسح بيتـاً من الورق ـ تلك الهيئات الاجتماعية المتحضرة والمتفككة ، التى كانت تجاورها فى بلاد الفرس والأقطار الشرقية الخاضعة للأمبراطورية الرومانية الشرقية . وكانت أهم تلك الأقطار جميعاً وأكثرها تمثيلا لهذه الحالة ، مصر التى كانت مهداً للفلسفة واللاهوت .

توفى النبى محمد سنة ٦٣٢ م ، وفى عام ٦٣٦ م سقطت دمشق عاصمة سوريا فى قبضة العرب ، وفى سنة ٦٣٧م تبعتها المدائن عاصمة الامبراطورية الساسانية . وفى عام ٦٤٠م انتزع القائد العربى الشهير عمرو بن العاص من البيزنطيين مدينة عين شمس ، التى كانت تقع قرب كل من منف القديمة وحصن بابيلون الرومانى . وفى سنة ٦٤١ م استولى العرب على حصن بابيلون نفسه بمساعدة البطريرك (قيرس المقوقس) على ما يرجح . وتلا ذلك فتح الأسكندرية فى عامى ٦٤٢ و٦٤٦ م ، وفيما بين ٦٤٤ و ٦٥٦م أخذت القبائل العربية تستوطن وادى النيل كما بدأ الفلاحون القبط يعتنقون الاسلام ، ثم تأسست الفسطاط عاصمة البلاد الجديدة شمالى بابيلون مباشرة .

وكان أول أثر للفتح العربى الذى جاء عقب غزو الفرس صدمة عنيفة ولا شك ، وكان الأثر الثانى صحوة كتلك التى تعقب تجرع السم . ففى النصف الأخير من القرن السابع وفى القرن الثامن كانت هناك نهضة أدبية ثانية تفضل سابقتها لأنها كانت شعبية ودنيوية أكثر منها ، ويرجع ذلك إلى أن نظام الأديرة عندئذ كان أقل صرامة بحيث أتيح للرهبان الاشتغال بشتى الحرف حتى أنهم كونوا الجماعات والاتحادات . وإذا كانوا قد أصبحوا يقرأون الكتب الدنيوية فى الأديرة فلماذا لا يقومون بكتابتها أيضاً ، خصوصاً وقد حل الورق ـ تلك المادة الرخيصة ـ محل ورق البردى وأصبح فى متناول الجميع .

ولقد كتب ذلك الأدب الجديد باللهجة الصعيدية ، وكان يتكون من الروايات والأشعار ، على أن مما لا شك فيه أنه لم يصلنا منه إلا النذر اليسير . ويجدر بنا هنا أن نشير إلى ما يأتى :ـ

فهناك مثلا قصة ثيودوسيوس وديونسيوس التى يمكن إرجاع تاريخها إلى بداية القرن الثامن ، وبطل هذه القصة صانع مصرى فى بيزنطه وفق إلى البلوغ إلى منصب إمبراطور الإغريق . وقد نسى ـ لبعض الوقت ـ زميلا له ،

كان هو أيضاً صانعاً مصرياً ، ولكنه يلاقيه ثانية ويعينه رئيساً لأساقفة العاصمة الاغريقية . وليس فى هذا ما يمت إلى الدين بصلة ، إذ أن القصة وطنية .

أما أن رواية الاسكندر الأكبر كانت قد ترجمت فدليلنا على ذلك أن أجزاء من الترجمة الصعيدية وجدت بالدير الابيض وربما كانت تلك القصة الشهيرة هى التى أوحت إلى شخص ما بكتابة رواية قمبيز، وهى قصة أصيلة تتضمن تاريخاً خيالياً بحتاً عن غزو مصر على يد قمبيز أو نبوخذ نصر، الذى كان ملكا على الفرس، أو الآشوريين أو البابليين . وقد ورد فى هذه القصة ذكر الإله أبيس ومدينة منف والفرعون وخفرع (٥٨٨-٥٦٩ ق.م) وأسلوبها يحاكى أساوب التوراة، غير أنه ملىء بالمفاخرة الساذجة . وأما المصادر التى اعتمد عليها فهى التوراة ومؤرخو الاغريق . على أنه ليس هناك أى ذكر للماضى المصرى ولا أية صلة بالمصادر المصرية . ولقد وصلتنا نصوص هذ القصة فى نسخة واحدة ، ولكنها ناقصة وبها عيوب كثيرة . وتبدأ القصة برسالة يكتبها قمبيز إلى الشعب « الذى يسكن مشارق الشمس » ، وربما يعنى الشعب المقيم فى الجزء الشرقى من الدلتا والخاضع لمصر ، طالبا اليهم الطاعة (انظر صفحة ٢٣) .

وهذه القصة تشبه قصة ثيودوسيوس وديونسيوس فكلتاهما ليس لهما اتصال بالدين وتقومان على النزعة الوطنية وان كانت الاولى أكثر مظهراً فى ذلك من الثانية ويبدو أن مؤلفها كان راهباً وانها كتبت فى أحد الأديرة ، أما أبطالها فرجال من هذا العالم يمتازون بالحيلة والقوة . ومع أن أسلوب هذه القصة يحاكى أسلوب التوراة وبعض موادها مقتبسة منه ، إلا انها جمعت من مظاهر الوثنية المصرية بقدر ما سمح به خيال مؤلفها . وهنا تظهر الوطنية سافرة أمام الجميع وليست مقنعة تحت ستار مجادلات لاهوتية عن جسد المسيح . ومن رأى بعض العلماء أن الرواية ما هى إلا رسالة فى أسلوب تنكرى كان المقصود بها الدعاية ضد الحكام العرب فى ذلك الوقت ، وربما كان الأمر كذلك وان لم يمكن الجزم به ، ذلك انه يحتمل أيضاً أن تعنى القصة الحكام الاغريق فى

العصر الغابر ، أو أن تكون فورة وطنية تنفسوا بها الصعداء فى أسلوب أدبى لا يؤذى أحداً ، وفى عصر حكام اكتفوا بفرض الضرائب عليهم وتركوهم وشأنهم بصفة عامة دون أن يسيطروا على الاقتصاد القومى ، كما سنتحدث عن ذلك فيما بعد .

والقصتان اللتان مر ذكرهما كتبتا نثراً ، ومن الغريب أن معظم الأدب الصعيدى فى العهد المتأخر صنع فى أسلوب شعرى . وقبل ذلك حينما كان عمل الرهبان القبط منصبا على ترجمة النصوص الاغريقية أو تأليف سير القديسين أو ما شابه ذلك من الأعمال الروحية ، أو على نسخ تلك المؤلفات على أوراق البردى الباهظة التكاليف أو على رق ، حينما كان أمرهم كذلك فأنهم لم يهتموا بقرض الشعر ولم يصل إلى علمنا منها سوى ما كتب فى الفيوم ، وحتى تلك الأشعار كانت دينية مثل قصة آلام المسيح . وكانت تصاغ الأشعار الصعيدية المتأخرة والأشعار الفيومية المتقدمة فى أسلوب وطنى بحت ، لم يحاك نهج الأشعار الاغريقية ولم يكن معروفا من قبل فى الوثائق المصرية الأولى ، وإن كان يحتمل وجوده فى النصوص الشعرية الهيروغليفية التى أمكن فهم معناها دون نطقها لعدم استعمال الحركات فى هذه الكتابة . كما أن الأبيات غير مقفاة ولا تتبع نظام الأوزان إلا فى احتوائها على مقطعين أو ثلاثة أو أربعة مقاطع مضغوطة . وتتضمن هذه الأشعار قليلا من الكلمات الاغريقية الدخيلة وكذلك تتسم فى الغالب بذوق خاص يدل على ان التأثير الاقليمى فى اللهجات القديمة ظل باقياً فى اللهجات المحلية ، كما ينم على تأثر الشعر بالبيئة المحلية . وكان الشعر لا يقرأ بل يلحن كما جرت بذلك العادة فى الشرق الأدنى . وكانت الألحان التى ينشد بها الشعر يشار اليها بالكلمة الأولى من لحن معروف ، كالمتبع عندنا فى كتب الترانيم . وكانت الموضوعات تنطوى على كثير من المعانى الأدبية والحكم التى يمكن إرجاعها أحيانا إلى أدب الحكمة فى العهد القديم . على أن المصرى كان يفضل هذا اللون من الأدب من قديم الزمن ،

فاتبع القبط ذلك سليقة وطبعا وليس نتيجة لاعتناقهم المسيحية . ولقد أولعوا بصفة خاصة بأمثال سليمان وسفر الجامعة ونشيد الأنشاد حتى أصبحت هذه الأسفار مصدر تأملاتهم الشعرية ، وكانت قصة ملكة سبأ متصلة أوثق الصلة بأدب الأمثال وحوت أعجب الروايات . كذلك كانت قصة قسطنطين وظهور الصليب رواية خيالية ولكنها دينية ، وأما تصورهم لتاريخ الكنيسة فكان اخلاقياً ودينياً معاً .

هذا وهناك القصيدة التى كتبت عن أرخليدس وسنكلتيكى وهى جديرة بالمزيد من العناية أكثر مما يسمح به هذا الكتاب ، أما مصادر القصة فهى نفس المصادر التى استقى منها مؤلف السنكسار (سير القديسين) المكتوبة باللغة العربية والمستعمل الآن فى الكنيسة القبطية ، إلا أن هذه القصيدة تفيض شعوراً متدفقاً كما تتسم بالروح التمثيلية الحقة ، مما ينبىء عن مدى الاهتمام الشديد بمآسى البشر ، الشىء الذى لا نلحظه فى مدونى حياة القديسين على أنه لم يصلنا من القصيدة الأصلية إلا ورقتان من ملزمتين ، وهما فى حالة سيئة من الحفظ بحيث تعذرت القراءة فى بعض المواضع . ولم يمكن معرفة طول القصيدة ولا طريقة ترتيبها ، ولكن من الواضح أنها مكونة من أحاديث على طريقة الحوار بين أشخاص ، يتضمن فى سياقها سرد وقائع تلك القصة الشهيرة . ولو لم تكن القصة معروفة لاستعصى فهم هذه القصيدة ، غير أنه يجدر بالملاحظة أن النص الوارد فى السنكسار ليس هو نفس ما تخيله مؤلف القصيدة . وقبل أن نستعرض أشعار القصيدة ، سنحاول أن نروى فى إيجاز تام وقائع هذه القصة وذلك بعد إعادة وضعها إستناداً إلى السنكسار وإلى ما وصلنا منها .

كان أرخليدس ابنا ليؤنس وسنكلتيكى وهما من ثراة الرومان المسيحيين وبعد وفاة أبيه أرسلته أمه فى رحلة بحرية ، وحدث أن غرقت السفينة التى كان فيها ولم ينج من ركابها سواه . وإذ قذفت به الأمواج على شاطىء منعزل حيث

وجد جثة طرحها البحر ، فقد تأثر بالتفكير فى غرور هذا العالم حتى أنه عقد نيته على أن يصبح راهباً . هذا ما جاء بالسنكسار ، وأما الشاعر فيروى أن الأم أرسلت ابنها لتلقى العلم فى أثينا وبيروت ، ومن ثم يدخل دير راهب يدعى أبا رومانوس وهناك يرتقى فى مدارج الكمال الروحى حتى ليستطيع شفاء المرضى . بيد أنه يعاهد المسيح ألا يرى وجه امرأة أبداً . وأما أمه سنكلتيكى فلما انقطعت عنها أخباره اعتقدت أنها ثكلته . فتؤسس ملجــأ للغرباء والمسافرين ، وذات يوم تسمع بعض التجار أو الرهبان يتحدثون عن المعجزات التى يصنعها قديس يدعى أرخليدس بدير أبا رومانوس ، وللتو تتعرف فيه ابنها وتعتزم الذهاب إليه لتبرأ من حزنها . ويحاول الرهبان أن يثنوها عن عزمها ، فيعرفوها بالقسم الذى قطعه على نفسه ، ولكنها تذهب إلى رئيس الأساقفة وتعهد إليه بثروتها وتنبئه بعزمها . وأخيراً تصل إلى الدير حيث تنتهى جهودها لرؤية ابنها وإصراره على المحافظة على عهده بوفاة كليهما . فيصلى أرخليدس بأن يأخذ الله روحه كما تستطيع أمه أن تراه دون أن يحنث بعهده ، فيموت ويسمح لأمه بالدخول . وإذ يفجعها موت ابنها من جراء إصرارها على رؤيته ، فإن سنكلتيكى تصلى طالبة الموت ، فتموت وتدفن معه .

ففى الفقرة الأولى نرى رئيس الدير يأمر بإدخال أرخليدس الواقف بالباب :

« افتحوا له وادخلوه

وآتوا به إلىّ

حتى أرى وجهه ـ وأعرف من أين أتى » .

ويستطرد رئيس الدير :

« أقرر أن وجهه يشبه وجوه الملائكة

وأنى أقبله فى الدير .

ستجرى على يديه آيات الشفاء

وسيتناقل الناس أخبار شهرته » .

ويلتمس أرخليدس الدخول فيقول :

« أتوسل إليك يا أبى
يا من تتولى رئاسة الدير
حسبي أن تجعلنى راهباً معك
حتى اتفيأ ظلال الـ . . . . . .
لا تطردنى خارجا يا سيدى الآب
لأنك ستقدم حسابا عن دمى
رب السماوات معينى
وعليه ألقى همومى » .

وتنتقل بنا القصيدة إلى روما حيث نجد سنكلتيكى تندب ابنها . والأسطر الخمسة الأولى من المقطوعة التالية غير كاملة :

« ان رؤية وجهك هى سلواى اليومية
وما تركه لنا والدك يكفى كلينا
أن حزنى لشديد
إذا سافر انسان إلى بلاد غريبة
وغاب عاما ، فانه يرجع يوما إلى بيته .
لقد ذهب أرخليدس إلى المدرسة
وها أنا لم أر وجهه منذ وقت طويل .
فإذا كنت حياً يا ابنى الحبيب
فانى موقنة بأن الرب سيردك إلىّ .
ولكن إذا كنت ميتا
فليسبغ الله عليك رحمته » .
انى حزينة عليك يا ابنى الحبيب
أرخليدس ، يا من أحبه

ويا من لاسمه عذوبة فى فمى
وليس لى شخص سواه .
فيا إخوتى وكافة معارفى
لتحزنوا وتندبوا معى
لوفاة ابنى الحبيب
الذى لا أعرف ما أصابه .

ويبدو أن هنا أربع صفحات فاقدة تحوى ما يقرب من ضعف الفقرات التى ذكرت ، وكانت سنكلتيكى قد أسست فندقها ، وبينما هى تنصت إلى حديث يدور بين بعض النزلاء إذا بأحدهم يذكر حادثة وفاة ، فيجيبه بعض الآبا القديسين :

آه ، لو تمكن من الذهاب إلى
دير الأنبا رومانوس
حيث القديس أرخليدس
ثم توسل اليه
ليصلى إلى الله من أجله
لتم له الشفاء
لأن رب السماء
معه .

فتقول سنكلتيكى للرهبان :

« ألتمس منكم يا أبائى القديسين
أن تخبرونى عن مكان ذلك الرجل
حتى أذهب وأتوسل اليه
عسى أن يشملنى برحمته
إذ انى مصابة بمرض دفين

لا أعرف له كنهاً منذ أمد طويل
فإذا ذهبت وتوسلت إليـه
فقد أسترد صحتى » .

ويجيب الرهبـان :

« يا أمرأة ، أننا نضع عبئاً على أكتافه
وأنت لا تستطيعين الذهـاب إلى حيث يقيم
ففى الطريق وحوش كثيرة (؟)
وفوق ذلك . . . . . .
فأن القديس أرخليدس
لا يقع نظره أبداً على وجه أمرأة » .

وتوجه سنكلتيكى الحديث إلى رئيس الأساقفة :

« صل من أجلى ، يارئيس الأساقفة
أننى ذاهبـة إلى رومانيـا
فقـد سمعت أن أرخليـدس
صـار قديسـاً كاملا وعظـيما
سأذهب لأكون راهبـة معـه
فيصير فرحى كاملا » .

« يا أبى رئيس الأسـاقفة
خذ كل ما أملك واحتفظ به لديك
فقد أفضى إلىّ البعض
أن ابنى أرخليدس لا يزال على قيد الحياة
فإذا ذهبت ، وقدر لى أن أعود
سأهب جزءاً عـا أملك للـكنيسة

ولكن إذا مكثت معه حيث يقيم
أعطي كل شيء للفقراء واليتامى ».

وهنا تنقصنا خمس فقرات على الأقل . وكانت سنكلتيكي قد وصلت إلى الدير ، وأوفدت رسولا الى أبنها ، ولكنه يرفض أن يخرج اليها فتقول :

« ان البطن التي حملتك
وهذين الثديين اللذين أرضعاك
هي التي تسعى اليك
يا أرخليدس حبيبي ،
أستحلفك بالآلام
التي تحملها المسيح لأجلنا
أن تأتي خارجا لتكتحل عيناي برؤية وجهك
حتى يصير فرحي كاملا ».

ثم توجه الكلام الى الرسول قائلة :

« أذهب وقل لأرخليدس
أن والدتك بالباب تنتظر ،
لقد جئت اليك لأرى وجهك
حتى اذا ما رأيتك فأنني أموت !
تعال اليّ ياحبيبي ،
لتطيب بذلك نفسي
حتى إذا ما رأيت وجهك
حلت السكينة بقلبي ».

فيجيب أرخليدس :

« لقد عاهدت ربي

ولا أستطيع أن أحنث بعهدى
ألا أتعدى هذا البـاب
وألا يقع نظرى ما حييت على وجه أمرأة .
فإذا مكثت هنـا
فاجعلى الدير ديرك يا والدتى .
واذا رجعت الى منزلك
فليتو لاك الرب بهدايته » .

فترد سنكلنيكى :

« أننى تركت رومانيـا ورائى
وأتيت الى ربوع فلسطين
لأجل أن أرى وجهك
يا أرخليدس ابنى الحبيب .
إن صخب البحـار
التى أتيت عبرهـا
لم يسبب لى من الألم
ما سببته لى كلمتك
« لن يقع نظرى ما حييت على وجه امرأة » .
قل لابنى وحبيبى
ها أن الثديين اللذين أرضعاك
ينتظرانك بالبـاب
فى شوق الى رؤياك
أرخليدس حبيبى ،
تعـال خارجا
حتى أحبيـك

فيكون فرحى كاملا » .

أرخليدس :

« اذهب وقل لأمى سنكلتيكى
لقد عاهدت
رب السماء
ولا أستطيع أن أحنث بعهدى
أنه من الخير أن أرى وجهك
فى ملكوت السموات
. . . . وأقدم حسابا
عما صنعت يداى » .

« اذهب وقل لأمى
أرجعى (؟) لموطنك
فلقد نذرت لإله السماء
« الا يقع نظرى ماحييت على وجه امرأة »
ولا أستطيع أن أنقض
ما عاهدت ربى عليه .
حتى لا أجلب غضبه علىّ
فيطردنى بعيداً عنه . »

سنكلتيكى :

« أذهب وقل لابنى
أرخليدس الذى أحبه
ـ أننى أمك سنكلتيكى
جئت الى هذا المكان لأراك ،

بل أن الثديين اللذين أرضعاك
والبطن التى حملتك
هى تنتظر خارج البـاب
تتـوق إلى التحدث معك » .

أرخليـدس :

« أستحلفك يا أماه
باسم رب الجنود
ألا تعـذبينى
بإصرارك على خروجى لرؤياك
فقد نذرت
لإله السماء
« أن لا يقع نظرى ماحييت على وجه أمرأة »
ولا أستطيع أن أحنث بنذرى
لئلا ينبذنى الرب بعيداً عنه » .

سنكلتيـكى :

« أستحلفك باسم إله السماء
يا أرخليدس ، يا ابنى الحبيب
أن ترأف بحالى ، فتأتى إلىّ لأراك
تذكر يا ولدى
الآلام التى تحملتها فى سبيلك
عندما كنت أحملك بين ذراعى
وعندما كنت أرضعك
.... أرى وجهـك
ياحبيبى ، ياضياء عينى
..... الرب ..... »

سنكلتيكى تندب فوق جثة ابنها :

« أيتها النساء ، يا كافة من انجبن أبناء
تجمعن وابكين معى .
لقد أنجبت ولداً واحداً
وأنا التى أوردته حتفه
تتوق نفسى للتزود منك بنظرة أخرى
أثمن عندى من جميع كنوز العالم !
فليعنى الرب
وعليه ألقى همومى » .

« أيتها النساء يا من انجبن أبناء
تجمعن وابكين معى .
لقد أنجبت ولداً واحداً
وأنا التى أوردته حتفه .
أرسلتك إلى أثينا
وإلى بيروت لتتعلم الكتابة
فتركت كل ذلك جانبا
وذهبت لتكون راهباً » .

« لقد ركبت البحر العاتى
منذ ما تركت روما
وجئت إليك
يا أرخليدس ابنى الوحيد ،
يا من كنت نوراً لعينى
أنا ، أنا التى جلبت كل ذلك على نفسى
يا ابنى أرخليدس .

لمـــاذا فعلت . . . . . ؟
لقد أوردتك حتفك ،
« أرفع عينيك وانظر الى وجهى
يا ابنى الحبيب أرخليدس .
أنا سنكلتيكى أمك ،
التى أتت هنـا لتراك
. . . . . . التى أتت لـتراك
. . . . . . لأجلى .
لقد جئت إليك يا أبنى الحبيب .
لا أرى . . . . الموت » .

أما الثـلاث قطع القصيرة الآتيـة فلا يوجد بينها ارتباط ، ولـكنها ترجع إلى ذلك العهد .

« خرجت لأمشى فى الطريق
فوجدت جسداً ملفوفاً وميتـــاً .
حللت أربطته ، فقال لى
جئت اليـك يا أبى القديس
لتـكشف عن لغزى بحكمتك » .

فهذا الجسد الذى وجده الشاعر كان ملفوفاً بأربطـة مثل موميات العصر القـديم . فقطع الأربطة التى كانت حول الفـك ، حتى يستطيع الجسد أن يتـكلم . ولم يخب ظنـه ، فقد تكلم قائلا : « كما حللت هذه الأربطة ، حاول أن تحل لغز الموت إذا استطعت » .

أننى أبحث عن شخص أبدى
أبثه أشجـــانى

فإذا مت صلى من اجلى
واذكر قول يوحنا الذهبي الفم
« كل انسان على ظهر البسيطة
لابد ان يرى كل ما كتب عليه » .

والإشارة هنا إلى القديس يوحنا فم الذهب . وهناك ثلاثة أسطر أخرى ولكنها ليست تامة :

ليست الصداقة أكلا وشرباً ،
انما الصداقة الحقة هى
إذا وقع صديقك فى خطية
عليك ان تبذل نفسك لتخليصه .
ان المسيح صديق لآدم
فما ان وقع فى معصيته
حتى بذل جسده ودمه لأجله
واعاده إلى المركز الذى كان يشغله .

ونلاحظ فرقا شاسعاً بين لغة قصة قمبيز وهذه الأشعار ، مما يدل على ان هناك حقبة طويلة تفصل بينهما . ولا شك ان كاتب هذه القصة كان يعتبر مثل هذه الأشعار قطعا جافة .

رأينا فيما سبق كيف ان السحر - المصرى القديم والهيليني - كان لا يزال موجوداً فى عهد الأنبا شنوده . وقد اتخذ بعض الكتاب من مقت الأنبا شنوده للسحر دليلا على ان ما لدينا من كتابات عن السحر والطب القبطى انما لا يرجع تاريخه إلى أبعد من عهد العرب . غير انه من العسير حقاً تحديد تاريخ مثل هذه النصوص على وجه الدقة ، لأنها ككل ما يتعلق بالموضوعات الخرافية تسير على نمط واحد لا يتغير مع الزمن ، إذ ان النصوص المكتوبة

فى عصر متأخر تحاكى تماماً ما كتب منها فى عصر سابق سواء فى أسلوب كتابتها أو مادتها ، وهناك كثير من النصوص السحرية المكتوبة بخط ردىء بدائى مما لا يستطاع معه تحقيق تاريخها على وجه الاطلاق ، ومع كل ذلك فباستطاعتنا التسليم بأن بعض هذه النصوص على الأقل ترجع إلى العصر العربى الذى نحن بصدده .

وليس من شك فى أن الأنبا شنوده قد حرم السحر لتنافيه مع المبادىء المسيحية ، وأيضاً لما له من صلة وثيقة بالوثنية . أما الطب فكان ينظر إليه كنوع من السحر ، فالعقاقير الطبية كانت تتساوى لديهم مع التعاويذ أو الأحجبة أو التمائم . وسواء أكان الشفاء يأتى عن طريق تمتمة بضع كلمات غامضة أو تناول مواد غامضة ، فقد استعملت فى كلتا الحالتين وسائل آلية لمعالجة أمور خطيرة تتعلق بالحياة والموت ، دون وساطة الكهنة . على أنه من المدهش حقاً أن لا يصل إلينا إلا القليل من النصوص والتمائم القبطية الخاصة بالسحر والطب ، خصوصاً إذا علمنا أنه كان للسحر والتمائم شأن كبير فى أثيوبيا المسيحية ، وهذه كانت ترجع بأصلها إلى مصر القبطية على وجه التأكيد . ولم يكن هناك اعتراض على السحر فى العصر العربى ، إلا أن المصادر القبطية القديمة فى هذا الشأن كانت قليلة . وليس هناك حد فاصل بين النصوص الطبية وغيرها من النصوص السحرية . وهى تتكون فى الغالب من فقرات يختص كل منها بذكر مرض أو ألم معين ، مع نوع العقاقير المناسبة له ، ثم تحتوى هذه النصوص أيضاً على تسابيح غامضة ومجموعات من الكلمات المبهمة ، بعضها أسماء ملائكة والبعض الآخر ليس إلا خطوطاً على هيئة حروف بقصد الأبهام . هذا وكانت العقاقير تؤخذ من كل مصدر ممكن .

ومع أن القبط كانوا مهرة فى الحرف اليدوية ، إلا أنهم لم يخلفوا لنا سوى القليل من الاصطلاحات الخاصة بها . فنحن مثلا لا نعرف كلمة « حبر » بالقبطية . ويوجد بمتحف برلين (P. ٨٣١٦) مايبدو لأول وهلة كأنه وصفة

لصبغ الأقمشة باللون الارجوانى ، فإذا بنا نتبين أنها محاولة من ساحر جاهل ليوهم أحد زبائنه بفائدة حجرين سحريين يوصى له بهما .

وكان لدى القبط أيضاً المؤلف المعروف باسم « فيسيولوجس Physiologus » أو « التاريخ الطبيعى » ، ولو انه من المتواتر ان بدء ظهوره كان فى الاسكندرية فى أوائل العصر المسيحى ، وعلى ذلك فهو ليس من مبتكرات القبط . ويحتوى هذا المؤلف على ملاحظات خيالية عن الحيوانات ، تتخللها أساطير وتلميحات لاهوتية وأخلاقية . ولم يكن القبط أقل من معاصريهم اقبالا على هذا الكتاب .

وفى القرن التاسع والعاشر والحادى عشر بلغت الحياة العقلية فى العالم الاسلامى ذروتها ، خصوصاً فى بغداد عاصمة الخلافة ، واتحدت مصر وسوريا واسبانيا مع العراق فى جماعة ثقافية لا نظير لها فى انحاء العالم . وكان مما لا مندوحة عنه أن يجرف هذا التيار معه أخصب العقول القبطية ، وبذلك خسرتهم طائفتهم سواء من اعتنق منهم الاسلام أو من بقى متمسكا بعقيدته ، إذ لم تكن الحياة الناجحة متيسرة إلا لمن كان « عربياً » ، كما كان ينبغى على الكاتب أن يكتب بالعربية حتى يجد من يقرأ له .

وفى مستهل الحكم العربى تمتع مسيحيو مصر ببعض الحقوق وعوملوا معاملة اتسمت بالتسامح . ولكن فى عهد الخلفاء الأمويين ، وكانت عاصمتهم دمشق (٦٥٨ - ٧٥٠ م) فرض على الرهبان القبط لغرض حصر الضرائب أن تكوى أيديهم بالنار (٧١٠ م) وكل من ضبط منهم خلواً من هذه العلامة قطعت يده ، وذلك من جراء الضرائب الباهظة التى كانت تفرض على المسيحيين مقابل اعفائهم من الخدمة العسكرية التى لم يكن مسموحا لهم الانخراط فى سلكها . وأخذت القبائل العربية تستوطن وادى النيل واعتنق الاسلام كثير من القبط . وفى عام ٧٢٢م ضرب الرهبان حتى الموت وقطعت رؤوسهم لخلو أيديهم من علامة الكى ، كما خربت الكنائس وسلبت محتوياتها ،

وفيما بعد ألزم القبط جميعاً أن يحملوا على أيديهم علامة الكى هذه . وفى عهد الخلفاء العباسيين ، وكانت عاصمتهم بغداد ، (٧٥٠ - ٨٦٨ م) ، اضطهد القبط وثاروا مراراً . وإبان ولاية الخليفة المأمون (٨١٣ - ٨٣٣ م) بدأ اختلاط الفلاحين القبط بالعرب ، وأخذوا يستعملون العربية عوضا عن اللغة القبطية .

وحوالى سنة ٨٥٠ م فرض على جميع القبط ان يضعوا كلاّبات من الخشب على أبوابهم وأن يرتدوا ملابس صفراء خاصة بهم . وأما حكام مصر من الفاطميين (٩٦٩ - ١١٧١م) فكانوا بوجه عام على شيء كثير من التسامح مع المسيحيين واليهود . غير أن الحاكم (٩٩٦ - ١٠٢١م) الذى كان مصابا بخبل فى قواه العقلية ، فقد أصدر أمراً عندما ساءت حالته بأن يعلق المسيحيون حول رقابهم صلبانا من الخشب يزن الواحد منها خمسة أرطال ، وكذلك يعلق اليهود أطواقا من الخشب يزن الواحد منها خمسة أرطال ، كما ألزم المسيحيين بارتداء ملابس وعمائم سوداء . ثم أصدر أمره بالقضاء على كافة المسيحيين وممتلكاتهم ، وأخيراً أمر بنفى جميع المسيحيين و اليهود إلى بلاد اليونان . وبطبيعة الحال لم يوضع القراران الأخيران موضع التنفيذ . وبعد جميع هذه الفورات والثورات ، التى كانت تؤدى دائما إلى ازدياد سوء حال القبط ، لم يعانوا اضطهادات قاسية أخرى حتى القرن الرابع عشر . ويمتاز القرن العاشر بكثرة ما ظهر فيه من المخطوطات باللهجة الصعيدية فى الدير الأبيض وغيره من الجهات . وكانوا يكتبون على الرق ، وكانت الصفحات كبيرة بقدر ما يسمح به صنع الرق ، كما كانت الكتابة بأحرف كبيرة وتختلف كل الاختلاف عن المخطوطات القديمة ، ونعنى مخطوطات القرن السادس مثلا . أما محتويات هذه المخطوطات فكانت من الآداب الصعيدية القديمة ، مثل الكتاب المقدس وسير القديسين ، والعظات ، وكتابات الأنبا شنوده ، وما إلى ذلك . وليس من شك فى أننا نواجه هنا محاولة أخيرة لاحياء ماضى اللغة القبطية الصعيدية فى عصر مشوب بالاضطهاد والفساد .

وفى القرن الحادى عشر كتب أثناسيوس أسقف قوص بصعيد مصر كتابا باللغة العربية فى قواعد اللهجتين البحيرية والصعيدية ، ويبدو محققاً أن اللغة العربية كانت حينذاك لغة التخاطب فى الصعيد ، وان من أراد من القبط أن يتعلم القبطية كان عليه أن يلتمس ذلك عن طريق الكتب والمدارس . وكانت اللهجة البحيرية تتقدم الصعيدية فى الأهمية ، نظراً إلى ان الأولى قد اضحت اللهجة الرسمية للكنيسة القبطية منذ أن نقل البطريرك خريستوذولوس (١٠٤٧ - ١٠٧٧ م) مقر البطريركية من وادى النطرون إلى القاهرة ، التى كانت حينئذ عاصمة البلاد الجديدة (وتقع شمال الفسطاط) التى أنشأها الفاطميون عام ٩٦٩ م .

وهناك نصوص قليلة غريبة فى بابها تثبت محاولة القبط كتابة الكلمات العربية بالأحرف القبطية أو الكلمات القبطية بالأحرف العربية ، وتتبين منها بوضوح أن اللهجة الصعيدية كانت لا تزال فى عنفوانها جنباً إلى جنب مع اللغة العربية فى القرنين التاسع والعاشر ، وأن القبط كانوا يتكلمون العربية ولكن يكتبونها بأحرف قبطية فيما بين القرنين العاشر والثالث عشر ، وبعد ذلك العصر تعتبر الصعيدية لغة ميتة . أما ما رواه أحد رحالة القرن السادس عشر من أن الصعيدية والأغريقية كانتا لا تزالان حينذاك معروفتين لفلاحى مصر العليا ، فليس ذلك يعنى أن الصعيدية كانت لا تزال لغة القوم فى ذاك الوقت.

ولقد صاحب الحركة التى جعلت البحيرية اللهجة الرسمية للكنيسة القبطية نهضة فى الآداب القبطية ، أتخذت اللهجة البحيرية لسان حال لها .

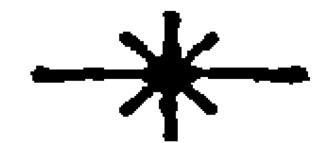
رأينا فيما سبق أن البحيرية كانت على وجه الاحتمال أول لهجة قبطية وضعت لها قواعد للكتابة ، وأن ذلك تم فى الأسكندرية . ثم نشأت الصعيدية بعدها مباشرة وأصبحت اللهجة الأدبية لمصر العليا والوسطى ، على أن البحيرية ظلت منتشرة فى بعض نواحى مصر السفلى . ومع ذلك فمن الغريب أن لا تصل

إلينا مخطوطات بحيرية يرجع تاريخها إلى أبعد من القرن الثامن ، مما جعل بعض العلماء يؤكدون أن اللهجة البحيرية ظهرت فى القرن الثامن ، ولكن هذا مستحيل إذ لدينا الآن عدد من الوثائق وأجزائها أقدم بكثير من هذا التاريخ ، وفضلا عن أن البحيرية أغنى بالمفردات المصرية من الصعيدية ، فأنها من نواح أخرى أقدم منها ، كما أن الترجمة البحيرية للكتاب المقدس ، وهى مستقلة عن الترجمة الصعيدية ، يرجع تاريخها فى رأى البعض إلى القرن الثالث . أما عدم حصولنا على مخطوطات بحيرية من العصر المتقدم ، فراجع الى ما يتطرق الى أوراق البردى من عطب فى تربة الدلتا الرطبة ، ثم الى أن البحيرية لم يكن لها من الأهمية بقدر ما كان للصعيدية أبان عصر ازدهارها ، فلقد اعتمدت الآداب البحيرية فى نهضتها الأخيرة هذه على الآداب الصعيدية وتكفلت بسد احتياجات الشعب . وإذ تطلب الأمر نقل كنوز الماضى إلى اللهجة الرسمية للكنيسة ، ولو أنها كفت عن أن تكون لغة التخاطب ، فقد نقلت إليها كتب الطقوس والمواعظ ، وبعض مؤلفات منسوبة خطأ إلى مشاهير الكتاب ، وتاريخ حياة الأنبا شنوده ومؤلفاته ، وحتى مؤلفات الآباء الأغريق . وهناك أيضاً بعض الألحان المبتكرة ، ولكنها دينية جميعاً ، ومن بينها نوع خاص يدعى بالثاوذوكيات ، على أن هذه لم تكن على الدوام تسابيح لوالدة الأله (كما يوحى اسمها) وكثيراً ما كانت تختص بموضوع من الكتاب المقدس أو بأحد القديسين . بيد أن البحيرية لم تبسط جناحيها على جميع أرجاء القطر ، حتى ولا كلغة أدبية مفروضة ، إذ لم تتخط المنيا جنوباً فى القرن الثالث عشر .

وتشهد مؤلفات القرن الثالث عشر النحوية واللغوية بانعدام كل معرفة باللغة القبطية . نذكر من بينها على سبيل المثال معجم البحيرية الذى وضعه الاخوان أبو الفرج وأبواسحق إبنا العسّال ، ومعجم البحيرية ونحوها ليوحنا السمنودى (فى الدلتا) ، غير أنه مما يجدر ملاحظته أن الصعيدية كانت قد

فقدت كل اهتمام بها ، وأن هذه المؤلفات لم تكن معاجم وكتب نحو بالمعنى الذى نفهمه، أو حتى بالمعنى الذى كان معروفاً لدى العرب فى ذاك الوقت . فهى لم تتعد محاولات لتفسير الكلمات والجمل الخاصة بالطقوس الدينية .

ولدينا من القرن الرابع عشر مؤلف جدير بالاعتبار هو « المثلث » (*Triadon*) ، ويتضمن أشعاراً تعليمية باللهجة القبطية الصعيدية كتبها إشادة باللغة القبطية شخص مجهول من المحتمل أن يكون راهباً من مصر العليا ، ويرى مؤلفها أنه بكتابته هذه القصيدة القبطية قد أتى معجزة ، مما يوضح بأن اللغة القبطية كانت تعتبر لغة ميتة منذ وقت طويل . إلا أنه لم يصلنا سوى ٤٢٨ بيتاً من مجموع أبياتها البالغ ٧٣٤ ، وتليها ترجمة عربية تساعدنا على تفهم بعض أجزائها ، ولغتها فيها كثير من التكلف وفوق ذلك فأبياتها مقفاة على غرار الشعر العربى إلى حد ما ، ومادتها دينية وتهذيبية وتتضمن شخصيات من الكتاب المقدس وبعض القديسين وطرفاً من أمجاد الماضى القبطى . ولكن روحها الدينية تنقصها الحيوية .



مصر فى عهد تدهور الحكم الاسلامى

سقطت بغداد ، عاصمة الخلافة الشرقية ، فى أيدى المغول عام ١٢٥٨م ، وفى الحق كان العالم الاسلامى قد انتابه الانقسام السياسى منذ عهد طويل ، فقد زالت العاصمة الثقافية من الوجود وسادت فترة ركود . وفيما بين عام ١٢٥٠ و ١٥١٧م حكمت مصر دولة المماليك ، وأصلهم عبيد وجنود من الحرس . وفى عهدهم فرض عام ١٣٠١م على المسيحيين وضع العمائم الزرقاء وعلى اليهود وضع العمائم الصفراء . وفى عام ١٣٢١م قام بعض الأشرار من متعصبى المسلمين بهدم جميع الكنائس الرئيسية فى مصر ، بعد أن نهبوا محتوياتها . وثأر القبط لذلك بأن احرقوا كثيراً من المساجد والقصور ومنازل المسلمين ، فكان من جراء ذلك أن أعدم كثير من القبط والمسلمين على السواء دون محاكمة . وأخيراً أذعن السلطان لجموع الغوغاء الخطرة وأسفر ذلك عن مذبحة بين المسيحيين ليس لها نظير . ثم حرم على المسيحيين ركوب الخيل أو البغال أو حتى الحمير ما لم يجلسوا ووجوههم متجهة إلى الخلف ، كما حتم عليهم مرة أخرى أن يضعوا العمائم الزرقاء وأن يعلقوا ناقوساً حول العنق عند دخولهم الحمامات . كذلك طرد القبط من جميع الوظائف العمومية ومن العمل عند أعيان المسلمين. وكان من نتيجة كل ذلك أن اعتنق الاسلام جموع كبيرة منهم خلال عامى ١٣٥٤ و ١٣٥٥م ، وصاحب ذلك تخريب كنائس مصر العليا . وفى حكم الشيخ المؤيد ، من السلاطين البرجيه فرضت على المسيحيين ضرائب باهظة وأعيد سن القوانين اللازمة لذلك ونفذت قهراً ، وأجبر المسيحيون على ارتداء الملابس الزرقاء القاتمة والعمائم السوداء ، مع تعليق الصليب الخشبى الذى زنته خمسة أرطال حول العنق ، وأما اليهود ففرض عليهم ارتداء الملابس الصفراء والعمائم السوداء وتعليق طوق اسود حول العنق .

وفيما بين عامى ١٨٣٣ و ١٨٣٥ م كتب رجـــل انجليزى يدعى ادوارد وليم لين (*Edward William Lane*) كتابا بعنوان Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians وهو عبارة عن لمحة سريعة عن الشعب المصرى قبيل تعرضه للمؤثرات الحديثة الأوربية . ولقد ضمن ملحق كتابه فصلا عن القبـط جديراً بالقراءة مع بعض تحفظات . وكان لين هذا متحمسا كل التحمس للعرب والاسلام دون أن يكون لديه أى اهتمام بالقبـط أو بلغتهم . وقد استق أغلب معلوماته من « قبطى ذى فـكر حر وراجح » ، وهى صفـة يبدو أن لين شك فى وجودهـا بينهم . صرح هذا « القبطى المحترم » بأن بنى قومـه « يعدون بوجـه عام شعباً جاهلا مخادعا كافراً ، لا هم له إلا كسب الدنيا والانغماس فى الملذات » . وعلى نقيض ذلك ، فلدى كاتب هذه السطور فـكرة عالية جداً عن خلق وذكاء القبط الذين عرفهم . وهناك عيب آخر يشوب كتاب لين ، ألا وهو أنه يعطى صورة للقبط كما كانوا عقب عهد طويل من الاذلال الشديد ، وقبيل العهـد الحديث الذى حصلوا فيه على نصيب أكبر من الحرية والـكرامة . ومن الأمور البعيدة عن الحقيقة ـ على الأقل فى وقتنا هذا ـ قوله « انهم يكرهون كرهاً شديداً كل من عداهم من المسيحيين . . . . . ومع ذلك فان المسلمين يعتبرونهم أقرب جميع الطوائف المسيحية الأخرى لدين الاسلام » . ومهما يكن من أمر فاننا إذا ما تأملنا مدى ما مر على القبط من اضطهاد متصل على أيدى الأغريق الوثنيين ثم الأغريق المسيحيين ، ثم العرب المسلمين لم يدهشنـا ما يبدونه من التحفظ من جهة ، ولا ما لجأت اليه جموع كبيرة منهم من التحول إلى الدين الاسلامى من جهة أخرى . وفى الحق انهم لا يكادون يلامون سواء على هذه المقـاومة أو على ذلك الاستسلام .

وفى عام ١٧٩٨ هزم نابليون بونابرت مراد بك واستولى على الاسكندرية ، ثم سرعان ما استولى على القاهرة . وفى عام ١٧٩٩ كانت مصر الوسطى والعليا فى قبضة يده . وفى عام ١٨٠١ أجبر الانـكليز الفرنسيين على الانسحاب من

مصر . فكانت حملة نابليون هذه بداية الاهتمام بدراسة ماضى مصر دراسة علمية ، وخصوصاً اللغـــة المصرية ، ومنذ ذلك الحين أطلق الأوربيون على المسيحيين الوطنيين لقب « قبط » (*Copts*) وهو تعبير مشتق من اللفظ العربى الدارج «جبط» الذى يرجع فى أصله إلى الكلمة الاغريقية القديمة « ايجبتيوس» (*Egyptian*) أى « مصرى » . وكانت أول محاولة علمية لدراسة نحو اللغة القبطية هى التى قام بها لودويج سترن (*Ludwig Stern*) ووضع فى ذلك كتاب (Koptische Grammatik) المطبـوع فى ليبزج عام ١٨٨٠م بالالمانية ولقد كان هذا العـالم عبقرياً ، ولم يكن ينقصه سوى ميزة الالمام بقسط أوفر من اللغة المصرية عما كان متداولا حينذاك ، وبالرغم من ذلك فأننا نستشف فى كتابه معرفة باللغة القبطية لم يبزه فيها من بعض النواحى أى أحد ممن كتبوا فى هذا الموضوع فيما بعد . وفى نفس الوقت وضع أدولف أرمان (*Adolf Erman*) قواعد النحو الهيروغليفى ، كما نعرفه الآن ، فترتب على ذلك ضرورة مراجعة نحو اللغة القبطية ، وقد اضطلع بهذا العمل جورج ستيندورف(*Georg Steindorff*) فى كتابه (Koptische Grammatik) المطبوع فى برلين عامى ١٨٩٤ و ١٩٠٤م، وقد ظل منذ ذلك الحين المرجع الأساسى للأفواج المتلاحقة من العلماء المحدثين ، كما لا يزال يعتبر الباب الذى يجب أن يلجه كل من يبغى دراسة اللغة القبطية دراسة جدية . ثم وهناك كتاب ولترتيل (*Walter Till*) وعنوانه : (Achmimisch-Koptische Grammatik) المطبوع فى ليبزج عام ١٩٢٨م ، وكتابه الآخر(Koptische Dialectgrammatik) المطبوع فى ميونخ عام ١٩٣١م . وأيضـاً كتاب م. شين (*M. Chaine*) (Elements de Grammaire Dialectale Copte) المطبوع فى باريس عام ١٩٣٣م ، وجميع هذه المؤلفات هى بمثابة شواهد على التقدم المطرد فى دراسة اللغـة القبطية فى أشكالها المختلفة . وأما القواميس فمنـــذ أن نشر أماديوس بيرون(*Amadeus Peyron*) قاموسه (Lexicon Linguae)

(Copticae المطبوع فى تورين عام ١٨٣٥ م ، لم يظهر بعده شىء إلى أن نشر ولهلم سبيجلبرج (*Wilhelm Spiegelberg*) كتابه (Koptisches Handworterbuch) وذلك عام ١٩٢١ م . ولدينا الآن قاموس كرام (*W. E. Crum*) وعنوانه (Coptic Dictionary) وهو مطبوع فى اكسفورد عام ١٩٢٩م ، وهذا الكتاب الضخم الذى أفنى المؤلف حياته فى اعداده ، هو نتيجة دراسات شخصية لكافة النصوص القبطية المنشورة ولأغلب النصوص التى لم تنشر بعد .

وفى مصر تأسست جمعية محبى الكنائس والفن القبطى عام ١٩٣٥م ، ونستطيع أن نترسم آثار تطورها بما طرأ على اسمها من تغيير ، ففى السنه التالية حذفت كلمة « الكنائس » ، ثم فى عام ١٩٣٨م أصبح اسمها جمعية الآثار القبطية. وتنشر هذه الجمعية مجلتها فى مجلدات سنوية من مركزها الرئيسى بالقاهرة ، وهى مطبوعة طبعاً أنيقاً خالياً من الأخطاء فى مطبعة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة . وتعتبر هذه المجلة من جميع الوجوه مجلة علمية من الطراز الأول ، أما عضوية الجمعية فمباحة لجميع الأجناس ، ويساهم فى تحرير المجلة علماء من كافة انحاء العالم .

وهناك المتحف القبطى الذى أسسه مرقص سميكه باشا فى مصر القديمة عام ١٩١٠م ، وهو مركز الاهتمام بكل ما يتعلق بالفنون والآثار القبطية ، كما وهو فى نفس الوقت خير كفيل لاستمرار هذا الاهتمام واطراد نموه . ويوجد فى الجيل الحديث من القبط ، خارج الأوساط الكهنوتية ، أفراد ممن لهم نصيب كبير أو صغير من الثقافة الأوروبية ، قد بدأوا يخلقون جواً من الاحترام لماضى القبط ، كما أخذوا يعنون بدراسة مخلفاته دراسة علمية بحتة . هذا ويسعى بعض الشباب جاهدين للحصول على معرفة كافية إلى درجة معقولة لصلوات الكنيسة المكتوبة باللهجة البحيرية ، ويذهب البعض إلى أبعد من

ذلك فيحاولون تكوين خطابات بها ، ومع ذلك فهم يجهلون مجرد وجود اللهجة الصعيدية وغيرها من اللهجات القديمة . على أنه يعترض سير تقدمهم ذلك الارتياب المتواتر فيما يدعيه الأوروبيين من سعة العلم ، وتلك اللغة الجافة التي يتوارثها الكهنة ، ثم وذلك النقاعس الخطير .

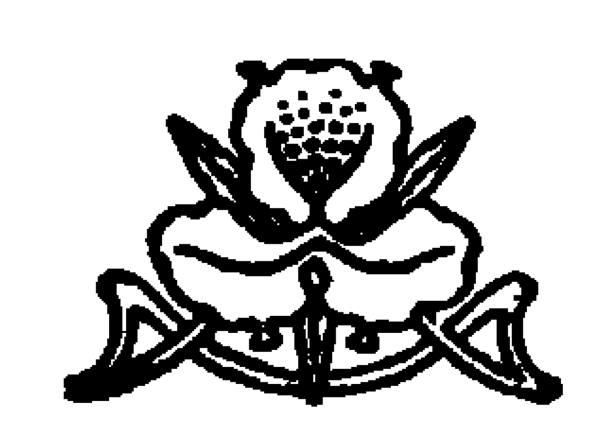
وفى بعض جهات مصر العليا لا تزال بعض عائلات الفلاحين تتوارث كيفية نطق اللغة القبطية ، ومع قلة ذلك فأنهم ينطقونها نطقاً صحيحاً أرقى بكثير من نطق كهنة القاهرة . وهم شديدو الفخر بوجود هذا التقليد العائلى لديهم وبما يتميز به ، أما تحمسهم لماضى القبط فمتصل ولا يخبو له أوار وهو كفيل بحفظ تلك الشعلة المقدسة التى قد يتاح لبعض القبط الموهوبين أن يوقدوا منها شموعهم .

ويتخذ المسلمون المصريون فى الوقت الحاضر موقف التسامح تجاه الآثار القبطية كما هو تجاه آثار مصر الوثنية ، حتى أن الحكومة ضمت المتحف القبطى إليها . لقد انتهى النضال بين الصليب والهلال منذ وقت طويل ، والقبط أنفسهم ليسوا الآن سوى بقايا أثرية عديمة الضرر إلى حد بعيد .

ويقوم الشعب بالحركات الأصلاحية التى يعارضها الأكليروس بطبيعة الحال ، إذ لا يستطيعون مجاراة الحياة العصرية . وتهدف هذه الحركات إلى محاولة انتشال الكنيسة القبطية من وهدتها ، غير أن هناك دون ذلك مقاومة غير منظمة ومعارضة منظمة . وقد بدأت الرهبنة فى التدهور منذ الفتح العربى ، حتى أنه لم يتبق من مئات الأديرة سوى ثمانية فقط . وبعد أن كانت هذه المؤسسات مراكز يشع منها نور العلم والعرفان فى دنيا كلها ظلام ، أصبحت الآن أركاناً مظلمة فى عالم مستنير . غير أن ذلك لا يعنى أن رهبان اليوم ينقصهم الورع والروحانية ، وانما هم يمتون إلى عصر مضى وانقضى .

وأما مسألة الأوقاف الدينية فقائمة فى مصر كما فى كل مكان . ولقد اتفقت كلمة المتعلمين تعليما أوروبياً راقياً ، سواء منهم المسيحيون أم المسلمون ، على تحكيم العقل لا الدين فى مختلف الأمور . ولا يؤدى ذلك عادة إلى نوع من الالحاد أو الاستخفاف بالدين لأن للدين تأثير عميق فى الشرق الأدنى ، وانما يؤدى إلى نوع من الاعتدال والتسامح فى التفكير مع ولاء صادق للنظام الاجتماعى . وهنا يقودنا البحث إلى موضوع القومية ، فنى القرون الوسطى لم يكونوا يعرفون سوى الولاء لعقيدة دينية أو لجماعة تحكم حكماً دينياً ، وإذا كانت الفكرة الحديثة التى تنطوى على الولاء لجماعة سياسية مختلفة الأديان تجد صعوبة ملحوظة فى أوروبا وأمريكا ، فكم بالحرى يكون الحال فى الشرق الأدنى .

ومهما يكن من أمر فان حماسة القبط فى المطالبة باستقلال بلادهم لم تقل عن مواطنيهم المسلمين ، وكانت جريدة « الوطن » الشهيرة تصدر فيما بين عامى ١٨٧٦ و ١٨٩٧ م من المطبعة التى أسسها الأنبا كيرلس الرابع .



ملحق

بأسماء المراجع التى اقتبس منها المؤلف أو نقل عنها .

أقوال الآباء المصريين :

From G. Zoega, Catalogus Codicum Copticorum Manu Scriptorum qui in Museo Borgiano Velitris adservantur (Rome, 1810,. reprint, Leipzig, 1903). Citations are from pp. 353, 303, 305, 305, 346, 343 ff., 345 f. 341 f., 310, 299 f.

الخطاب المكتوب على قطعة الشقف :

From W. E. Crum, Coptic Ostraca from the Collections of the Egypt Exploration Fund, the Cairo Museum and Others (London, 1902), No. 189 pp. 77 f., 189.

أعمال الرسولين أندراوس وبولس :

From Zoega, pp. 280 ff, Citation is from pp. 232 f.

التعويذة واللعنة :

From Michigan Coptic Papyri, Inv. Nos. 1190, 1523.

السلوك فى هياكل الشهداء :

From Zoega, pp. 421 ff.

الذخائر والهياكل الزائفة :

From Zoega, pp. 423 ff.

التعهد :

From J Leipoldt and W. E. Crum, Sinuthii Archimandritae Vita et Opera Omnia (Leipzig, 1908), III, 20.

قوانين الدير الأبيض :

From Leipoldt Crum IV, 163.

المجادلات :

From Grum, Add. No. 46, pp. 81, 97.

في الحجـز :

From W E. Crum and E White The Monastery of Epiphanius at Thebes (New York, 1926), 11, Nos, 176, 177, pp. 51, 200/1.

خطـاب بـلـيـنى :

From Crum-White, 11, No. 182, pp. 52, 203.

الغـــزو :

From crum—White, 11, No. 200 pp, 55, 207.

المرض :

From crum-White, 11, No. 199, pp. 55, 206 f.

إلى رجـل مسن :

From an Ostracon in the Walters Art Gallery, Baltimore, Md, (No. 10, 518).

رواية قمبيز :

From Agyptische Urkunden aus den koniglichen Museen zu Berlin, Koptische Urkunden (Barlin, 1902), 1, 33 ff. (No. P. 9009).

قصيدة أرخليـدس وسنكليتيكى :

A. Erman, "Bruchstucke koptischen Volksliteratur," in Abhandlungen der konigl. preuss. Akademie der Wissenschaften zu Berlin (Berlin, 1907), pp. 4 ff., H. Junker, Koptische Poesie des zehnten Jahrhunderts (Berlin, 1908).

« خرجت لأمشى فى الطريق .... » From Erman, pp. 35 f,

« انى أبحث عن شخص ..... » From Erman, pp 31 f.

« ليست الصداقة ..... » From Erman, pp. 32 f.

أشرف على تصحيح وطبع هذا الكتاب دكتور منير شكرى .

يطلب من :

جمعية مار مينا العجايبي بالأسكندرية

طرف دكتور منير شكرى

ومن جميع المكاتب الشهيرة



مطبعة النهضة ومكتبتها ٢٦ شارع الجامعة
تليفون رقم ٢٥٤٠٢ - الاسكندرية

الثمن ٢٠ قرشا